

الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ
الوزير الأديب العالم

بقلم

الدكتور بدوي طبانة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه سيرة علم كبير من أعلام التاريخ في القرن الرابع الهجري الذي انقسمت فيه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف الى أجزاء وامارات أو دويلات ، بعد دولة واحدة كانت تجمع شمل العرب ، وترفع راية الاسلام ، وتتخذ لها قاعدة واحدة في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم في دمشق في بلاد الشام ثم في دار السلام في أرض العراق .

ففى الفترة التى لمع فيها نجم صاحب هذه السيرة كان السلطان فى شبه جزيرة أيبيريا التى أصبحت تسمى بلاد الأندلس لخلفاء بنى أمية الذين أقاموا لهم هناك دولة عربية ، تنافس دولة بغداد ، وبينما كانت هذه الدولة الفتية تبنى معالم نهضة عربية مشرقة بخلفائها الذين احتفظوا بلقب « أمير المؤمنين » كانت خلافة بغداد قد وصلت الى درجة كبيرة من الضعف أمام قوة الجند من الأتراك والديلمة الذين سال سيلهم ببغداد ، وأصبحوا أصحاب الحل والعقد ، وبين أيديهم خليفة عباسى لا يملك من سلطان الدولة شيئاً .

وكان الملك ببلاد افريقية للعبّاسيين الذين قامت دولتهم على انقراض الأغالبة والأدارسة ، وكان كل خليفة من أولئك العبيدين يلقب نفسه باللقب الكبير المأثور ، لقب « أمير المؤمنين »

وكانت مصر والشام في يد الاخشيديين الذين احتفظوا
بالسيادة الاسمية للخلفاء العباسيين ، فكانوا يخطبون باسمهم
على المنابر ، وكذلك كانت الجزيرة الفراتية تحت اماره بنى حمدان
يحكمها منهم ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان
الشييباني ، وكانت حلب والثغور في يد أخيه سيف الدولة على
ابن عبد الله بن حمدان الشييباني ، وكان كل منهما يخطب على
المنابر في امارته باسم الخليفة العباسي .

أما القرامطة فامتد نفوذهم وسلطانهم على عمان والبحرين
واليمامة وبادية البصرة ، وكانوا يخطبون باسم المهدي .
وكان السامانيون يحكمون خراسان وما وراء النهر ، ومقر
ملكهم مدينة بخارى ، وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسي ..
وظلت جرجان وطبرستان يتنازعهما وشمكير بن شيرويه
وبنو بويه وآل سامان .

وكان الأمر بالعراق للديلم ، والسلطان منهم معز الدولة أحمد
ابن بويه ، وكان يخطب على منابرهم باسم الخليفة العباسي ، ثم
باسم معز الدولة ، وابنه ، وابن عمه من بعده . وكذلك كان سلطان
بنى بويه بالاضافة الى ذلك يمتد على بلاد فارس والأهواز
والجبل والري^(١) .. تلك هي القوى الكبرى التي كانت تحكم
الرقعة الاسلامية ، بعد أن تفرق الحكم تفرقا غريبا ، وقد كان قبل
ذلك متماسك الأعضاء ، يرجع كله الى دولة واحدة ، وحاضرة
كبرى تجمع شتاته .

(١) راجع تاريخ الأمم الاسلامية ٣/ ٣٨٠ .

وقد نظر الى نظام الحكم فى ذلك القرن الرابع ، فنأسى لذلك الشمل الشتيت ، وهذه الوحدة الممزقة ، وتلك القوى التى تبددت ، وذلك الصف المتين والركن الركين ، وقد استحال أركاننا متنازعة ، وقوى متنافسة ، وقيادات موزعة .

وقد نطل من زاوية أخرى لنرى من بعض الجوانب الخلية الواحدة ، وقد انقسمت خلايا عاملة توالى الكفاح ، وتواصل التقدم ، فترى عروشا تثبت دعائمها بقوة سلطانها ، وبعظمة الأمراء وسياسة الوزراء ، مواصلة السير فى ركب الحضارة التى رسمت طريقها ، وأقامت معالمها الدولة الموحدة ذات القيادة الموحدة ..

وهناك ظاهرة يقف أمامها الباحث حائرا مفكرا ، فان تلك الجهود التى بذلتها الامارات المتوزعة والقيادات المنقسمة فى تثبيت دعائمها ، وفى ترسيخ أقدامها ، وفى دعم سلطانها — وهى جهود جبارة كانت كفيلة بأن تقف عجلة السير فى طريق التقدم والاصلاح واشاعة الأمجاد — لم تستطع أن تشنى من عزم الرجال ، أو تقل من حدسهم ، أو توقف زحف الأبطال نحو مواطن العزة والقوة ، والوقوف فى وجه الغزاة والظالمين من أعدائهم الذين كانوا ينتهزون الثغرة فى الصف ، والفرقة فى الجماعة ..

فقد انقسمت الدولة الى امارات ودويلات ، والتسمية بالدويلات هنا لا تعنى ضعف السلطان ، ولا الضيق فى دائرة السطوة والنفوذ ، ولا القلة فى أعداد الرعايا والمحكومين ، وانما هى تسمية نسبية بالنظر الى الدولة الواحدة ، أو الدولة الأم ،

التي كانت أصلا لهذه الدويلات ، يضم شملها ، ويوحد كلمتها ،
وييسط شعارها من حدود الصين الى شاطئ المحيط في آسيا
وافريقية وأوربا وفي جزر البحر المتوسط . فقد كان بعض تلك
الدويلات ييسط سلطانه على مساحات شاسعة من البلاد ذات
الحضارة والثروة والتاريخ . بل ان كثيرا من تلك الدويلات كان
يفوق كثيرا من الدول المستقلة في العالم المتحضر وغير المتحضر
اليوم من حيث سعة الرقعة ووفرة الثروة .

وهذه الدويلات كانت تقوم بعبء حراسة الأمن في الداخل
وحماية الحدود والشعور ، وكانت تقوم في الوقت نفسه بعبء البناء
واقامة معالم المجد . والحراسة عبء يستلزم توفير الحشود
وبذل الجهود ، والبناء عبء يستلزم الأمن والاستقرار داخل
الحدود وخارجها .

والقدرة على تحقيق هاتين الغايتين ، والنهوض بهذين العبين ،
يدل أعظم الدلالة على قوة الروح في هذه الأمة ، وصلابة عودها ،
وصفاء معدنها ، وتقاء جوهرها ..

بل ان القرن الرابع — وهو القرن الذي تقع فيه أحداث هذه
السيرة — يعد في طليعة قرون الخصب والسعة في تاريخ هذه
الأمة في ميادين العلم ومجالات التفكير ، وفي دنيا الآداب والفنون
عند الأمة العربية ؛ فقد نبغ فيه من العلماء الأعلام في مختلف
مجالات النشاط الفكري والفني من لا يحصون كثرة ،
ولا يدركون عمقا ، ومن الأدباء والنقاد من انتهت اليهم معالم
العبقرية ، وخصائص الأدب والفن ، واجتمعت فيهم خلاصة

المعارف والأذواق ، حتى كان للفكر العربي صرح ثابت الدعائم
قوى الأركان ، ينشر نوره شرقا وغربا ، ويشارك في بناء الحضارة
الانسانية مشاركة فعالة مذكورة ، بل لا نجاوز الحق اذا قلنا ان
هذا الفكر الذى ابتكره العرب أو الذى حملوه كان السراج
الوهاب الذى بعث النور في سائر الأرجاء .

وقد شارك في بناء ذلك الصرح عقول وصلتها رابطة العروبة،
ورجال أظلمهم لواء الاسلام ، ووحدتهم أواصر العقيدة ، فكانت
لهم قرابة ورحما جعلتهم يسيرون في طريق واحد ، توجههم وحدة
الهدف ، وتدفعهم وحدة التعاليم ، متخذين من كتاب الله اماما ،
ومن الكعبة قبلة ، ومن العربية لسانا .

ومن هنا كان علينا في هذا الدور الخطير من أدوار حياتنا
ونَهَضْنَا أن نحى هؤلاء الرجال ، وأن نمجد هذه العقول ، وأن
نقدم من سبقت به قدمه ، ومن تقدم به عمله ، وأن نعد في جفيل
العروبة كل من خدم العروبة وأسدى إليها يدا بما مكن لنهضتها،
وأرسي من حضارتها ، وأعز من لغتها ، وأثرى من فنها ، وأذاع
من أفكارها ومبادئها ، ودافع عن حياضها ، وبنى بكل هذا
أو بشيء من هذا لها مجدا ، وجعل به لها في العالمين ذكرا .

والعروبة طاقة من القوة والحياة استطاعت بحضارتها المتألقة،
وأمجادها السامقة في تاريخها المجيد أن تصهر أفضاذا من أبناء
الأمم ومختلف الأجناس الذين وجدوا تحت لوائها عزًا ومنعة
وصيانة لأنفسهم ، وتقديرا لأعمالهم ، فبذلوا لها من عقولهم
وقلوبهم وغيرتهم ما يعز على الإحصاء ، وما يستعصى على النسيان،

فقد أعزتهم العروبة واعتزت بهم ، وضبتهم الى صفوة أبنائها ، وصهرت من هذه العناصر النقية الدافعة سبيكة صافية متألفة وجوهرة فريدة في جبين الزمان ، فأنساهم ذلك الاعزاز منابتهم الأولى وعناصرهم الغابرة ، وشاركوا في بناء نهضة وحضارة تتحدى الزمن ، وتقف على قدميها في وجه الأحداث والعواصف والمحن .

والصاحب بن عباد الذي نعرض في هذا الكتاب لدراسة بعض جوانبه يمثل احدى تلك الشخصيات البارزة التي أجالت بعض الأطراف الحائلة في تاريخ العرب والمسلمين صحائف من نور أخذ يكاد يذهب بالأبصار . فقد كان الصاحب وزيرا من الوزراء الذين لا يحصى عددهم كثرة ولا سيما في ذلك الزمان ، وكان أولئك الوزراء معدودين دائما رجال الصف الثاني الذي يلي صف الملوك والخلفاء ، ولكنه استطاع أن يثب بقوته ، وأن ترقى به همته فيكتب في التاريخ سطرا خالدا لامعا ، يرفعه الى الصف الأول بين بناء المجد ، بل ان مجده ليفوق أمجاد ساداته الذين ارتقوا به الى ذلك المنصب الرفيع ، وبدل أن يتلاشى نوره في أضوائهم ، أو أن يستمد هذا النور من أنوارهم ، توارت أسماؤهم وراء اسمه ، واحتجبت أنوارهم في سطوع شمسهِ . وأكد بهذا أن الرجال لا يشرفون بما يقلدون من وظائف وما يتسمنون من مناصب ، وانما تشرف المناصب بالرجال ، وينصف التاريخ الرجال بالهم والأعمال . وقد كان في شرف

الصاحب شرف للعلم والمعرفة ، وكان في كرامته كرامة للفن
والأدب والعلم ، أو للأدباء والعلماء في شخصه .

وكان علم الصاحب وأدبه هما سرّ خلوده وبقاء اسمه على
صفحات التاريخ وفيما خلف من آثار بقيت على الزمان ، في حين
أن الفرقة والتناحر بين تلك الدويلات وحكامها أودى بها ،
ومحايها وعفى على سلطانها في الأذهان ، ولم يعد لها ذكر الا في
زوايا كتب حاولت أن تسد الثغرات في حساب الزمان ، فلا يوقف
عليها الا بعد عنت ومشقة ، وكان هذا النسيان ثمرة وجزاء لما
اقترفوه من تشيت الشمل ، وتمزيق الصف ، فكان ما أشرنا
اليه من معالم القوة أشبه بوميض البرق الذي يأتلق ، وسرعان
ما ينطفئ في فترات لا تذكر في مراحل التاريخ التي لا تحصى
بالسنين ، ولكن بعد أن هدت كيان الأمة واستنفدت جهودها
ومقدراتها ، وأفنت فتوة أبنائها بما شغلتهم به في سبيل الحفاظ
على سلطان زائل ، ارضاء لشهوة السلطان ، واستجابة لنزوة
الاستعلاء ، واشباعا للمطامع . وقد أدّى هذا التفكك فيما بعد
الى أوخم العواقب ، وأسوأ النتائج ، فتكاثت عوامل الضعف
والانحلال حتى طمع في سيادة الأوطان أعداء هذه الأمة الذين
انتهزوا فرصة الضعف والهوان ، فاستعمروا البلاد ، وأذلوا
أهلها ، واستنزفوا خيراتها ، وفي ذلك عبرة لمن تحركه الأطماع ،
وتستبد به الشهوات على حساب الشعب العريق ، وذكري لمن
ألقى السمع وهو شهيد .

ولم يكن هدفنا في دراسة الصاحب أبى القاسم اسماعيل بن

عباد تتبع حياته ، أو استقصاء أخباره ، أو العكوف على حوادث التاريخ بالسرد والاحصاء ، وإن كنا قد بذلنا في سبيل ذلك الكثير من الجهد ، بقدر ما كان هدفنا إبراز أهم الجوانب الانسانية ، وأبرز السجاياء النفسية للصاحب ابن عباد ، وللرجال أو الأحداث التي صحبها وعاش فيها ، وكان لها تأثيرها في بناء شخصيته ، ثم البحث عن العوامل التي أشرفت بها شمسها ، واستطاع بها أن يكون علما من أفذاذ رجال السياسة والعلم والأدب ، له طابعه الخاص ، وسماته المتفردة التي احتل بها تلك المنزلة الرفيعة ، ومن ثم درسناه علما مفكرا ، وأديبا كاتباً وناقداً وشاعرا ، وإنسانا وضعته الأقدار في موضع القيادة ، يعيش مع الناس ويخالطهم ، ويسوسهم ويصرف أمورهم .

ولذلك كان أكبر اهتمامنا بما يجلى هذه السمات ، ويبرز تلك الجوانب . ولم تمنعنا الرغبة في انصافه من الخضوع لمنطق الحق وميزان العدل .
والله الموفق للصواب .

بدوى أحمد طبانة

مصر الجديدة ٩ شعبان ١٣٨٣ هـ
٢٥ ديسمبر ١٩٦٣

الفصل الأول

بنو بويهي

بنو بويه

ابتدأ الدور الثانى للخلافة العباسية ، وهو الدور الذى انتزع فيه السلطان الحقيقى من أيدي الخلفاء العباسيين الذين كانوا يجمعون السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف ؛ ولم يبق للخليفة العباسى فى بغداد من الخلافة الا اسمها ، أى أنه أصبح رمزا للسلطة الدينية فحسب يدعى باسمه على المنابر ، وليس له شئ من الأمر أو النهى ، بل لم يبق له وزير يدبر شئون الدولة باسمه ، وإنما كل ما كان له كاتب يدبر شؤنه المالية ويحصى نفقاته ودخل اقطاعاته لاغير . أما ماعدا ذلك من شئون الحرب والسياسة وتدير أمر الرعية فلم يكن لخليفة بنى العباس منها قليل أو كثير ..

ابتدأ هذا الدور فى أيام المستكفى بالله الذى تولى الخلافة ، أو أسند اليه منصب الخلافة ، أسنده اليه القائد « توزون » الديلمى بعد أن غدر بالخليفة المتقى لله (٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ — ٢٠ صفر سنة ٣٣٣) . وفى المدة التى ظهر فيها بنو بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) أسندت تلك الخلافة الاسمية الى خمسة من خلفاء بنى العباس ، هم المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم .

وكان آل بويه من بلاد الديلم أو بلاد جيلان التي تقع في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر « بحر قزوين » .. وقد ظل الديلمة على وثنيتهم حتى بعد أن فتح المسلمون بلادهم ، وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ؛ على الرغم من أن بلاد طبرستان التي كانت تجاور بلادهم كان يدين أكثر أهلها بالاسلام ، وكان بينهم وبين الطبريين سلم وموادة .. وظل الديلمة على وثنيتهم حتى دخل بلاد الديلم الحسن بن على الأطروش الذي كان لقبه « الناصر لله » وأقام بينهم مدة ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ، ويقتصر منهم على العشر ، ويدفع عنهم عدوهم ، حتى تبعه منهم خلق كثير ، دخلوا في الاسلام ، وبنى في بلادهم المساجد لاقامة الصلاة ..

* * *

وقد ساد من بنى بويه ثلاثة أشقاء استطاعوا ببسالتهم وسخائهم وحسن حيلتهم أن يقودوا الجيوش ، وأن يجمعوا حولهم القلوب ، وأن ينشروا سلطانهم على رقعة كبيرة من الدولة الاسلامية ، حتى كانت لهم دولة مزدهرة في تاريخ الاسلام حكمت مدة طويلة (٣٢٠ — ٤٤٧ هـ) = (٩٣٢ — ١٠٥٥ م) .. وكان أبوهم بويه بن فناخسرو المكنى بأبى شجاع يدعى أنه من نسل ملوك ساسان القدماء ليكسب لأسرته نفوذا في هذه البلاد . وأشهر الذين نقل عنهم هذا القول أبو اسحاق ابراهيم ابن هلال الصابى (ت ٣٨٤ هـ) فقد ذكر في كتابه « التاجى »

أن بنى بويه يرجعون في نسبهم إلى بهرام جور بن يزدجرد الملك
الساساني ، وأن بويه هو ابن فناخسرو بن تمام بن كوهي بن
شيركوه بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن سستان
شاه بن سستن بن شيروزيل بن سسناد بن بهرام جورا لملك بن
يزدجرد بن هرمز ...

وتدل الروايات على أن الصابي حين كان يكتب كتابه
« التاجي » لم يكن متمتعاً بتمام حرّيته ، وأنه حمل عليه حملاً ،
فقد ذكر ابن خلكان أن الصابي كان كاتب الانشاء ببغداد عن
الخليفة ، وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمي ..
وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة بما يؤله ، فحقد
عليه ، فلما قتل عز الدولة وملك عضد الدولة بغداد اعتقله في
سنة ٣٦٧ هـ ، وعزم على القائه تحت أيدي الفيلة ، فشفعوا فيه ،
ثم أطلقه سنة ٣٧١ هـ ، وكان قد أمره أن يضع له كتاباً في أخبار
الدولة الديلمية ، فعمل « الكتاب التاجي » ف قيل لعضد الدولة
ان صديقاً للصابي دخل عليه فرآه في شغل شاغل من التعليق
والتسويد والتبييض ، فسأله عما يعمل ، فقال : « أباطيل أنمقها ،
وأكاذيب ألفقها » .. فحرّكت ساكنه ، وهيجت حقه ، ولم يزل
مبعداً في أيامه (١) ..

فهل نستطيع أن نطمئن إلى صحة هذا النسب كما رواه
الصابي ؟!

نيس من المعقول أن يصدق قول الصابي « أباطيل أنمقها ،

(١) وفيات الأعيان ١/١٠٩.

وأكاذيب ألفقها » على كل ما كتب الصابى ، بل المعقول أن فى « التاجى » ، بل أن أكثر ما فيه ضحيح ، فقد كتب على أرض الأحداث ، وفى مشهد من الذين عاشوا هذه الأحداث وعاصروها.. ولكن الأنساب الضاربة الى هذا الحد من القدم مجال كبير للشك والتردد ، ومجال كبير للحدس والتأليف ، لا سيما أن تلك الأمم لم تكن معروفة بحفظ الأنساب ، ولم يكن يعرف شىء من ذلك أى من آباء بويه وأجداده قبل أن يصبح أبناؤه ملوكا وحكاما ..

على أن هذا النسب الذى ذكره أو اخترعه أو أمر بذكره واختراعه لم يقابله كثير من المترجمين بالرضا والاطمئنان ؛ وطعن بعضهم فى أخباره ، وقد روى ياقوت ما ذكره ثقات منهم أبو القاسم على بن محمد الكرخى — وكان شديد الاختصاص بالصاحب — أن الصاحب كثيرا ما كان يقول : « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو اسحاق الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع » يعنى الصاحب به نفسه ..

ويقول ياقوت بعد ذلك : فأما الترجيح بين هذين الصديقين ، أعنى الصاحب والصابى فى الكتابة ، فقد خاض فيه الخائضون ، وأطنب المحصلون ^(١) ، ومن أشفى ما سمعته فى ذلك ^(٢) أن

(١) حصل الكلام : رده الى مفاده ومعناه ، ويروى باليتيمة : واخب فيه المخبون ، أى افاضوا واختلفوا فى المقارنة بينهما ... والخبيب : السير السريع .
(٢) أى مما يشفى الغلة فى هذا الباب .

الصاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو اسحاق يكتب كما يؤمر ،
وبين الحالين بون بعيد (١) .. !

ثم اننا لم نر اجماعاً على صحة هذا النسب الى ملوك آل
ساسان القدماء ، فقد اختلف المترجمون في بهرام الذي رفع اليه
نسب بويه ، فقد قال القائلون بنسبه الى الفرس هو بهرام جور
ابن يزدجرد بن سابور (٢) ، وقال آخرون بنسبته الى العرب
وقالوا عن بهرام انه بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية
ابن الديلم بن باسل بن ضبة بن أد (٣) ..

ويرى البيروني أن هذا النسب مختلف لأن الأنساب قل أن
تحفظ بالتوالي اذا طال الزمان وامتدت الأيام ، ويقول ان السبيل
الى معرفة صحة الانتماء الى أصل ما من باطله اتفاق الكافة
 واجماع الجيل على ذلك ، كسيد ولد آدم محمد عليه الصلاة
والسلام ..

وقال ابن خلدون ان هذا النسب مصنوع تقرب الى بنى
بويه به من لا يعرف طبائع الأنساب فى الوجود ، واستبعد أن
يكونوا من غير الديلم ثم تكون لهم رئاسة على الديلم ، ولو
كان نسبهم الى الفرس ظاهراً امتنعت بذلك رياستهم على الديلم ،
كما استبعد أن يختفى نسبهم هذا ولم يكن بينهم وبين يزدجرد

(١) معجم الأدباء ٥٢/١٥ .

(٢) ابن الأثير ٩١/٨ .

(٣) الآثار الباقية من القرون الخالية لأبى الريحان محمد بن
أحمد البيروني ٣٨ .

وانقطاع الملك الا ثلثمائة سنة ، فيها سبعة أجيال أو ثمانية (١) .
 وبقي بعد ذلك أن بنى بويه كانوا من الديلم ، والباحثون
 عن تاريخهم القديم يختلفون في أصل هذا الشعب كله ، فيذهب
 بعضهم الى أنهم من ولدضبة الذين كانت مساكنهم بالناحية
 الشمالية من بلاد نجد بجوار بنى تميم ، وأنهم قد هاجروا الى
 هذه الجهات على أثر نزاع بينهم وبين جيرانهم من القبائل
 الأخرى ، وأنهم افرقوا فرقتين لأنهم كانوا ينتسبون الى
 أخوين « ديلم » و « جيل » فبقيت ذرية كل واحد من الأخوين
 منسوبة اليه (٢) ومعنى ذلك أنهم يرجعون الى أصل عربى ،
 وقد تشكك فى هذا القول أكثر المؤرخين .

وذهب آخرون الى أن الديلم من أصل فارسى كما مر ، فى
 حين يرى فريق ثالث أن الديلم كانوا جنسا مستقلا وأن المناطق
 التى كانوا يسكنونها عند بحر قزوين هى مواطنهم الأصلية ، وأن
 لهم صفاتهم وأخلاقهم وطبائعهم المتميزة التى جعلت لهم شخصية
 مستقلة وهم شعب بدوى يمتاز بالخشونة والجلد والعجلة
 وقلة المبالاة كما يقول الاصطخرى (٣) ولما أراد الحجاج أن يفتح
 بلادهم ، ولم يكن رجاله يعرفون طبيعتها ، أمر برسم مصور لها ،
 فلما عرف الديلميون ذلك قالوا : صدقوك عن بلادنا ، هذه
 صورتها ، غير أنهم لم يصوروا لك فرسانها الذين يمنعون هذه

(١) تاريخ ابن خلدون ٤٢٦/٤ .

(٢) المنتزع من كتاب « التاجى » - الورقة !

(٣) الاصطخرى : مسالك الممالك ٢٠٣ .

العقاب والجبال ، وستعلم ذلك لو تكلفته (١) .. ولما علم الخليفة العباسي المعتضد خبر دخول أحد الديلمة قزوين وصفهم بأنهم شر أمة في الدنيا ، وأتهم مكرأ ، وأشدهم بأسا ، وأقواهم قلوبا .. والله لو ملكوا قزوين لنبعوا على من تحت سريري هذا ، واحتوا على دار المملكة (٢) ..

* * *

وقد ألحق بويه أولاده في خدمة قفراد الدولة ، وكانوا يعيشون مع أبيهم على صيد السمك واحتطاب الحطب ، وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي في كتاب « شذور العقود » أن معز الدولة أبا الحسين أحمد بن بويه كان في أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو واخواه البلاد (٣) .. وفي حديث صاحب « تجارب الأمم » عن ركن الدولة الحسن بن بويه أنه كان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحداً تلافيه وردهم عنه ، وكان مضطرا إلى فعل ذلك ، لأنه لم يكن من أهل بيت الملك ، ولا كانت له بين الديلم حشمة من يمثل جميع أمره ، وإنما يرأس عليهم بسماحة كثيرة كانت فيه ، ومسامحة في أشياء لا يَحْتَمِلُها أمير عن مأمور (٤) والذي يستفاد من كل هذا أن بنى بويه قد صنعوا أمجادهم بأنفسهم ، وبنوا

(١) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ٢٨٣ .

(٢) التتوخي : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ١٥٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٧٥/٢ .

(٤) تجارب الأمم ٢٧٩/٦ .

ملكهم بسواعدهم وحرابهم وسيوفهم وسخائهم وواسع حيلتهم .
وأولاد بويه الذين سميت دولتهم (دولة بنى بويه) أو
(الدولة البويهية) ثلاثة هم :

١ — عماد الدولة ، على بن بويه ، الذى كان يحكم فارس
والأهواز ، وكان أكبر بنى بويه ، ولذلك كان يلقب
« أمير الأمراء » .

٢ — ركن الدولة ، الحسن بن بويه ، الذى كان يحكم
الجبيل والرى وجرجان وطبرستان .

٣ — معز الدولة ، أحمد بن بويه ، الذى حكم العراق .
وقد أطلقت هذه الألقاب الثلاثة — عماد الدولة ، وركن
الدولة ، ومعز الدولة — على الأخوة الثلاثة فى يوم واحد ، وكان
الذى أطلقها عليهم هو الخليفة العباسى « المستكفى بالله » .

* * *

كان هؤلاء الثلاثة حينما قام الديلم بتوسعهم وفتوحهم
جنوداً فى جيش (ماكان بن كالى) ولكنهم ارتقوا بسرعة الى
مرتبة الأمراء ، ثم فارقوه بعد أن ضعف أمره وانحازوا الى
قائد ديلمى آخر هو (مرداوىج بن زيار) الذى خرج على
(أسفار بن شيرويه) واستولى على بلاد جرجان وطبرستان
وقزوین وزنجان وقم والكرج ، فزاد نفوذه حوالى عام ٣٢٠ هـ ،
وتجنب الى الرعية ، وعمل له سريراً من ذهب يجلس
عليه ، وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده ، وامتدت
سلطته الى حدود العراق ، وأسس الدولة الزيارية وعزم على أن

يستولى على بغداد ، وينقل الدولة الى الفرس ويبطل
دولة العرب (١)

ولما استقرت قدم (مرداويج) على هذا النحو ، قدم عليه
أبناء بويه الثلاثة الذين كانوا قوادا في جيش (ماكان بن كالى)
وفارقوه لما ضاقت بهم الحال ، وكان معهم جماعة من قواد ماكان .
وقد رحب مرداويج بأبناء بويه فخلع على علىّ والحسن ،
وولى القواد الذين جاءوا معهم النواحي ، وولى على بن بويه
بلاد الكرج ، وكتب لهم بذلك اليهود ، فساروا الى الريّ ،
وبها « وشمكير » أخو مرداويج ، ومعه وزير مرداويج « الحسين
ابن محمد » الملقب بالعميد . وصادف أن كان لابن بويه بغلة
شهباء من أحسن ما يكون ، فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار ،
فعرضت على العميد فأخذها وتقد ثمنها ، فلما حمل الى علىّ أخذ
منه عشرة دنائير ، ورد الباقي ومعه هدية جميلة ، فكان ذلك بدء
الصلة بين العميد وآل بويه ..

ولكن مرداويج أحس بالخطأ فيما فعل ، وندم على ما كان
من اطمئنانه الى هؤلاء ، فكتب الى أخيه « وشمكير » والى
العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير الى أعمالهم ، وان
كان بعضهم قد خرج يرد .

ولكن الكتب كانت تصل الى العميد فيقرؤها قبل وشمكير ،
ثم يعرضها عليه . فلما وقف العميد على هذا الكتاب أتقذ الى

(١) الأدب في ظل بنى بويه ٢٤ :

على بن بويه يأمره بالمسير من ساعته الى عمله ، ويطوى المنازل ،
فسار ابن بويه من ساعته ..

ولما أصبح العميد عرض كتاب مرداويج على وشمكير ، فمنع
سائر القواد من الخروج من الرى ، واستعاد التوقيعات التى
كانت معهم . وأراد أن ينفذ خلف على بن بويه من يرده ، فقال
العميد : « انه لا يرجع طوعا ، وربما قاتل من يقصده ، ويخرج
من طاعتنا » ! فتركه . ووصل على بن بويه الى الكرج ، وأحسن
الى الناس ، ولطف بعمال البلاد ، فكتبوا الى مرداويج يشكرونه ،
ويصفون ضبطه للبلاد وحسن سياسته ، وصرف كثيرا فى استمالة
الرجال بالصلوات والهبات ، فشاع ذكره ، وقصده الناس وأحبوه .
ولما كان مرداويج بالرى أطلق مالا لجماعة من قواده على
الكرج ، ولكن ابن بويه استطاع أن يستميلهم ، فوصلهم وأحسن
اليهم حتى مالوا اليه ، وأجبوا طاعته ، وبلغ ذلك مرداويج
فاستوحش وندم على انفاذ أولئك القواد ، فكتب اليهم والى على
ابن بويه يستدعيهم اليه ، وتلطف بهم فى هذا الاستدعاء
ما استطاع ..

ولكن ابن بويه أخذ يراوغه ، واشتغل بأخذ اليهود على
قواده ، وخوفهم سطوة مرداويج ، فأجابوه جميعا ، فجبى مال
الكرج ، واستأمن اليه « شيرازاد » وهو من أعيان قواد الديلم ،
فقويت نفسه ، وسار بمن معه الى أصبهان فاستولى عليها من يد
المظفر بن ياقوت ..

وقد بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه ، وبلغ مرداويج فأقلقه ،

وخاف على ما يبيده من البلاد ، واغتم لذلك غما شديدا . ولكن
مرداويج أراد أن يحتال فكتب الى ابن بويه يعاتبه ، ويستميله ،
ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمدّه بالعساكر الكثيرة ليفتح بها
البلاد ، ولا يكلفه سوى الخطبة باسمه في مساجد البلاد التي
يستولى عليها . وفي الوقت نفسه جهز مرداويج أخاه وشمكير في
جيش كثيف ليأخذ ابن بويه على غرة ، فعلم بذلك فرحل عن
أصبهان بعد أن جباها شهرين . وتوجه الى أرجان وبها أبو بكر
ابن ياقوت ، فانهزم عنها أبو بكر من غير قتال ، وقصد رامهرمز ،
فاستولى على أرجان سنة ٣٢٠ هـ واستخرج منها أموالا
قوى نفسه بها ..

وقد جاءته وهو برامهرمز كتب من أبي طالب زيد بن علي
النوبندجاني يشير عليه بالمسير الى شيراز ، ويهون عليه أمر ياقوت
وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال
وكثرة مؤنثته ومئونة أصحابه ، وثقل وطلأتهم على الناس مع
فشلهم وجبنهم ، فتردد على أولا ، ثم عزم على المسير ، فسار
نحو النوبندجان في ربيع الآخر سنة ٣٢١ هـ فلقى بها مقدمة
ياقوت فهزمها ، ثم سار منها الى اصطخر ، خوفا أن يقع بين ياقوت
ومرداويج ، لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه ، فقابله ياقوت
بجيشه ، فكان النصر لعلي ، وانهزم ياقوت ومن معه .

وكان أحمد بن بويه ممن ظهر أثره في ذلك اليوم ، وهو صبي
لم تنبت لحيته ، وكان عمره ١٩ سنة . وبعد هذا الانتصار عامل
على الأسرى أحسن معاملة ، وخيرهم بين المقام عنده واللحاق

بياقوت فاختاروا المقام عنده ، فخلع عليهم وأحسن اليهم . ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها ، ونادى في الناس بالأمان ، واستولى على كثير من أموال ياقوت ووداعه فسهلت عليه استرضاء الجنود والتودد اليهم فأجبهوه ، وثبت ملكه ..

وعند ذلك أحسّ على بن بويه بحاجة الى قوة روحية تسنده ، وثبت سلطانه ، فأرسل الى خليفة بغداد (الراضى بالله) والى وزيره (ابن مقلة) يعرفهما أنه على الطاعة ، ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد ، وبذل ألف ألف درهم ، فأجيب الى ذلك ، وأنفذت اليه الخلع واللواء .

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد ، وسار الى أصبهان للتدبير عليه ، وبها أخوه وشمكير ، فرأى أن ينفذ عسكرا الى الأهواز للاستيلاء عليها ، ويسد الطريق على ابن بويه اذا قصده ، فلا يبقى له طريق الى الخليفة ، ويقصده هو من ناحية أصبهان ، ويقصده عسكره من ناحية الأهواز فلا يثبت لهم . وسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيدج في رمضان ، ثم استولت على رامهرمز في شوال سنة ٣٢٢ هـ ، ثم استولت على الأهواز وأجلت عنه ياقوتا .

ولما بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز كاتب نائبه يستميله اليه ، ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ، ففعل ، واستمر الأمر بينهما على أن يخطب ابن بويه باسم مرداويج ، وأهدى له ابن بويه هدية جميلة ، وأنفذ اليه أخاه الأوسط الحسن ابن بويه ، ليكون رهينة بين يديه .

ومن حسن حظ ابن بويه أن جنود مرداويج الأتراك تمردوا عليه ، لأنه كان كثير الاساءة اليهم ، يفضل عليهم الديلمة الذين هم من عنصره ، فاتفقوا على اغتياله فقتلوه سنة ٣٢٣ هـ . وكان رؤساء المتألبين على مرداويج من الأتراك « بجكم » و « توزون » وهما اللذان توليا امرة الأمراء بالعراق ، و « ياروق » و « ابن بغرا » و « محمد بن ينال » الترجمان . ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش ، فأما الأتراك فافترقوا فرقتين : فرقة منهم لحقت بابن بويه ، وفرقة سارت نحو الجبل مع « بجكم » . وأما الديلم فقد ذهبوا الى وشمكير أخى مرداويج وهو بالرى وأطاعوه . وكان من نتيجة قتل مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذى كان رهينة عنده ، وسار الى أخيه بفارس .

وعلى هذا صارت القوى الكبرى التى تتنازع بلاد العجم ثلاثا : قوة على بن بويه بفارس ، وقوة وشمكير بالرى : وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر .

أما ياقوت الذى كان بالأهواز فقد ضعفت قوته حتى لم يعد قادرا على الاحتفاظ بما معه فضلا عن مصادمة غيره ..

وكانت القوة الحية النامية بين هذه القوى جميعا هى قوة ابن بويه الذى سيّر أخاه الأوسط « الحسن بن بويه » الى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان ، وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير ، وبقي هو ووشمكير يتنازعا على هذه البلاد ، وهى : أصبهان ، وهمدان ، وقم ، وقاشان ، وكرج ، والرى ، وكنكور ، وقزوین ، وغيرها ؛ حتى تم للحسن بن بويه

الاستيلاء عليها بعد خطوط وحروب طويلة ، حتى استطاع أن
يجلى عنها نواب وشمكير .

خطر ببال على بن بويه أن يمد سلطانه الى الأهواز والعراق ،
لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد ، وكان هو مشغولا بإدارة
اقليم فارس ، وكان أخوه الحسن مشغولا ببلاد الجبل ؛ أما
أخوهما الأصغر « أحمد » فلم يكن له شغل ، فسيّره على الى
الأهواز ، فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين « بجكم الرائق »
وانهزم بجكم الى واسط .

فتح العراق :

كان من أهم ما يتطلع اليه ابن بويه المسير الى العراق بعد
الاستيلاء على واسط ، فصار أحمد بن بويه يسير الى واسط ثم
يعود عنها ، حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون اليه المسير نحوهم
للاستيلاء على بغداد ، وقد استجاب لهذا الطلب فسار الى بغداد
حتى وصل اليها يوم ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ ، وكان
الخليفة بها هو « المستكفي بالله » الذي قابله واحتفى به ، وبإيعه
أحمد . وحلف كل منهما لصاحبه ، هذا بالخلافة ، وذاك بالسلطنة.

وفي ذلك اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب :

فلقب عليا صاحب فارس « عماد الدولة » وهو أكبرهم .

ولقب الحسن صاحب الري والجبل « ركن الدولة » .

ولقب أحمد صاحب العراق « معز الدولة » وهو أصغرهم ^(١).

(١) تاريخ الأمم الإسلامية (عصر الدولة العباسية) ٣ / ٣٧٨ .

ومنذ ذلك اليوم أخذ نجم بنى بويه فى الاشراق واللمعان ،
وان أخذت الدولة فى التدهور والانحلال ، واختلت أحوال
الرعايا أمام أحداث كثيرة لا مجال لتفصيلها فى هذه العجالة .

ولقد خطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضا عن
بنى العباس ، ويوليها خليفة علويا ، لأن البويهيين كانوا شيعة
زيدية ، وقد وصلت اليهم التعاليم الاسلامية على يد الحسن بن
زيد ، ثم على يد الحسن الأطروش ، وكلاهما زيدى . فكانوا
يعتقدون أن بنى العباس قد غصبوا الخلافة من مستحقها ، وهم
أبناء على . ولقد حاول معز الدولة ذلك لولا أن بعض خواصه
أشار عليه ألا يفعل ، وقالوا له : « انك اليوم مع خليفة تعتقد أنت
وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه
مستحلين دمه ، ومتى أجلسست بعض العلويين خليفة كان معك من
تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوا » !
فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس ،
واتفرد هو بالسلطان ، ولم يبق بيد الخليفة شيء البتة الا ما أقطعه
معز الدولة مما يقوم بحاجته (١) ..

وعلى الرغم من أن بنى بويه قد سلبوا السلطة كلها من يد
خليفة بنى العباس ، وعلى الرغم من رضا الخلفاء بهذا الهوان ،
لم يسلموا من سوء معاملة البويهيين وظلمهم ، ففي سنة ٣٣٤
ذهب معز الدولة الى دار الخلافة ، وذهب اليها سائر الناس على

(١) انظر الكامل لابن الاثير ٣١٥/٦ .

عادتهم ، فلما جلس المستكفي على سريره ووقف الناس على مراتبهم ، دخل الأمير معز الدولة فقبل الأرض على رسمه ، ثم قبل يد المستكفي ، ووقف بين يديه يحدثه ، ثم جلس على كرسي ، فتقدم اثنان من الديلم ، ومدّا أيديهما الى المستكفي ، وعلا صوتهما بالفارسية ، فظن أنهما يريدان تقبيل يده ، فمدها إليهما ، فجذباه بها ، وطرحاه على الأرض ، ووضعاه عمامته في عنقه وجراهما . فنهض معز الدولة ، واضطرب الناس ، وارتفعت الزعقات ، وافتتت دار السلطان ، وضربت الأبواق . وساق الديلميان المستكفي بالله ماشيا الى دار معز الدولة حيث خلع ، وشملت عيناه ، وأقيم مكانه المطيع خليفة^(١) ..

وطوال القرن الذي وصل فيه نفوذ البويهيين الى أقصاه (٩٤٥ — ١٠٥٥ م) واصل البويهيون سياستهم من عزل الخلفاء وتولييتهم وفق هواهم .. وكان لهم في بغداد قصور عدة فخمة كان يجمعها اسم دار المملكة .. ولم تعد بغداد السيدة التي تحرك العالم الاسلامي بل زاحمتها ، وطغت عليها في ذلك شيراز ، وغزنة ، والقاهرة ، وقرطبة .. التي كانت كلها تتقاسم السيادة الدولية في العالم الاسلامي^(٢) .

وكانت مدة ملك معز الدولة في العراق احدى وعشرين سنة

(١) تجارب الأمم ٨٦/٦ .

(٢) فيليب حتى (تاريخ العرب) ٦١٠/٢ .

وأحد عشر شهرا ، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٥٦ هـ ببغداد ودفن في داره ، ثم نقل الى مشهد له بنى له في مقابر قریش (١) ..
 وولى المملكة بعد وفاة معز الدولة ابنه أبو منصور بختيار الملقب عز الدولة ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته « شاه زمان » على صداق مبلغه مائة ألف دينار .. وكانت بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بويه منافسات في الملك أدت الى التنازع وأفضت الى المحاربة ، فالتقى يوم الأربعاء ١٨ شوال سنة ٣٩٧ هـ ، فقتل عز الدولة وكان عمره ستا وثلاثين سنة (٢) .

وقد وصلت قوة البويهيين الى أقصاها في عهد عضد الدولة (٣٦٧-٣٧٢ هـ) = (٩٧٩-٩٨٣ م) . ولم يكن عضد الدولة أعظم البويهيين فحسب بل كان أيضا أعظم حاكم في زمانه . لقد طوى تحت صولجانه كل الدويلات الصغيرة التى ظهرت في عهد الحكام البويهيين في فارس والعراق ، فألف من المجموع امبراطورية كادت تصل في الاتساع الى امبراطورية هارون الرشيد ، وقد تزوج من ابنة الخليفة (الطائع) ، وحمل الخليفة على الزواج من ابنته . وكان يأمل من وراء ذلك أن يكون له ولد يكون له الحق في الخلافة نفسها .

(١) هى مقبرة مشهورة ببغداد ومحلة فيها خلق كثير ، وبها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق وأول من دفن بها جعفر الأكبر بن أبى جعفر المنصور سنة ١٥٠ هـ . والمنصور هو أول من جعلها مقبرة لما ابتنى مدينة بغداد سنة ١٤٩ هـ .
 (٢) وفيات الأعيان ١١/٢ .

وكان عضد الدولة أول حاكم في الاسلام حمل لقب
 (شاهنشاه)^(١) . ولم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة
 جرأة واقداما ، وكان عاقلا فاضلا ، حسن السياسة ، شديد
 الهيبة بعيد الهمة ، ثاقب الرأي محبا للفضائل ، واهبا باذلا في
 مواضع العطاء ، مانعا في مواضع الحزم ، ناظرا في عواقب
 الأمور ، وهو الذي بنى على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم
 سورا الا أنه كان مع ذلك فخورا يميل الى اللعب واللهو ، وكان
 شاعرا أدبيا ، ومن شعره :

ليس شرب الكأس الا في المطر
 وغناء من جوار في السحر

غانيات سالبات للنهي
 ناغمات في تضاعيف الوتر

مبرزات الكأس من مطلعها
 ساقيات الراح من فاق البشر
 عضد الدولة وابن ركنها
 ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير^(٢) . وقد جمل بغداد وأصلح القنوات التي
 كانت قد طمست وأقام في كثير من المدائن المساجد والمستشفيات

(١) شاهنشاه كلمة فارسية معناها « ملك الملوك » وقد
 صيغت على غرار اللقب القديم للمانكية . وانظر تاريخ العرب
 ٦١١/٢ .

(٢) تاريخ الأمم الاسلامية ٣/٣٩٦ .

والمباني العامة ، وخصص جزءا من أموال الدولة لأعمال الخير والاحسان ، ومن المباني الهامة التي شيدها «مشهد الامام على» . ولكن أشهر مبانيه على الإطلاق هو مستشفى بغداد المشهور المسمى « البيمارستان العضدي » وكلف الخزانة مائة ألف دينار . وكان يعالج المرضى في المستشفى أربعة وعشرون طبيبا كانوا أيضا بمثابة هيئة تدريس في كليته الطبية .

وكثيرا ما تغنى الشعراء من أمثال المتنبي بمدح عضد الدولة ، كما أهدى اليه كثير من المؤلفين كتبهم مثل النحوي المشهور أبي على الفارسي الذي ألف كتاب « الايضاح » ورفعته اليه (١) .

وولي الملك بعد عضد الدولة ابنه أبو كاليبجار المرزبان الملقب صمصام الدولة الذي اجتمع القواد بعد وفاة أبيه على بيعته . وكان اخوته وبنو أعمامه متفرقين في الولايات : فأخوه شرف الدولة أبو الفوارس شير زيل بن عضد الدولة « بفارس » ، وعمه « مؤيد الدولة أبو منصور بويه » بجرجان ..

وقد مكث صمصام الدولة قائما بأمر العراق في جو مضطرب من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه ، واستيلاء الأكراد على بلاد الموصل ، فانتهاز الفرصة أخوه شرف الدولة صاحب فارس ، وتجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق ، فسار بجيشه سنة ٣٧٥ هـ فاستولى على الأهواز من يد أخيه « أبي الحسن الملقب بتاج الدولة » ثم سار إلى البصرة فملكها ، واصطاح

(١) تاريخ العرب ٦١١/٢ .

الأخوان شرف الدولة وصمصام الدولة على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة ، فخطب لشرف الدولة بالعراق ، وسيرت اليه الخلع من الطائع لله ، فلما وردت عليه الرسل بذلك ليحلفوه رجع عن الصلح ، وسار الى واسط فملكها ، واتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند ، فقرر رأيه على اللحاق بأخيه والدخول في طاعته ، فسار اليه ، وقبض عليه شرف الدولة ، وسار الى بغداد فدخلها في رمضان سنة ٣٧٦ هـ . و انتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهرا .

وفي عهد صمصام الدولة توفي عمه « مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة » صاحب جرجان ، وتولى أخوه فخر الدولة على بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد ، والوزير الكبير « صاحب ابن عباد » ..

وتقف عند هذا الحد من أخبار بني بويه ، لنصل الى صاحبنا « صاحب بن عباد » فان أحاديثهم تطول ، ولكن الحديث الذي لا مناص منه ، لشدة صلته بموضوعنا ، هو عناية بني بويه بالعلم والأدب ، وحبهم للعلماء والأدباء ، على الرغم من تلك الأحداث الخطيرة والاضطرابات التي من شأنها ألا تدع لأصحابها فرصة للتفكير أو الافتتان إلا فيما يثبت ملكهم ويحفظ حياتهم ، و يقيهم تربص أعدائهم وثورات جنودهم .

أدب بني بويه

كان بنو بويه يجيئون العلم والأدب ، ولا يستوزرون
أو يستكتبون الا العلماء والشعراء والكتاب ، فكان أشهر أدباء
ذلك العصر من وزرائهم أو عمالهم أو قضاتهم أو كتابهم ، كابن
العميد ، والصاحب بن عباد ، وسابور بن أردشير .. فضلا عن
الأدباء من العمال والقضاة وكتاب الدولة ..

على أن ملوك آل بويه أنفسهم اشتهر منهم غير واحد في
الأدب والشعر (١) .

وأشهر بني بويه في ذلك عضد الدولة (ت ٣٧٢ هـ) وكان
كما يقول الثعالبي (٢) على ما مكن له في الأرض ، وجعل اليه
من أزمة البسط والقبض ، وخص به من رفعة الشأن ، وأوتى من
سعة السلطان يتفرغ للأدب ، ويتشاغل بالكتب ، ويؤثر مجالسة
الأدباء على منادمة الأمراء ، ويقول شعرا كثيرا .. ووصف
الصاحب بن عباد بعض شعره في قوله : .. « وأما قصيدة مولانا
فقد جاءت ومعها عزة الملك ، وعليها رواء الصدق ، وفيها سيما
العلم ، وعندها لسان المجد ، ولها صيال الحق » .. وفي قوله :
« لا غرو اذا فاض بحر العلم على لسان الشعر أن ينتج ما لا عين

(١) جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية) ٢ / ٢٢٤ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٢ / ٢١٦ .

وقعت على مثله ، ولا أذن سمعت بشبهه » .. وقوله « لو استحق
شعر أن يعبد لعدوبة مناهله ، وجلالة قائله ، لكانت قصيدته هي .
الا أنى اتخذتها عند امتناع ذلك قبله أوجه اليها صلوات التعظيم ،
وأقف عليها طواف الاجلال والتكريم » .. وفي قوله : شعر
قد حبس خدمته على فكره ، ووقف كيف شاء على أمره ، فهو
يكتب في غرة الدهر ، ويشدخ جهتي الشمس والبدر » . وقال
أبو بكر الخوارزمي : كان ينادم عضد الدولة بعض الأدباء
الظرفاء ، ويحاضر بالأوصاف والتشبيهات ، ولا يحضر شيء من
الطعام والشراب وآلاتهما الا وأنشد فيها لنفسه أو لغيره شعرا
حسنا . فبينما هو ذات يوم معه على المائدة ينشد كعادته بهظة
« أرز يطبخ باللبن والسمن » فنظر عضد الدولة كالآمر اياه بأن
يصفها ، فأرتج عليه ، وغلبه سكوت معه خجل ، فارتجل عضد
الدولة وقال :

بهظة تعجز عن وصفها يا مدعى الأوصاف بالزور
كأنها في الجوام مجلوثة لآلئ في ماء كافور
ومن شعره في وصف الخيري (١) :

طيب رائحة من نفحة الخيري اذا تمزق جلباب الدياجير
كأنما رشّ بالماورد أو عبت فيه دواخن ند عند تبخير
كأن أوراقه في القد أجنحة صفر وحمر ويبيض من دنانير
وألف له أبو علي الفارسي كتاب الايضاح والتكملة في النحو ،
وقصده فحول الشعراء في عصره كالمتنبي والسلامي وغيرهما ،

(١) نبات ذو زهر عبق الرائحة .

ومن شغفه بالشعر أنه تمنى أن يكون هو المصلوب بدل ابن بقية
الوزير ، لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الأنباري التي
مطلعها :

علوٌ في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات
ومن نكاته الأدبية أن « أفتكين التركي » صاحب دمشق
كتب إليه : ان الشام قد صفا وصار في يدي .. وان قويتني
بالأموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم « ! فكتب عضد الدولة
جوابه كلمات متشابهة في الخط لا تقرأ الا بعد الشكل والنقط
والضبط وهي « غرّك عزّك ، فصار قصار ذلك ذلك ، فاحش
فاحش فعلك ، فعلك بهذا تهذا » !

ومن آدب بنى بويه وأشعرهم عز الدولة أبو منصور بختيار
ابن معز الدولة ، ومن شعره :

فيا حبذا روضتا نرجس تحبى الندامى بريحانها
شربنا عليها كأحداقنا عقارا بكأس كأجفانها
ومسنا من السكر ما بيننا نجرر^(١) ريطا^(١) كقضبائها
ومن خمرياته قوله :

اشرب على قطر السماء القاطر
في صحن دجلة واعص زجر الزاجر
مشمولة أبدى المزاج بكأسها
درّا نثيرا بين نظم جواهر

(١) الریط جمع ریطة وهي الملاءة اذا كانت قطعة واحدة
ولم تكن لفقين .

من كفّ أعيد يستبيك اذا مشى
بدلال معشوق ونخوة شاطر

والماء ما بين الغصون مصفق
مثل القيان رقصن حول الزامر

ومن شعره الغزلي :

وفأؤك لازم مكنون سرّي
وجبك غايتي والشوق زادي

وخالك في عذارك في الليالي
سواد في سواد في سواد

ومنهم تاج الدولة بن عضد الدولة ، ويقال انه كان آدب
آل بويه وأشعرهم وأكرمهم ، وكان يلي الأهواز ، فأدرسته
حرفة الآدب ، فأدت الى نكته وجسه من جهة أخيه أبي
الفوارس . وكل شعره رائق عذب جميل ، ومنه قوله :

سلام على طيف ألمّ فسّلا
وأبدى شعاع الشمس لما تكلمنا

بدا فبدا من وجهه البدر طالعا
لدى الروض يستعلى قضيبا منعما

وقد أرسلت أيدي العذارى بخده
عذارا من الكافور والمسك أسحما (١)

(١) العذارى جمع عذراء وهى البكر ، والعذار جانب اللحية
والسحمة السواد والأسحم الأسود .

وأحسب هاروتا أطاف بطرفه
فعلّمه من سحره فتعلّمنا
ألمّ بنا في دامس الليل فانجلى
فلما انشئ عنا وودّع أظلمنا
وأشد له بديع الزمان الهمداني هذين البيتين :
هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه
وأعقب بالحسنى من الحبس والأسر
فمن لى بأيام الشباب التى مضت
ومن لى بما أنققت فى الحبس من عمرى
ومن شعره الفاخر الحماسى :

من العداة بالتى	ألا شفيت علتى
ماض رقيق الشفرة	وصارم مهند
منوطة بليلة	وليلة أحييتها
افى الدجى ومقلتى	كأنما نجم الشريد
نحر فتاة طفلة	جوهرتا عقد على
وفعل بعض اخوتى	أفكر فى بنى أبى
سم فأين همتى	تظن أنى أحمل الضية
وواسط والبصرة	تقنع بالأهواز لى
سليل تاج الملة	لست بتاج الدولة

ان لم تزر بغداد بي عما قليل كبتى^(١)
وعسكر عرمرم يملك كل بلدة
حشو الجبال والفلا مواكب من غلتي
نصرتهم منى ومن رب السماء نصرتي

ومن قوله في النكبة :

حتى متى نكبات الدهر تقصدني
لا أستريح من الأحزان والفكر
إذا أقول مضى ما كنت أحذره
من الزمان رمانى الدهر بالغير
فحسبى الله فى كل الأمور فقد
بدلت بعد صفاء العيش بالكدر

ويكفى هذا القدر من الاستشهاد لهذا الشعر الرائع الجميل ،
يتفجر من شاعرية ثرة مطبوعة . ومن شعراء بنى بويه أبو العباس
خسر وبن فيروز بن ركن الدولة ، أنشد له الثعالبي فى اليتيمة
هذه الأبيات من خمرياته :

أدر الكأس علينا أيها الساقى لنطرب
من شمول مثل كأس فى فم الندمان تغرب^(٢)
فحككت حين تجلت قمرا يلثم كوكب

(١) الكبة بفتح الكاف وضمها وتشديد الباء - الدفعة فى القتال والجري ، والحماة فى الحرب ، والزحام ، وافلات الخيل .
(٢) الشمول الخمر .

ورد خديه جنى^(١) لكن الناطور عقرب

فاذا ما لدغت فالر يق درياق مجرب^(٢)

ولا شك أن ملوكا هذا أدبهم ، وتلك آثار شاعريتهم ،
لجدير بالأدب أن يزدهر في دولتهم ، وأن يعز بنصرتهم ، وأن
يطلب الزلفى به اليهم ، كل صاحب موهبة وفن ، وهكذا كان ..

(١) الناظر والناطور حافظ الكرم .

(٢) الدرياق - بالدال - والترياق - بالتاء - بالكسر فيهما
دواء السموم ، وهو فارسي معرب .

الفصل الثاني

الصاحب بن عباد

الصاحب بن عباد

هو أبو القاسم اسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن أحمد بن ادريس الطالقاني ..

و « الطالقان » التي ينسب اليها — بفتح الطاء واللام — كما ذكر ابن خلكان ، اسم لمدينتين احدهما بخراسان ، والأخرى من أعمال قزوین . وأصل الصاحب من طالقان قزوین ، لا طالقان خراسان (١) ..

وذكر ياقوت أن الصاحب من أهل « الطالقان » وهي ولاية بن قزوین وأبهر ، قال : وهي عدة قرى يقع عليها هذا الاسم ، وبخراسان بلدة تسمى « الطالقان » غير هذه ، خرج منها جماعة من أهل العلم ، هكذا نسبه المحدثون (٢) ..

وكان أبوه عباد يكنى بأبي الحسن ، ويلقب « الأمين » ، قال أبو حيان في « أخلاق الوزيرين » انه كان خيرا ، مقدما في صناعة الكتابة .. وكان الأمين ينصر مذهب الأشعري تدينا ، وطلبنا للزلفى عند ربه ، وكان قبل ذلك معلما بقرية من قرى طالقان الديلم ، ثم كان من أهل العلم والفضل سمع أبا خليفة الفضل بن الخباب وغيره من علماء بغداد وأصفهان والرى ،

(١) وفیات الأعيان ٢/٢٣٠ .

(٢) معجم الأدباء ٦/١٦٩ .

وصنف كتابا في أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجود فيه ،
وروى عنه جماعة في مقدمتهم ابنه الوزير أبو القاسم بن عباد
وابن مردويه الأصفهاني .. وكان عباد كاتباً ووزيراً لركن الدولة
البويهى ، ومات سنة خمس وثلاثين وثلثمائة (١) .

وعلى هذا فقد كان عباد وزيراً قبل أن يكون ابنه صاحب
وزيراً . قال صاحب سلم الوصول في ترجمة صاحب : هو الوزير
الأديب ابن الوزير الطالقاني .. وكان أبوه وزير ركن الدولة بن
بويه (٢) وحدث أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتابه
« مشارب التجارب » وذكر صاحب ، فقال : أبو القاسم اسماعيل
ابن عباد بن عباس ، الوزير بن الوزير ، كما قال الرستمي فيه :
ورث الوزارة كابراً عن كابر موصولة الاسناد بالاسناد (٣)
يروى عن العباس عباد وزاً رته واسماعيل عن عباد
وقال فيه أبو بكر الخوارزمي : صاحب نشأ من الوزارة في

(١) هكذا ذكر صاحب « سلم الوصول » . وتردد ابن خلكان
بين سنتي ٣٣٤ و ٣٣٥ قال في ترجمة صاحب « وتوفي والده أبو
الحسن عباد بن العباس في سنة أربع أو خمس وثلاثين وثلثمائة
رحمه الله تعالى ، وقال ابن الجوزي في « المنتظم » : مات عباد في
السنة التي مات فيها ابنه سنة خمس وثمانين وثلثمائة . وفي كلام
ابن الجوزي شك كثير ! إذ كان عباد على هذه المنزلة فكيف يطوى
التاريخ ذكره طوال الزمن الذي سطع فيه نجم ابنه ، وهو زمان
طويل ؟ وكل ما يذكر هو أن زوجته - أم صاحب - توفيت في
المحرم سنة ٣٨٤ هـ .

(٢) سلم الوصول (مخطوط) الورقة ١٦٦ .

(٣) الاسناد في الحديث رفعه الى قائله .

حجرها ، ودبّ ودرج من وكرها ^(١) ، ورضع أفأويق درّها ^(٢) ،
وورثه عن آبائه ، كما قال أبو سعيد الرستمى .. وأنشد البيهقي ^(٣) .

* * *

وكانت ولادة الصاحب سنة ست وعشرين وثلثمائة في ذي
القعدة ، وتوفي ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس
وثمانين وثلثمائة بالرىّ ، ثم نقل الى أصبهان ، ودفن في قبة
بمحلة تعرف بباب ذرّيه ..

وقد علم الصاحب أبوه ، ولقنه ما شاء من علم وأدب ،
وقرآن وكلام ، ومنظوم ومنثور ، ليعده لما كان يرجو له من
المنزلة بين العلماء والأدباء والوزراء ، وكان أبوه كما تقدم كاتب
ركن الدولة بن بويه الديلمى ووزيره ، فكان يطمع أن يكون
لابنه ما كان له من خدمة الملوك ، فينال بذلك مجد الدنيا وثواب
الآخرة ، فقد كان دينا خيرّا يطلب الزلفى عند ربه ، وكان العميد
يكتب لصاحب خراسان ، ولم يزل أبو الفضل بن العميد في حياة
أبيه وبعد وفاته بالرىّ وكور الجبل وفارس ، يتدرّج الى
المعالى ، ويزداد على الأيام فضلا وبراعة ، حتى بلغ ما بلغ ،

(١) دب الماشى اذا سار على هينته ولم يسرع ، ودرج مشى ،
ودرج الصبى والشيخ اذا مشى مشيا ضعيفا ، والوكر عش الطائر
وموضعه الذى يبيض فيه ويفرخ .

(٢) الفيقة اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين ، وجمعه
أفواق ، وجمع الجمع أفأويق . ومعنى العبارة أنه تربى فى بيئة
الوزارة طفلا ونشأ فيها صغيرا .

(٣) وفيات الأعيان ٢١٩/٢ .

واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ، ورياسة الجبل ،
وخدمة الكبراء . وانتجعه الشعراء ، وورد عليه أبو الطيب المتنبى
عند صدوره من حضرة كافور الاخشيدى ، فمدحه بتلك القصيدة
المشهورة السائرة التى منها :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها
شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كته
متملكا متبدياً متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما
ردّ الآله نفوسهم والأعصرا

* * *

وكان صاحب بن عباد في بدء أمره من صغار الكتاب يخدم
أبا الفضل بن العميد علياً خاصة ، فترقت به الحال الى أن كتب
لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه أخى عضد الدولة بن ركن
الدولة الديلمى . وكان مؤيد الدولة حينئذ أميراً ، وأحسن في
خدمته ، وحصل له عنده بطول الخدمة قدم ، وأنس منه مؤيد
الدولة كفاية وشهامة ، فلقبه بالصاحب كافى الكفاة .

قال ابن خلكان : هو أول من لقب بالصاحب من الوزراء ،
لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد ، ف قيل له « صاحب ابن
العميد » ثم أطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علماً عليه .
وذكر الصابى في كتاب « التاجى » أنه انما قيل له الصاحب لأنه
صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا ، وسماه الصاحب ،

فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به ، ثم سمي به كل من ولى
الوزارة بعده ..

وكانت لأبى الفضل بن العميد فى نفس تلميذه صاحب
منزلة كبيرة ، فكان يجله ويكرمه ، ولعل صاحب لم يمدح
بشعره من الملوك والوزراء والأمراء مثل ما مدح به أستاذه أبا
الفضل ، فمدحه فيه كثيرة استفرغ فيها جهده ، وألقى حميته ،
فمن عيون شعره فيه قوله من قصيدة :

من لقلب يهيم فى كل واد	وقتل للحب من غير واد
أنما أذكر الغوانى والمق	صد سعدى مكثرا للسواد
وإذا ما صدقت فهى مرامى	ومنائى وروضتى ومرادى
وندى ابن العميد أنى عميد	من هواها ألية الأمجاد
لو درى الدهر أنه من بنيه	لازدرى قدر سائر الأولاد
أو رأى الناس كيف يهتز للجو	د لما عددوه فى الأطواد
أيها الآملون خطوا سريعا	برفيع العماد وارى الزناد
فهو ان جاد ضن حاتم طى	وهو ان قال قل قس اباد
وإذا ما ارتأى فأين زياد	من علاه وأين آل زياد
أقبل العيد يستعير حلاه	من علاه العزيزة الأنداد
سيضحى فيه لمن لا يوالى	ه ويبقى بقية الأعياد
ومديحى وان لم يكن طال أيا	تا فقد طال فى مجالى الجياد
ان خير المداح من مدحته	شعراء البلاد فى كل ناد
قال الثعالبي : ما أحسن ما أدمج الافتخار فى أثناء المدح (١) ..	

(١) يتيمة الدهر ١٥٧/٣ .

ومن شعر صاحب في توديع أبي الفضل بن العميد ، وفيه
يظهر حبه واجلاله ، وحرصه على أن يكون معه أينما سار ؛
ويذكر بعض نعماء عنده :

أودّع حضرتك العاليه	ونفسي لا دمتي هاميه
ومن ذا يودع هذا الجناح	فتهتئوه بعده العافيه
جناح رعيت به جنة	قطوف مكارمها دانيه
رأيت به فائضات العلا	وعلّمت ما الهيم العاليه
كأنني يبغداد في شوقها	اليك وأدمعها الجاريه
وأنت المرجى لظفـارها	بآمالها وبآماليه
ولو كنت تأذن لي في المسير	إذا سرت في جملة الحاشيه
سبقت جوادك مد الطريق	وسرت وفي يدي الغاشيه

وقد كان أبو الفضل بن العميد الأستاذ الذي خدم بنفسه
الصاحب ، وهو فن الكتابة الذي أوصله الى ما وصل اليه من
منصب الوزارة ؛ فكان تعليمه التعليم المفيد النافع في الحياة وفي
العمل وفي الفن الكتابي الذي كان أستاذا فيه ، وصاحب منهج
وطريقة متميزة .

* * *

ولابن عباد أستاذ آخر هو أبو الحسين أحمد بن فارس الذي
حمل الى الريّ ليقرأ عليه مجد الدولة أبو طالب بن فخر الدولة
على بن ركن الدولة بن أبي الحسن بويه الديلمي صاحب الريّ
فأقام بها قاطنا .

وكان أبو الحسين أستاذا لأبي الفتح على بن أبي الفضل بن

العميد ، كما كان أستاذا للصاحب بن عباد ، وكان صاحب يكرم ابن فارس ، وكثيرا ما كان يقول : شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف وأمن فيه من التصحيف .. !

وكان ابن فارس اماما في علوم شتى ، وخصوصا اللغة ، فانه أتقنها وألف كتابه « المجمل » في اللغة ، وهو على اختصاره جمع شيئا كثيرا ، وله كتاب حلية القراء ، وله رسائل أنيقة ، ومسائل في اللغة تعانى^(١) بها الفقهاء ، وله أشعار كثيرة حسنة^(٢) .

وقد وفى ابن فارس لتلميذه صاحب بن عباد ، وفاء علميا كبيرا ، واعترف له بما بلغه من درجة عالية في العلم والثقافة والأدب ، فضلا عما بلغه من رفيع المنزلة في عالم السياسة والادارة، وفرحة الأستاذ بتلميذه اذا ابتسمت له الحياة لا تعد لها فرحة أخرى ، لأنه يرى أنه شارك في اقامة مجده ، وربما رأى أنه سبب من أعظم أسباب نجاحه وتفوقه ..

وآية هذا الوفاء ذلك الكتاب الممتاز الذى ألفه ابن فارس في « فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » والذى لقبه بلقب تلميذه ، فسماه « الصاحبى » وأهداه اليه ، وكتب في مقدمته : هذا « الكتاب الصاحبى » في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها . وانما عنوته بهذا الاسم لأنى لما ألفتُه أودعته خزانة « الصاحب » الجليل كافي الكفاة ، عمر الله عراض العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره ، تجملا بذلك وتحسنا ، اذ كان

(١) تعانى بها الفقهاء : اهتموا بها واحتفلوا .

(٢) وفيات الأعيان ٢٥٢/١ .

ما يقبله كافي الكفاة من علم وأدب مرضيا مقبولا ، وما يرذله أو ينفيه منفيا مردولا ، ولأن أحسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ، ومفاد منه (١) ..

ولم ينس ابن فارس أن يذكر صاحب وأن يدعو له قبل أن يلقي القلم ، فكتب في آخر كلماته في الكتاب : « وهذا تمام الكتاب الصاحبى » أتم الله على « الصاحب » الجليل النعم ، وأسبغ له المواهب ، وسنّى له المزيد من فضله ، انه ولى ذلك ، والقادر عليه . وصلى الله تعالى على نبيه محمد وآله أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل (٢) ..

وفي هذا الاهداء الكريم من ابن فارس ، وفي ذلك الشاء الذى قرأناه للصاحب فى قوله « شيخنا أبو الحسين .. » دليل على الحب المشترك ، والتقدير المتبادل بين الأستاذ الكبير والتلميذ النبيل .

ولكن يبدو أن السياسة لعبت دورها فى التفريق بين الرجلين ، وفى قطع أواصر الودّ وصلات التقدير بينهما ..

ذلك أن خلق الوفاء الذى تمكن من ابن فارس لتلاميذه ولمن أسدى إليه صنيعه جعله يبقى على وفائه وولائه لآل العميد كما كان على وفائه وولائه للصاحب ، وقد كان بين أبى الفتح بن العميد والصاحب من التنافس على السيادة ، ومحاولة كل منهما الانفراد بالأمر ، ما قطع بينهما جبال الود ، وانتهى بهما الى

(١) انصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : ص ٢ .

(٢) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها : ص ٢٣٢ .

القطيعة ، فلم يرض صاحب — فيما يظن — عن ابقاء ابن فارس على مودة ابن العميد والاخلاص لهم ، فأنحرف عنه ..

وآية ذلك ما رواه الثعالبي عن أبي الحسين النحوى فى قوله :
« كان صاحب منحرفا عن أبى الحسين بن فارس لاتنسابه الى خدمة ابن العميد ، وتعصبه له ، فأنفذ اليه من همدان كتاب « الحجر » من تأليفه ، فقال صاحب : ردّ « الحجر » من حيث جاءك ! ثم لم تطب نفسه بتركه ، فنظر فيه ، وأمر له بصلة (١) ..

وذكر هذا أيضا القفطى فى انباه الرواة ، فقال عن ابن فارس انه كان شديد التعصب لآل العميد ، وكان صاحب يكرهه لأجل ذلك ، ولما صنف كتاب « الحجر » وسيره اليه فى وزارته قال : ردّوا الحجر من حيث جاء ! وأمر له بجائزة ليست سنينة (٢) .. وذلك أن ابن فارس استمر على صلته بتلميذه أبى الفتح بن العميد بعد وفاة أبيه أبى الفضل بن العميد ، فهل كان فى استدامة الصلة بين الأستاذ وتلميذه ما يغضب صاحب بن عباد ؟ وما أسباب ذلك السخط ؟ وما علاقة صاحب بأبى الفضل ثم بابنه أبى الفتح ؟ ذلك ما تفصله فى الكلمات التالية .

(١) يتيمة الدهر ٢٠٠/٣ .

(٢) انباه الرواة على انباه النحاة ٥٣/١ .

الصاحب وابن العميد

ذكرنا في شيء مما مضى كيف تلتطف على بن بويه الذي لقب فيما بعد « عماد الدولة » مع الحسين بن محمد الملقب « العميد » الذي كان وزيراً لمرداويج بن زيار ، حين تنازل له عن ثمن البغلة الشهباء ، وأرسل إليه هدية جميلة ، وما كان من أثر هذا الصنيع في قلب ابن العميد الذي ردّ الجميل ردّاً كأعظم ما يكون الردّ ، لأن هذا الردّ كان مفتاح مجد بنى بويه ، ولولاه لهلكوا جميعاً على يد مرداويج أو على يد أخيه وشمكير بن زيار ، أو لبقوا في الأقل كما كانوا من الدهماء المغمورين اذا كتبت لهم النجاة من يد مرداويج وأعوانه ، فالعميد هو الذى قرأ كتاب مرداويج قبل أن يقرأه أخوه وشمكير ، وهو الكتاب الذى يأمر فيه أن يمنع بنى بويه وسائر القواد الذين كانوا معهم من المسير الى ولاياتهم الذى تسرّع فى اسنادها اليهم ، ثم ندم على ما كان منه .

والعميد هو الذى أنفذ الى على بن بويه يأمره بالمسير من ساعته الى عمله ، ويطوى المنازل ، قبل أن يقرأ وشمكير كتاب أخيه وينفذ ما فيه .

ثم كان ما كان من أحداث انتهت بذلك السلطان الكبير والملك الواسع ، والمجد التاريخى الذى كتب لبنى بويه .

ومن الطبيعي ألا ينسى أبناء بويه هذا الفضل العظيم وتلك
المأثرة الخالدة التي طوق أعناقهم بها العميد .

والعميد (أبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكلة) أصله
من قم ، وكان يكتب لما كان بن كالى فلما قتل ما كان في المعركة
واستبيح عسكره ، وحمل قواده وخواصه مقرنين في الأصفاة
الى الحضرة ببخارى ، وفي جملتهم أبو عبد الله الذي نفعته شفاعته
فضله ونبله ، فأطلق عنه وأكرم ورتب في الدار السلطانية ، وتقلد
ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر الساماني ملك بخارى ،
ولكن بخارى لم تتسع له ، فذهب الى بلاد الجبل حيث بنو بويه
الذين أكرموا وفادته ، وقدروا ما سلف من صنيعته فيهم ،
فأغدقوا عليه كما أغدقوا على ابنه أبي الفضل الحسين بن محمد
الذي اشتهر بابن العميد ، والذي كان يدعى الجاحظ الأخير ،
والأستاذ ، والرئيس . وقد نشأ أبو الفضل شغوفا بتحصيل
العلوم العقلية واللسانية ، فبرع في علوم الحكمة والنجوم ، ونبغ
في الأدب والكتابة نبوغا جعله واحد عصره . ولم يزل أبو الفضل
في حياة أبيه وبعد وفاته بالرى وكور الجبل وفارس يتدرج الى
المعالي ويزداد على الأيام فضلا وبراعة ، حتى بلغ ما بلغ ، واستقر
في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ، ورياسة الجبل وخدمة
الكبراء ، واتجعه الشعراء ..

وقد عرفنا أن الصاحب بن عباد أحد تلامذته ، وأنه كان أقرب
تلاميذه اليه ، وأكثرهم صحبة له ، حتى كان لقب « الصاحب »
الذي لقب به ابن عباد ثمرة لهذه الصحبة ، وقد عرف ابن عباد

فضل أبي الفضل عليه ، فهو الذي علّمه علمه وأدبه ، ولقنه طريقته في الكتابة ، ودربه على أعمال الكتابة والوزارة .. وقد قرأنا بعض مدائح صاحب فيه التي كانت في حقيقتها اعترافا بفضله ، وتقديرا لحسن ما أسدى إليه . وفي الوقت نفسه كان صاحب في موضع الثقة من قلب أستاذه ، صان ودّه ، وحفظ سرّه ، وكان أبو الفضل يطمئن كل الاطمئنان الى صاحب ، فكان حريصا على أن يوافيه بما يستطيع من ثمرة تجاريه وملاحظاته في كل أمر يعنيه .

ومن أمثلة ذلك ما كتب صاحب الى أبي الفضل في العراق ، ليعرفه من أخباره وأخبار المهلبى أبي محمد الحسن بن محمد وزير معز الدولة ومن أخبار سياسته وأدبه ما يستطيع أن يعرف ، ونرى صاحب يطنب لأبي الفضل في وصف ما رأى ، ويذكر من التفاصيل ما يجعل ابن العميد كأنه حاضر يشهد بعينه كل صغيرة مما يدور في مجالس الوزير المهلبى . ومن ذلك ما كتبه صاحب الى ابن العميد أبي الفضل :

« وردت — أدام الله عز مولانا — العراق ، فكان أول ما اتفق لى استدعاء مولاي الأستاذ أبي محمد أيده الله ، وجمعه بين ندمائه من أهل الفضل وبينى .. وكان الذى كلمنى منهم شيخ ظريف خفيف الروح أديب ، متقعر فى كلامه لطيف يعرف بالقاضى ابن فريعة ، فانه جارانى فى مسائل خفّتها تمنع من ذكرها ... ومنها أن كهلا تطايب بحضرة الأستاذ أبي محمد أيده الله سأله عن حدّ

القفا مريدا تخجيله ، فقال : هو ما اشتمل عليه جربانك ^(١) ، ومازحك فيه اخوانك ، وباسطك فيه غلمانك ، وأدبك عليه سلطانك ، فهذه حدود أربعة .. فانصرفت وقد ورد الخبر بمضى أبى الفضل صاحب البريد — رضى الله عنه ورحمه ، وأنساً أجل مولانا ومدّ فيه — فساعتد القوم على الجلوس للتعزية عنه لما كان يعرف من الحال بينى وبينه :

صلة غدت فى الناس وهى قطعة

عجبا ، وبرّ راح وهو جفاء

فما تمكنت أن جاءنى رسول الأستاذ أبى محمد — أيده الله — يستدعيني ، فعرفته عذرى ، وحسبته يعفينى ، فعاودنى بمن استحضرنى ، فدخلت عليه وقد قعد للشرب فأكرهنى عليه ، ثم قال : أتعرف أحسن صنيعا منى بك ، وقد ثقلتك عن «واحرباه» الى «واطرباه» ^(٢) . وسمعت عنده خادمه المسمى « سلافا » وهو يضرب بالطنبور ويجيد ، ويغنى ويحسن ، وفيه يقول وقد شربنا عنده سلافا :

قد سمعنا وقد شربنا سلافا

وجمعنا بلطفه أوصافا

وشاهدت من حسن مجلسه وخفة روح أدبه وانشاده

(١) جربان القميص — بضمين أو كسرتين مع تشديد الباء — جيبة .

(٢) أى من الحزن والندبة الى المسرة والطرب .

للصنوبرى وطبقته ما طاب به الوقت ، وهشت له النفس ، وشاكل
برقة ذلك الهوى ، وعذوبة ذلك اللمى ..

« قد حضرنا حجرة تعرف بحجرة الريحان ، فيها حوض
مستدير ينصب اليه الماء من دجلة بالدواليب ، وقد مدت الستارة،
وفيهما حسن العكبراوية فغنت :

سلام أيها الملك اليماني

لقد غلب البعاد على التداني

فطرب الأستاذ أبو محمد بغنائها ، واستعاد الصوت مرارا ،
واتبعته أبياتا وهي :

تطوى المنازل عن حبيك دائما

وتظل تبكيه بدمع ساجم

هلا أقمت ولو على جمر الغضا

قلبت أو حد الحسام الصارم

وتبعتها جارية ابن مقله ، ولا غناء أطيّب وأطرب وأحسن من
غنائها ، فغنت بيتين للأستاذ وهما :

يا من له رتب ممكنة القواعد في الفؤاد

أيحل أخذ الماء من متلهب الأحشاء صاد ؟

ففتنت الجميع ، ثم انبسطنا في الشرب ، واشتغل في الشدو ،
وارتفع الأمر عن الضيظ ، والأصوات عن الحفظ ، واتفقت في
أثناء ذلك مذكرات ومناشدات ومجاوبات ، واقتربنا (١) ..

(١) يتيمة الدهر ٢٢٩/٢ وقال الشعالي انه مستخرج من
كتاب « الروزنامة » للصاحب .

وهذا حديث ينبيء عن الودّ الصافي ، والوفاء الجميل ،
والا ما كلف صاحب نفسه هذا العناء في الوصف والاستقصاء
ليقف أستاذه على أحوال غيره من رجال الدولة ووزرائها .

* * *

وكان أبو الفضل بن العميد — في أكبر الظن — هو الذي
رشح صاحب للكتابة لمؤيد الدولة ، وقد كتب بذلك كتابا يحث
الصاحب على قبول ما رشحه له ، ويذكر ما دار حول اختياره ،
وكان الصاحب يباهى بتلك الرقعة التي كتبها اليه أبو الفضل
حين استكتبه لمؤيد الدولة ، وقد جاء فيها : « بسم الله الرحمن
الرحيم ، مولاي ، وان كان سيديا ، بهرتنا نفاسته ، وابن صاحب
تقدمت علينا رياسته ^(١) ، فانه يعدّني سيديا ووالدا ، كما أعده
ولدا واحدا ، ومن حق ذلك أن يعضد رأيي برأيه ، ليزداد
استحكاما ، وتظاهر ^(٢) عقدا وابطراما ..

» وحضرت اليوم مجلس مولانا ركن الدين ، ففاوضني
ما جرى بينه وبين مولاي طويلا ، ووصل به كلاما بسيطا ، وأطلعني
على أن مولاي لا يزيد بعد الاستقصاء والاستيفاء على التقصّي
والاستعفاء ، وألزم عبده أن أكره مولاي اكرها في المسألة ، وأجبره
اجبارا في الطلبة ، علما بأنه ان دافع المجلس المعمور طلبا للتحرّز
لم يردّ وساطتي أخذا بالتطوّل .. وأقول بعد أن أقدم مقدمة :

(١) يشير الى أبيه « عباد بن عباس » الذي كان وزيرا لركن
الدولة ، وكان يلقب « الأمين » .
(٢) أى نتعاون ونتصافر .

مولای غنی عن هذا العمل بتصوره وتصلفه وعزوفه ، وبهمته
عن التکثر بالمال وتحصيله ..

« لكن العمل فقير الى كفايته ، محتاج الى كفالته . وما أقول :
ان مرادی ما يقعد من حساب ، وينشأ من كتاب ، ويستظهر به من
جمع وبذر ، ومن عطاء ومنع . فكل ذلك وان كان مقصودا ، وفي
آلات الوزارة معدودا ، ففي كتاب مولای من يفی به ويستوفيه ،
ويوفی عليه ما يسر مساعيه . ولكن ولیّ النعمة يريد له تهذيب
ولده ، ومن هو ولیّ عهده من بعده ، والمأمول ليومه وغده .
أدام الله أيامه ، وبلغه فيه مرامه ^(١) ولا بد ، وان كان الجوهر
كريما ، والسنخ ^(٢) قديما ، والمجد صميما ، من ينوب مناب من
تعلم ما السياسة ؟ وما الرياسة ؟ وكيف تدبير العامة والخاصة ؟
وبماذا تعقد المهابة ؟ ومن أين تجلب الأصالة والاصابة ؟ وكيف
ترتب المراتب ويعالج الخطب اذا ضاقت المذاهب ؟ وتعصى الشهوة
لتحرس الحشمة ، وتهجر اللذة لتحفظ الامرة . ولا بد من محتشم
يقوم في وجه صاحبه ، فيردّه اذا بدر منه الرأى المنقلب ، ويراجعه
اذا جمع به اللجاج المرتكب ، ويعاوده اذا ملكه الغضب الملتهب .
فلم يكن السبب في أن فسدت ممالك جمة وبلدان عدة الا أن
خفضت أقدار الوزارة فانقبضت أطراف الامارة ، وليس يفسد
على ما أرى بقية الأرض الا اذا استعين بأذنان على هذا الأمر ..
« فلا يبخلن مولای على ولیّ نعمته بفضل معرفته ، فمن هذه

(١) يشير الى مؤيد الدولة بن ركن الدولة .

(٢) السنخ - بكسر السين - الأصل .

الدولة جرى ما فضله ، وفضل الشيخ الأمين^(١) من قبله ، وان كان مسموعا كلامي ، وموثوقا باهتمامي ، فلا يقعن انقباض عني ، واعراض عما سبق مني ..

ومولاي محكم الاجابة الى العمل فيما يقترحه ، وغير مراجع فيما يشترطه . وهذا خطي به ، وهو على وليّ النعمة حجة لا يبقى معها شبهة ، وسأتبع هذه المخاطبة بالمشافهة ، اما بحضورى لديه ، أو بتجشمه الى هذا العليل^(٢) الذي قد ألحّ النقرس^(٣) عليه « ... وكان صاحب بن عباد يحفظ هذه النسخة ويرونها ويفتخر بها^(٤) »

والحقيقة أن هذه الوثيقة تلقى الضوء على كثير من محاسن صاحب وآدابه ، فهي تسجل فضل أبيه عباد في الوزارة والكتابة ، فهو في نظر أبي الفضل صاحب تقدمت رياسته ، وابن العميد يجعل من نفسه للصاحب أبا بعد أبيه ، ويعترف للصاحب بالسيادة ثم يبرز حاجته في عمله الى الصاحب ليعضد رأيه برأيه ، وليزداد أمره استحكما . ثم ان هذه الوثيقة تسجل ما هو أكثر من ذلك ، وهو أن ركن الدولة قد ألحّ على الصاحب أن يقبل هذه الوصاية على ابنه مؤيد الدولة ، وأن الصاحب أصر على الاعتذار والاستغفاء وأنه تقدم الى أبي الفضل ليلح على الصاحب الحاحا ، ويكرهه اكراها ، ويجبره جبرا . وأن الدافع للصاحب الى هذا التأبى

(١) يشير به الى أبي الصاحب ، الذي كان يلقب « الأمين » .

(٢) يعنى أبو الفضل بن العميد بالعليل نفسه .

(٣) هو مرض في مفاصل الكعب وأصابع الرجلين .

(٤) معجم الأدباء ٦/ ٢٢٤ .

والتمتع هو عزوفه عن الدنيا وتحززه من مفاتنها ، وأنه غنى
 بنفسه فهو يصونها الى درجة الصلف والكبرياء ، غير طامع في
 مال ، ولا متطلع الى جاه . وقد وعد أبو الفضل الصباح بن عباد
 بأن له كل ما يقترح ، ولن يرد له شرط مما يشترط ، وذلك
 ما لا يخاطب به الا السادة الموقرون الأبهة ..

* * *

ذلك شيء يبين عن علاقة الصباح الوطيدة بأستاذه أبي
 الفضل « ابن العميد الكبير » .. فماذا كانت تلك العلاقة بين
 الصباح وبين ابنه « أبي الفتح » أو « ابن العميد » الصغير ؟
 أما ابن العميد الصغير « أبو الفتح علي بن محمد بن
 الحسين بن محمد » الملقب بذي الكفایتين ، الذي كان وزيراً لركن
 الدولة أبي علي الحسن بن بويه بعد وفاة أبيه أبي الفضل ، ثم
 وزيراً لابنه مؤيد الدولة بويه بالرى وأصفهان وما اليها من
 أعمال الدولة ... فقد كان أبوه قد أدبه فأحسن تأديبه ، وهذبه
 أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى فأحسن تهذيبه . وكان كما
 يقول الثعالبي : فحياً ذكياً ، لطيفاً سخياً ، رفيع الهمة ، كامل
 المروءة ، ظريف التفصيل والجملة ، قد تألق أبوه في تأديبه وتهذيبه ،
 وجالس به أدباء عصره وفضلاء وقته ، حتى تخرج وخرج حسن
 الترسل متقدماً القدم في النظم آخذاً من محاسن الآداب بأوفر
 الحظ ، ولما قام مقام أبيه قبل الاستكمال ، وعلى مدى بعيد
 من الاكنهال ، وجمع تدبير السيف والقلم لركن الدولة لقب

بذى الكفایتین ، وعلا شأنه ، وارتفع قدره ^(١) ، وقد كان قيامه
مقام أبيه بعد وفاته سنة ٣٦٠ هـ ، وعمره حينئذ اثنتان وعشرون
سنة .

وكان الأستاذ الرئيس أبو الفضل قد كلف جماعة من ثقاته
فى السرّ يشرفون على ابنه أبى الفتح فى منزله ومكتبه ،
ويشاهدون أحواله ، ويعدّون أنفاسه ، وينهون اليه جميع
ما يأتیه وما يذره ، وما يقوله ويفعله ، فرفع اليه بعضهم أن أبا
الفتح اشتغل ليلة بما يشتغل به الأحداث المترفون من عقد مجلس
الأنس واتخاذ الندماء ، وتعاطى ما يجمع شمل اللهو فى خفية
شديدة واحتياط تام ، وأنه كتب فى تلك الحالة رقعة الى من
اسمه « أبو جعفر » فى استهداء الشراب ، فحمل اليه ما يصلحهم
من المشموم والمشروب والنقل . فدرس الأستاذ الرئيس الى ذلك
الانسان من أناه برقعة أبى الفتح الصادرة اليه ، فاذا فيها بخطه :
« بسم الله الرحمن الرحيم . قد اغتصمت الليلة — أطال الله بقاءك
يا سيدى ومولاي — رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة
من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثريا ، فان لم
تحفظ علينا النظام باهداء المدام ، عدنا كبنات نعش ^(٢) . والسلام » ..
ويقال ان أبا الفضل لما اطلع على هذه الرسالة استطير فرحا واعجابا ،
وقال : الآن ظهر لى أثر براعته ، ووثقت بجريه فى طريقى ، ونيابته
منابى . ووقع له بألقى دينار ..

(١) اليتيمة ١٨١/٣

(٢) بنات نعش الكبرى سبعة كواكب .

ويبدو أن غرة الشباب قد أخذت مأخذها من أبى الفتح ، فلم يكن في جد أبيه ووقاره ، وكان أبوه يأسى لبعض ما يجد منه مما لا يراه موافقا لما يرشحه له المنصب السيادة ، وما يجدر أن يأخذ نفسه به من الجد ولزوم السمات ..

حدث أحد أصحاب أبى الفضل بن العميد المختصين به قال : كان أبو الفتح بن أبى الفضل يياكر أباه في كل يوم ، ويدخل اليه قبل كل أحد ، فاتفق أن دخل يوماً وأنا جالس عنده ، فلما رآه مقبلا في الصحن وشاهد عمته ومشيته ، وهو يختال فيها ويسرف في تلويها ، عجب من ذلك ، وقال لى : أما ترى الى هذه العمة وهذه المشية في مخالفتها لعادتنا ومفارقتها طريقتنا ؟ فقلت : قد رأيت ، وان رسم ^(١) الأستاذ أن أخاطبه فيها وأنهاه عنها فعلت . فقال : لا تفعل ، فانه قصير العمر ، وما أحب أن أدخل على قلبه همّا ولا أمنعه هوى !

ووجد أبو الفضل لابنه أبى الفتح رقعة كتبها الى بعض من ينسب اليه ، وفيها مجون فاحش نظمه في بيتين ^(٢) ، فلما وقف ابن العميد أبوه على ذلك غضب ، وقال : أمثل ولدى يكتب مثل هذا الفحش والفجور ؟ ثم قال : أما والله لولا ولولا .. ثم أمسك كأنه يشير الى ما حكم له من سوء العاقبة ، وقصر العمر !

* * *

(١) رسم الأستاذ أى أمر .

(٢) معجم الأدباء ٢٠٢/١٤

كان ذلك في حياة أبيه ، فلما مات ألقى ركن الدولة مقاليد
اليه ، وعول في تدبير السيف والقلم عليه ، فلما جرى لعز الدولة
بختيار بن معز الدولة ببغداد ما جرى مع غلامه سبكتكين ،
وأرسل الى عمه ركن الدولة يستعين به ، تقدم الى أبي الفتح
بالمضى الى شيراز والمسير في صحبة ولده عضد الدولة لانجاد
عز الدولة ، وورد الى بغداد ، وجرى ما جرى من موت سبكتكين
ومحاربة أصحابه حتى انجلوا عنها ، وطمع عضد الدولة في بغداد ،
وأراد القبض على بختيار ، فوسوس الى جنده أن يثوروا عليه ،
ويطالبوه بالأموال ، وأشار على بختيار ألا يلتفت الى شكواهم ،
ويغلظ في معاملتهم ، ثم قبض على بختيار واخوته ، وجمع الناس ،
وأعلمهم استعفاء بختيار وعجزه ووعد الجنود بالاحسان اليهم ،
وسر الخليفة بذلك لأنه كان مجافيا لبختيار ، وقد قابله عضد
الدولة وأظهر تعظيمه لرسوم الخلافة .. ولما بلغ ذلك ركن الدولة
استاء منه جدا وعزم على أن يسير بنفسه الى العراق لخراج ابنه
عضد الدولة ، ولم يقبل في ذلك قول قائل لأنه كان يحب أخاه
معز الدولة والد بختيار حبا شديدا .. ولما عرف عضد الدولة ذلك
لم يسعه الا إعادة بختيار الى ملكه ، والمسير الى فارس ..
وكان ركن الدولة قد كتب الى أبي الفتح بن العميد في أثناء
تلك الأحداث يطلب اليه أن يحول بكل ما استطاع من تمكين
عضد الدولة مما أراد ، وأن يعمل بكل قوته وحيله على مفارقة
عضد الدولة ببغداد ، فتشدد ابن العميد على عضد الدولة في ذلك ،
وخطبه فيه مخاطبات حقدتها عضد الدولة عليه ، فلما رجع عضد

الدولة قال لأبن العميد : « ما حظيت من ورودي بغداد بفائدة
وقد أطلقت بسببها أموالا لا تحصى ؟ ، فقال له أبو الفتح :
ما سلم من الأعطيات سلطان ، ولا خلا من النفقات مكان ،
ولو استقصيت مقدار ما فرقته لكنت مبذرا » .

فقال له عضد الدولة : « أما أنت فقد شرف قدرك ، وعلا
ذكرك . كذاك خليفة الله في أرضه ولقبك ، فأنت ذو الكفائتين
أبو الفتح ، فأعظم بذلك من فخر يبقى بقاء النيرين ، ويدوم دوام
العصرين » ..

وكان عضد الدولة يقول : « خرجت من بغداد وأنا » زريق
الشارب « وخرج ابن العميد مكنى من الخليفة ، ملقباً بذي
الكفائتين !

وفي تاريخ أبي سعد منصور بن الحسين الآبي أن عضد الدولة
كان ينقم^(١) على أبي الفتح ابن العميد أشياء ، وكان من أعظمها
في نفسه حديثه ببغداد لما خرج لنجدة بختيار ، فانه جود القول
والفعل في ردّ عضد الدولة عن بغداد ، وأقام لنفسه بذلك ببغداد
سوقاً تقدم بها عند أهل البلد والخليفة ، حتى لقبه الخليفة « ذا
الكفائتين » وكناه في مكتوبه « بأبي الفتح » ..

ولما انصرف عضد الدولة عن بغداد ، وقد ظهرت له مخايل
الغدر من بختيار من قيام أهل بغداد عليه ، وتصريحهم بالشتيم له ،
ولقبوه زريقا الشارب » . وذلك أن عضد الدولة تقدم باتخاذ

(١) نقم عليه : عابه وكرهه أشد الكراهة لسوء فعله .

مزملة (١) في داره ليشرب منها الجند والعامة ، ولم يكن قد عهد مثل ذلك في دور السلاطين من قبل ، وكان في نفسه أزرق العين ، فلقبوه بذلك . فكان عضد الدولة يقول : خرجت من بغداد وأنا « زريق الشارب » وابن العميد : الوزير ، ذو الكفایتين ، أبو الفتح (٢) ..

* * *

وعلى ذلك فقد عاد عضد الدولة الى فارس ، وهو ناظم على ابن العميد ، فقد عرف أنه عاد من بغداد دون أن يحقق شيئاً من الآمال التي كان يتطلع اليها ، وضاعت منه الفرصة التي كان يتسورها ، في حين أن ابن العميد قد رجع راضياً مرضياً ، فقد اتصل في بغداد بالعلماء والفلاسفة والأدباء ، وقربهم اليه ، وحببهم فيه . وعرف له بختيار في الوقت نفسه فضل ابن العميد في إبقاء سلطانه وتثبيت ملكه ، والحيلولة بين عضد الدولة وما كان يشتهي من القضاء عليه ، وتولى زمام ملكه .

وكان عضد الدولة لما عاد من بغداد الى فارس شرط على ابن العميد ألا يقيم ببغداد بعده الا ثلاثة أيام ، ثم يلحق بوالده بالرى . فلما خرج عضد الدولة طابت لابن العميد ببغداد ، فاتبع هوى صباه ، وأحب الخلاعة والدخول مع بختيار في أفانين من لهوه ولعبه ، ووجد خلوا من أشغاله ، وراحة من تدبير أمر صاحبه « ركن الدولة » مدة ، وتمكن من اللذات . وعرف له بختيار

(١) المزملة جرة أو خابية لتبريد الماء .

(٢) معجم الأدباء ٢٠٥/١٤ .

ما صنع فيه من الجميل ، فهو الذى خلصه وأعاد عليه ملكه ،
 وصرف عضد الدولة عن بغداد فكان بختيار يراه بصورة من
 خلصه من مخالب الأسد بعد أن افترسه ، وأن سعيه بين ركن
 الدولة وعضد الدولة هو الذى رد عليه ملكه ، فبسطه وعرض
 عليه وزارته وتمكينه من ممالكه ، وألا يعارضه فى شىء يدبره
 ويراه ، فلم يجبه أبو الفتح الى ذلك ، وقال : « لى والدته وأهل
 وولد ونعمة قد رتبت منذ خمسين سنة ، وهى كلها فى يد ركن
 الدولة ، ولا أستطيع مفارقتها ، ولا يحسن بى أن يتحدث عنى
 بمخالفتها ، ولا يتم أيضا لك مع ما عاملك به من الجميل . ولكنى
 أعاهدك ان قضى الله عزّ وجل على ركن الدولة ما هو قاض على
 جميع خلقه أن أصير اليك مع قطعة عظيمة من عسكره ، فانهم
 لا يخالفوننى . وركن الدولة مع ذلك هامة اليوم أو غد^(١) ، وليس
 يتأخر أمره » .

واستقر ذلك بينهما سرّا ، لم يطلع عليه الا محمد بن عمر
 العلوى ، فانه توسط بينهما ، وأخذ عهد كل واحد منهما على
 صاحبه ، ولم يظهر ذلك لأحد ..

* * *

تلك قصة ابن العميد فى رحلته الى بغداد أصاب فيها جاها
 عظيما ، وتطلع الى أمل عريض فانه سيكون كما أمل وزير الدولة
 كلها فى حاضرة الخلافة الكبرى ، لا كاتباً أو وزيراً فى ولاية صغيرة
 من ولايات الدولة وأعمالها التى لا تكاد تحصى .

(١) مثل يضرب لمن قرب أجل حياته .

ولا شك أن هذه الأنباء قد وصلت الى عضد الدولة بعد عودته ، وكانت من أهم الأسباب في زيادة اشتعال أحقاد عليه ، وتبرمه به ، وتربصه ليوم القصاص .

* * *

ولم يلبث ركن الدولة أن قضى نجه في سنة ٣٦٦ هـ ، وقد ضبط أبو الفتح ذو الكفائتين الأمر بعد وفاته أحسن ضبط ، وسكن العسكر ، وفرق فيهم الأموال . وكان مطاعا في الديلم ، محببا اليهم ، كثير الافضال عليهم ، وبادر بالخبر الى مؤيد الدولة بن ركن الدولة ، وكان بأصبهان ، فورد الرىّ معه وزيره وصاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ٣٦٦ هـ . وجلس للتغزية ، ثم انتصب في مكان أبيه .

وكانت لمؤيد الدولة هيئة وسياسة ، وفيه سخاء وسماحة ، وخلع على أبى الفتح بن العميد ذى الكفائتين خلع الوزارة ، وفوض اليه الأمر يوم الأربعاء لخمس خلون من شهر ربيع الأول . وكان صاحب بن عباد يرغب أن يقيم بالرىّ ، ويخلف أبا الفتح . فلم يأمن أبو الفتح جانبه ، وعمل على ضرب الحجاب الشديد بين مؤيد الدولة وصاحبه ابن عباد ، بعد أن خوفوه منه لمحله من صناعة الكتابة ، ولمكانه من قلب مؤيد الدولة ، فأراد ابتعاده عن الحضرة ، ليتمكن من الايقاع به ان أراد ذلك .

وأشار ابن العميد على مؤيد الدولة بأن يرده الى أصفهان ، ليدبر أعمالها ، وليقيم بها ، فخلع عليه رسم الوزارة القباء والسيف والمنطقة وما يجرى مع ذلك . وخرج صاحب الى أصفهان يوم

الأحد لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ ، أى بعد ثلاثة أيام من تولية أبى الفتح الوزارة .

هذا موقف أبى الفتح بن العميد من الصاحب بن عباد ، وهو موقف الحذر المتوجس من الصلة المعقودة بين الصاحب ومؤيد الدولة ، ومن حقه أن يكون حذرا ، وأن يكون متوجسا ولكن لم يكن له الاسراع الى التهمة على غير أساس من عمل يراه ، أو شرّ بدا له منه ، فكان ابن العميد ظلما للصاحب ، وهو لم ير منه ما يريه ، بل ان الصاحب بن عباد كان فى طليعة المهنيين لأبى الفتح بإسناد منصب الوزارة اليه فى كتاب يفيض بالاخلاص والمودة يقول فيه : « أنا أهنيء — أطال الله بقاء مولاي — الوزارة بالقائها الى فضله مقادتها ، وبلوغها فى ظله ارادتها ، وانحيازها الى جنبته واضحة المجد والفخر ، وتوشحها من كفايته بغرة سائلة على وجه الدهر ، وأشكر له — أدام الله نعمته — حنوه عليها ، وعطفه عنان الفكر اليها ، حتى قرت لديه قرارها ، وأثقت بيديه نارها ، بعد أن هفا قلبها اشفاقا من استشراف أناس النقص لها ، وخرج صدرها من تحدث أحلاس^(١) الجهل بها » .

أرأيت كيف وصف الصاحب فى اخلاص كل متطلع الى هذا المنصب ، وكل مزاحم لابن العميد فيه بأنه من « أناس النقص » ومن « أحلاس الجهل » ؟ ولو كان الصاحب من أولئك المتطلعين

(١) الأحلاس : جمع حلس — بكسر فسكون — يقال : هو حلس بيته اذا لم يبرح مكانه ، والمعنى ملازمتهم للجهل .

أو المفسدين ، لكان هو أول من ينطبق عليه هذا الوصف . ثم يستطرد صاحب في شرح استحقاقه الوزارة ، وأصالتها فيه ، وعراقتها في بيته فيقول : « ولا غرو فهي وليدة داره ، قد آلت لا تخطت خطته ، وعاهدت لا برحت عرصته . فالحمد لله الذي أقرّ عين الفضل ووطأ بها دار المجد ، وترك الحساد يتعشرون في ذيول الخيبة ، ويتسقطون في فصول الحسرة ، حمدا يديم أيام الأمير السيد ويطيل بقاءه ، ويحرس عزه وينصر لواءه ، فلقد شرح صدور المحاسن ، وشد ظهور المحامد ، بتفويض الصدر الى من وليه بحقّين ، قديم وحديث ، وأوليه بفضلين ، مكتسب وموروث . لأن مولاي وان كان بكفايته مستغنيا عن التعويل على أوليته ، فليس الاعتزاء الى العيد — قدّس الله روحه — يسير فيحقر أمره ، ولا الانتماء الى الأستاذ الرئيس — برّد الله ضريحه — بقليل فيترك ذكره ! هيهات ، ان الرياسة خيمت ثمّ متشبثة بأعطافهم ، متنقلة في أكناهم ، حتى استكمل مولاي جلالها ، ووقّاه حظها وجمالها :

فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها

ثم يدعو له هذا الدعاء اللطيف : « وفقه الله لطاعته التي هي أسعد متجر ، وأعظم مفخر ، ثم لطاعة وليّ نعمته ، فهي حتم لا يرفع مكتوبه ، وفرض لا ينسخ وجوبه ، ولقّاه في نفسه الكريمة نجرا^(١) وطبعا ، الشريفة أصلا وفرعا ، أفضل سعادة قسمت لوالي عمل ، وأحضر بركة أسهمت لمسامي أمل ، بمنّه » .

(١) النجر الأصل .

ويختم صاحب كتابه بالافصح عن مشاعره ، والشرف
 بخدمته في قوله : « أنا مستغن — أطال الله بقاء مولاي الأمير —
 عن أن أصف ما خصني من بهجة هذه المنحة ، وخلص الى من
 جدة هذه النعمة ، فاني والوزارة في خدمة الأستاذ الرئيس أخوان ،
 وردناها جميعا ، وورثناها مولاي معا . غير أنني قد جلوت من
 الشكر لله ما رجوت أن يحيني مواقف الجحود ، ويؤذن مولاي
 بعوارف المزيد ، وصدقت نذورا أسلفتها منذ مدة ، وأنجزت
 شروطا قدمتها منذ برهة . وآخر دعواي أن الحمد لله رب
 العالمين (١) » .

* * *

ذكر أبو حيان أنه لما ورد مؤيد الدولة الري من أصبهان ،
 وصادف الأمر متسقا ، ولقي كل فتق مرتقا ، بما تقدم من الحزم
 فيه ، ونفذ من الرأي الصائب عنده ، أنكر الزيادة الموجبة للجند
 فكرهما ودمدم بذكرها . فقال له أبو الفتح بن العميد : بها نظمت
 لك الملك ، وحفظت لك الدولة ، وصنت الحريم ، فان خالفت
 هذه الزيادة هواك فأسقطها ، فاليد الطولى لك !

وكان ابن عباد قد ورد وحطبه رطب ، وتنوره بارد ، وأمره
 غير نافذ . هذا في الظاهر ، وأما في الباطن فكان يخلو بصاحبه
 مؤيد الدولة ، ويوثبه على أبي الفتح بن العميد بما يجد السبيل
 اليه من الطعن والقدح . فأحس بذلك ابن العميد ، فألب الأولياء
 على ابن عباد ، حتى كثر الشعب وعظم الخطب ، وهم بقتله .

(١) رسائل صاحب بن عباد ١٣٣ .

فقال ابن العميد لمؤيد الدولة : « ليس من حق كفايتي في الدولة وقد انتكث حبلها ، وقويت أطماع المفسدين فيها أن أسام الخسف والأحرار لا يصبرون على نظرات الذل وغمرات الهوان » !

فقال له مؤيد الدولة في الجواب : « كلامك مسـمـوع ، ورضاك متبوع ، فما الذي يبرد فورتك عنه — عن صاحب » — ؟

قال أبو الفتح « ينصرف الى أصفهان موفورا ! .. فوالله لو طالبتة منصفا برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه ! ولئن أحس الأولياء الذين اصطنعتهم بمالي وأفضالي بكلامه في أمرى ، وسعيه في فساد حالى ، ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف ، ومن المزن اذا نطف » !

فقال له : لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزمam بيـدك .. ! وتلطف الصاحب في خلال ذلك لابن العميد ، وقال له « أفأ أنظلم منك اليك ، وأتحمل بك عليك ، وهذا الاستيحاش سهل الزوال اذا تألفت الشاردة من حلمك ، وعظفت على الشائع من كرمك » ..

ثم تقدم الصاحب راضيا الى أبي الفتح أن يكون كاتب انشاءه ، وقال له « ولنى ديوان الانشاء واستخدمنى فيه ، ورتبنى بين يديك ، وأحضرنى بين أمرك ونهيك ، وسمنى برضاك ، فانى صنيعه والدك ، واتخذنى بهذا صنيعه لك . وليس يجمل أن تكر على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه . ومتى أجبتنى الى هذا

وَأَمْتَنِي فَأَنى أَكُون خادِمك بحضرتك ، وكاتباً يطلب الزلفة عندك
فى صغير أمرك وكبيره . وفى هذا اطفاء النَّائرة التى قد ثارت
بسوء ظنك ، وتصديقك أعدائى علىّ » .

ولم يكن فى هذا الرجاء ، ولا ذلك الاسترضاء ما يستل سخيمة
أبى الفتح ، والصاحب يتقدم إليه طالباً تجربته ، ومذكراً بسابقة
أبيه وفضله عليه ، وداعياً الى استدامة هذا الفضل بازالة ما ثار
فى نفسه من سوء الظن ، وتحريض الأتباع أتباع أبى الفتح
وخصوم الصاحب على الكيد للصاحب ، ومحاولة الفتك به
والقضاء عليه .

وهذه الرواية كما ترى تقوم على أساس من سوء الظن
بالصاحب ، دون أن يبدى صفحة وجهه بالثورة ، ودون أن يقع
منه ما يريب . فقد كان الصاحب قريباً كما قدمنا من مؤيد الدولة
فى أصفهان ، بل كان ملازماً له كظله ، وناصحاً له فى أمره ، وشأن
التقريب أن يظل قريباً الا أن يبدر منه ما يستوجب اقصاءه . وعلى
كل حال لم يكن للصاحب بد من استدامة الصحبة ، وقد أقبلت
الدنيا على مخدمه وأصبح الملك المطاع ، ولم يكن له أن يفر
منه أو أن يتنكر لصحبته .

وليس فى هذه الرواية كما ترى خبر صريح يؤكد وشاية
بأبى الفتح أو اساءة إليه . وكان على ابن العميد أن يجرب ، وأن
ينتظر ثمرة التجربة ، ولا ضير عليه فى التجربة والانتظار ، فان
الأمر له ، وضمَّ الصاحب الى حضرته إبعاد له عن مواطن الريب
والشكوك ، وليس آمن لابن العميد من أن يكون الصاحب عدوه

فيمن يرى بين يديه في منزلة المأمور المنهى ، وابن العميد الأمر المطاع فيما يأمر وينهى ، ومؤيد الدولة يقولها له كلمة صريحة : « لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزام بيدك » ! ويقول له : « كلامك مسموع ، ورضاك متبوع » !

بل ان الرواية نفسها تذكر في صراحة أن ابن العميد هو الذى ألب الأولياء والأتباع على ابن عباد ، حتى كثر الشغب ، وعظم الخطب ، وهم بقتله !

ولم يستطع لين كلام صاحب وتوسله أن يلين قلب ابن العميد ، ولا أن يطفىء نار حقه عليه ، بل كان جوابه على التوسل والاستعطاف « والله لا تجاورنى فى بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك اذن على » ، ولا عين عندي ، وليس لك منى رضا الا بالعودة الى مكانك من أصفهان ، والسلو عما تحدث به نفسك (١) !

وأصر ابن العميد على رأيه فأبعد صاحب الى أصفهان ، وحرمة الكتابة لمؤيد الدولة . ولكن هل تحققت أمانى ابن العميد الذى أساء بالصاحب الظن فخلا له الجو ، أو أمن الكيد الذى كان يعتقد أن صاحب يحوكه له ، ويفسد به ما بينه وبين مؤيد الدولة ؟

ان أبا اسحاق ابراهيم بن عيسى النصيبى يذكر ما آل اليه أمر ابن العميد فى قوله « كان أبو الفتح على بن أبى الفضل بن العميد قد دبر على صاحب بن عباد حتى أزاله عن كتابة الأمير

(١) معجم الأدباء ٢١٢/١٤ .

مؤيد الدولة ، وأبعده عن حضرته بالرى الى أسفهان ، وانفرد
هو بتدبير الأمور لمؤيد الدولة ، كما كان يدبرها لأبيه ركن الدولة.
واستدعى ابن العميد يوما ندماءه ، وعبا لهم مجلسا عظيما ،
وأظهر من الزينة وآلات الفضة والذهب والصيني وما شاكله مما
يفوت الحصر ، وشرب واستفزه الطرب ، وكان قد شرب يومه
وليلته ، فعمل شعرا غنى به ، وهو :

دعوت المنى ودعوت العلا فلما أجابا دعوت القدح
وقلت لأيام شرخ الشباب ألا ان هذا أوان الفرح
اذا بلغ المرء آماله فليس له بعدها مقترح
فلما غنى بالشعر استطابه ، وشرب عليه الى أن سكر ، وقال
لغلمانه : غطوا المجلس ولا تسقطوا منه شيئا ، لأصطحب في غد
عليه ؛ وقال لندمائه : باكرونى . ثم قام الى بيت منامه ، وانصرف
عنه الندماء .

فلما كان السحر دعاه مؤيد الدولة ، فلم يشك ابن العميد أنه
لهم ، فقبض عليه ، وأتقد الى داره من استولى على جميع ما فيها ،
وأعاد ابن عباد الى وزارته . وتطاولت بابن العميد النكبة حتى
مات فيها (١) .

* * *

والحقيقة أن نكبة ابن العميد كانت لها أسباب معروفة ، ولم
يكن الصاحب واحدا من هذه الأسباب ، بل ان بنى بويه أنفسهم
هم الذين دبروا أمر نكبته ، فقد كان عضد الدولة يحقق عليه

(١) . معجم الأدباء ٢٥١/٦ .

حقدا شديدا لما مر من الأسباب في أيام أييه ركن الدولة ، وفي أيام أخيه مؤيد الدولة ، منها ممالأته لبختيار ، ومنها استمالته القواد بالاغداق عليهم فكانوا يغفلون في موالاته ومحبته ، ومنها ترفعه عن التواضع في الكتابة التي تصدر عنه الى عضد الدولة واخوته. وقد غابوا عليه هنواته وآفاته ، ونسبوا اليه أنه هو الذي حرض من بخراسان ، وكاتب صاحب جرجان ، وألقى الى أخيههم فخر الدولة بأخبارهم ، وكانوا يعتقدون أنه عين عليهم لبختيار ينتهز الفرصة للقضاء عليهم واللاحق به ل يتمتع ببغداد قاعدة الخلافة ومهبط العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة .

فأين الصاحب من كل هذا ؟

لقد كان الصاحب رفيقا لمؤيد الدولة وصاحباً له ، ولم يبق في الرى غير أيام معدودات ، وحاول ما حاول من التقرب الى أبى الفتح والزلفى عنده ، ولما أصر أبو الفتح على مغادرته الرى وعودته الى أصفهان بعيداً عنه وعن صاحبه مؤيد الدولة لم يسع الصاحب الا السمع والطاعة . فخرج ابن عبّاد من الرى على صورة قبيحة بالليل ، هى صورة الطريد ، فأيهما كان الظالم؟ وأيها كان المظلوم ؟

وبلغ الصاحب أصفهان ونفسه تغلى ، وصدره ينفور ، وهو غير آمن على نفسه ، وقد رأى من أبى الفتح عين الغدر ، فغلبه الخوف ، وتملكت منه الوساس بعد أن علم أن ابن العميد سيرسل اليه من يحاسبه ويؤذيه ويهينه ، ولما أحسّ بالأمر وعرف ما يبيت له عمل على ركوب المفازة الى نيسابور لما ضاق به الحال ،

وهو لا يدري ما يفعل ولا ما يدع ، حتى جاءت الأخبار بأن خراسان ترمع الثورة ، وتنوى الزحف على مؤيد الدولة ومعه ابن العميد .

ويتبادر هنا سؤال : كيف رضى مؤيد الدولة لصاحبه ابن عباد هذا المصير ؟ وهل كان يرى أبا الفتح أجدر بمقام الوزارة وصناعة الكتابة من ابن عباد ، أو أقدر منه على تدبير الأمور في تلك الأيام القلقة المضطربة ؟

ان الذى يوثق به أن مؤيد الدولة ألقذ ما أمر به ابن العميد على كراهة منه ، وأنه لم يكن من الهين عليه أن ينأى عنه صفيه الذى قدره وعاشره واختبره ، فلم يجد فيه الا ما زاده تعلقا به وحرصا عليه .

ولكن الأمر هنا كان أخطر من موجبات الصداقة ومستلزمات الوفاء .. ان الأمر هنا كان أمر دولة وتدبير ملك . وكان أبو الفتح ابن العميد امتداداً لسياسة هذه الدولة فقد جرب ودرب ، وهو ابن أبى الفضل وزير ركن الدولة أبى مؤيد الدولة ومدير أمره ، فكان أبعاد مثله فى تلك الظروف يمثل ثورة على نظام الدولة ، ويدل على تنكر لفضل العميد على أبيه وعميه ، وفضل أبى الفضل فى خدمة أبيه ، وذلك بالاضافة لما يتعرض له صفو الأمن اذا ما همّ بخلع أبى الفتح ، فقد كان ميل القواد والعساكر اليه ظاهراً للعيان ، بما كان يفيض به عليهم من العطايا والأموال ..

فلم يكن من اليسير أن يتسرع مؤيد الدولة فى تنحية ابن العميد ، وتسليم زمام الدولة لأبى القاسم بن عباد ، فى وقت

تحتاج فيه الدولة الى ضبط وتمكين ، لا الى اضافة سبب جديد للاضطراب ، وانتكات جبل الأمن ، بخلع ابن العميد وتولية صاحب مكانه . وحين وزر ابن العميد لمؤيد الدولة وخشى على نفسه من قرب صاحب الى قلب مؤيد الدولة ، كان أول ما عمله اثاره الجند على صاحب ، وبعثهم على الشغب ، حتى هموا بقتله ، بقتل صاحب بن عباد ، ليرى القوم أن الجند في يديه أو أن القوة في يديه ينفذ بها ما يريد ، ويشيرها على من يحاول أن يبعده أو يلحق به أذى ، وقد أراد بذلك أن يعرض قوته ويجرب عضلاته ليرهب الطامعين .

وأيا ما كان الأمر فقد أنفذ صاحب ما أمر به أبو الفتح ، وسار الى حيث أراد له من البعد في مكان سحيق ..



ومما لا شك فيه أن مؤيد الدولة وان تظاهر بالرضا ، وان قال لابن العميد كلمته المستجيبة « كلامك مسموع ، ورضاك متبوع » قد فارق صاحب على كره منه ، وأنه كان يخفى في قلبه شراً يبيت لابن العميد اذا استقر الأمر وهدأت الأحوال وانتظمت شئون الدولة ، ولقد أسر مؤيد الدولة الى صاحب قبل رحيله بنواياه ، وكشف عن مكنون سرّه للصاحب بن عباد ، واتفق معه على علامات واشارات لا يطمئن الا اليها ، ولا يصدق سواها . ومن ذلك ما نقله الوزير أبو سعد : سمعت صاحب كافي الكفاة رحمه الله يذكر أمره ، فقال في أثناء كلامه : ان مؤيد الدولة قال لي عند خروجي الى أصبهان : ان ورد عليك كتاب بخطي ، أو جاءك

أجل حجابي وثقاتي للاستدعاء فلا تبرح من أصفهان ، ولا تفارقها الى أن يجيئك فلان الركابي ، فانه ان اتجهت لى حيلة على هذا الرجل — ابن العميد — وأمكننى الله من القبض عليه بادرت به اليك ، وهو العلامة بينى وبينك » !!

وهذا حديث معقول من غير شك ، لأنه يفسّر لنا ما خفى علينا من موافقته على تنحية صاحب تنحية مؤقتة يعود بعدها الى ما يطمح اليه من آمال المنصب والجاه ، والدنو ممن يحبه ويصطفيه ..

ويتشكك الوزير أبو سعد فى هذه القصة فيقول : استعظمت لحدائثة سنى وغرة الصبا وقلة التجربة ما حكاه صاحب من قول مؤيد الدولة « ان اتجهت لى حيلة على هذا الرجل » وتعجبت منه ، وأردت الغض من أبى الفتح ، والتقرب بذلك الى صاحب ، فقلت : وكان لأبى الفتح من القدر أن يصعب حبسه ، أو يحتاج صاحبه الى الاحتيال معه ؟ فاتهرنى صاحب وقال : « يا فلان ، أنت صبى تحسب أن القبض على الوزراء سهل » ؟ . ففطنت أنه يريد الرفع من شأن الوزارة وتفخيم أمرها ! ..

فلما طمعت خراسان فى الدولة بعد موت ركن الدولة استشار مؤيد الدولة وزيره أبا الفتح فى تدبير الجند والأموال للقائهم ، فكان جواب أبى الفتح : « ليس رأى الى ولا اليك ، ولا الهى على ولا عليك ، ها هنا من يقول لك : أنت خليفتى ، ويقول لى أنت كاتب خليفتى ، وهو الذى يدبر هذا الأمر بالمال والرجال ، وهو الملك عضد الدولة أخوك » .. فأمره مؤيد الدولة أن

يكتب لأخيه عضد الدولة بهذا الرأي ، ولم يرض عضد الدولة على ما كتب أبو الفتح ، وكان في رده عليه « ان هذا الأمر عجاب ، رجل مات وخلف مالا وله ابن لم يحمل اليه من ارثه شيء .. ثم يخاطب بأن يغرم شيئا آخر من عنده قد كسبه بجهد ، وجمعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم نسمع بمثله ، ولئن استفتى الفقهاء في هذا لم يكن عندهم منه الا التعجب والاستطراف ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين : أحدهما أنه حرم ماله بحق الارث ، والآخر أنه يطالب باخراج ما ليس عليه .. !

فلما سمع مؤيد الدولة هذا قال لأبى الفتح : ما ترى ؟ قال : قد قلت ، وليس لى قول سواه ، وهذا الرجل — يعنى عضد الدولة — هو الملك والمدبر ، والمال كله ماله ، والبلاد بلاده والجند جنده ، والكل له والاسم والجلالة عنده ..

وطال بينهما الكلام ، وكانت الحاجة الى المال ماسة لتجهيز الجيش .. ورأى مؤيد الدولة أن ينتهز الفرصة للقضاء على أبى الفتح ، وعمل على افساد الأمر بين ابن العميد وبين أقوى الناس في منطقته مالا ورجالا ، ليصيد عصفورين بحجر واحد ، القضاء على أبى الفتح ، وفل حد أنصاره الأقوياء .. وكان ذلك الرجل هو على بن كامة الذى كان كما يقول فيه مؤيد الدولة : صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون ، وييده بلاد ، وقد جمع هذا كله في دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا .. وطلب مؤيد الدولة أن يطلب أبو الفتح هذه الأموال قرضا من ابن كامة ، فاعتذر أبو الفتح عن ذلك لأن بينه وبين ابن كامة عهدا ، وأن

القرض الذى يستطيع أن يقدمه لا ينهض بالمطلوب وهو خمسمائة ألف دينار ، فطلب اليه أن يكتب بهذا رأى الى عضد الدولة ليرى رأيه . فقال ابن العميد : أنا لا أكتب بهذا فانه غدر ! قال له مؤيد الدولة : يا هذا ، فأنت كاتبى وصاحب سرى والزماء فى جميع أمرى ، ولا سبيل الى اخراج هذا الحديث الى أحد من خلق الله ..

فقال أبو الفتح : أيها الأمير ، لا تسمى الخيانة ، فانى قد أعطيته عهدا ، ومع اليوم غدا ، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة ! فقال مؤيد الدولة : انى لست أسومك أن تقبض عليه أو أن تسيء اليه ، أشر بهذا المعنى الى الملك عضد الدولة ، فان رأى الصواب فيه تولاه دونك ، وان ضرب عنه أعاضنا رأيا غير ما رأينا .. وانما الذى يجب عليك فى هذا الوقت بين يدي أن تكتب حرفين : « انه لا وجه لهذا المال الا من جهة فلان ، ولست أتولى مخاطبته عليه ، ولا مطالبته به . وفاء له بالعهد ، وثباتا على اليمين ، وجريا على الواجب » ولا أقل من أن تجيب الى هذا القدر ، وليس فيه شيء مما يدل على النكث والخلاف والتبديل .. واستجاب أبو الفتح لما رأى مؤيد الدولة فكتب ما أراد على أن ينفذه مؤيد الدولة الى أخيه عضد الدولة بفارس ، فلما كتب ما كتب ، وجن عليه الليل ، أحضر ابن كامه ، وقال له : أما عندك حديث هذا المخنث فيما أشار به على الملك فى شأنك ، وأورد عليه فى حقك وأمرك ، واطماعه فى مالك ونفسك ، وتكثيره عنده ما تحت يدك وناحيتك ؟! فتردد ابن كامه طويلا فى تصديق هذا

الحديث الى أن استوثق من خط كتابة ابن العميد وقال : ما ظننت بعد الأيمان المغلظة التي بيننا أنه يستحيز مثل هذا .

فقال الأمير مؤيد الدولة : أيها الرجل ، انما أطلعك الملك على سرّ هذا الغلام فيك لتعرف فساد ضميره لك ، وما هو عليه من هنات أخر ، وآفات هي أكبر ، فانه هو الذي حرّك من بخراسان ، وكاتب صاحب جرجان ، وألقى الى أخينا بهمدان — يفي فخر الدولة — أخبارنا ، وهو عين لبختيارها هنا ، وقد اعتقد أنه يعمل في تحصيل هذه البلاد ، ويكون وزيراً بالعراق ، فقد ذاق من بغداد ما لا يخرج من نفسه الا بنزع ضرره ..

فقال على بن كامة : فما الرأي الآن ؟ قال : لا أرى أمثل من طاعة الملك في القبض عليه ، وقد كنا على ذلك قادرين ، ولكن كرهنا أن يظن بنا أننا هجمنا على ناصحنا ، ومربّب نعمتنا ، وناشئ دولتنا ، فمهدنا عندك العذر ، وأوضحنا لك الأمر !

قال ابن كامة : فأنا أكفيكموه ، ثم قبض عليه ، بعد أن جذبه بيده من مكانه ، وكان قد كمن له في الممر جماعة من خواص الديلم وثقات مؤيد الدولة ، فعاونوه على اخراجه من البيت وادخله الى حجرة هناك وتقييده ، وذلك في يوم الأحد سابع شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٦ هـ ، ثم سمل عينه الواحدة ، وقطع أنفه ، ثم حمل ابن العميد الى قلعة أستوناوند وقتل فيها بعد أيام وورد رأسه الى مؤيد الدولة ، واقتلع بيت العميد على يده كما ظنه أبوه أبو الفضل ..

لم يكن للصاحب بن عباد دخل في شيء من هذه الأحداث

كما رأينا ، فهو مظلوم من هذه الجهة ، وإن كان مؤيد الدولة
يجب الصاحب من أعماق نفسه .

ولكن مؤيد الدولة لم يكن كل شيء ، ولم يكن صاحب
الكلمة ، وإنما صاحبها هو الملك ، والملك هنا هو عضد الدولة ،
ذلك أن ركن الدولة أبا على الحسن بن بويه في مشهد من
أولاده وقواده وأجناده كان قد عهد قبل أن يموت إلى ولده
(عضد الدولة) بالملك بعده ، وجعل لولده (فخر الدولة) همدان
وأعمال الجبل ، ولولده (مؤيد الدولة) أصبهان وأعمالهما ، على
أن يكون فخر الدولة ومؤيد الدولة تحت حكم أخيها (عضد
الدولة) وأوصى ركن الدولة أولاده بالاتفاق وترك الاختلاف ،
كان ذلك في أصبهان ثم رجع إلى الري فأقام بها إلى أن مات
سنة ٣٦٦ (١) هـ .

الفصل الثالث

الصاحب الوزير

الصاحب الوزير

ولقد أحسن الصاحب وأخلص في خدمة مؤيد الدولة ، وحصل له عنده بقدّم الخدمة قدّم ، وأنس منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة ، فلقبه بالصاحب كافي الكفاة ، وولاه أموره وحكمه في أمواله ، فأبلى فيها أحسن بلاء ، وأقام فيها مقاما محمودا ، يقود الجيوش ، ويجهز الجنود ، ويصد الأعداء ، ويفتح القلاع ، ويرفع الموييد الدولة ودولته أعلام المجد في السياسة والحرب ، وفي ميدان العلم والأدب ، حتى اجتمعت بأبوابه من الساسة والعلماء والشعراء والفقهاء وطالبي الحاجات ما لا يحصى عددهم الا الله .



وقد استطاع الصاحب بكياسته وحسن سياسته أن يدعم الأخوة ، ويشيع الثقة بين عضد الدولة وأخيه مؤيد الدولة ، فعاشا ما عاشا على وفاق واتفاق على الوسائل والغايات في الوقت الذي فسدت فيه العلاقات وانقطعت الأواصر بين فخر الدولة وأخويه ، ومن أدلة ما بذل الصاحب في توثيق عرا المحبة بين الأخوين أن عضد الدولة بعد أن حارب أخاه فخر الدولة وطارده ضم ما كان تحت يديه الى ما تحت يد مؤيد الدولة ، فوسّع بذلك رقعة ملكه وارتفع شأن مؤيد الدولة بذلك وعظم في نظر

أخيه وفطر الناس ، ورأى صاحب أن يشخص بنفسه بأمر مؤيد الدولة مولاه لاطهار الطاعة ، فتلقيه عضد الدولة على بعد من البلد ، وبالح في اكرامه ، وجعل أكابر رجال دولته وأصحابه يبالغون في تعظيم صاحب فكانوا يذهبون اليه في مقره ، ولا يجشمونه الوصول اليهم . وقد كتب صاحب الى مؤيد الدولة رسالة يصف له فيها ما لقيه من عضد الدولة ورجاله يقول فيها « أما انعام مولانا على عبده وصنيع يده ، واستقباله بنفسه ، والدنيا تسير بسيره ، وخطود النجم مع سنابك خيله ، وتلقيه اياه بوزراء بابه ، وأمراء أجناده ، وعظماء قواده متصرفين مع الاعظام ، ومتحفين في اللقاء والسلام ، ثم رتبتي به في دخولي الى الدار المعمورة بالغز وحضورى المجلس المحضوف بالملك ، والتبليغ بى الى رتبة لم يقسمها — حرس الله ملكه — لأحد ممن غشى بابه المأمول من أطراف الأرض وأعيان الشرق والغرب ، واستجلاسى بحضرته التى يقف بها القمران على النواصى والهام ، الى ضروب من الانعام أستعظم والله وصفها ، وان كانت الأخبار قد سارت على متون الرياح بها » . وكان غرض عضد الدولة بهذا الاكرام وتلك الحفاوة استمالة مؤيد الدولة وتأسيس صاحب ..

وأرسل مؤيد الدولة عدة كتب يستطيل فيها مقام صاحب ، ويذكر اضطراب أموره بعده ، فاستأذن صاحب فى العودة الى الرى ، فأذن له عضد الدولة بعد أن خلع عليه الخلع الجليلة ، وحمله على فرس بمركب ذهب ، وأقطعه ضياعا جليلة من نواحي فارس ، وحمل الى مؤيد الدولة فى صحبته ألقافا كثيرة ، وضم

اليه من العسكر المستأمن عن فخر الدولة عددا ليقوموا بخدمة
مؤيد الدولة ..

وفي سنة ٣٧١ طلب عضد الدولة من قابوس بن وشمكير أن
يسلمه أخاه فخر الدولة الذي كان قد التجأ اليه ، فأبى أن يسلمه ،
فجهز اليه عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة ، فسار الى جرجان ومعه
وزيره صاحب بن عباد ، فانهزم قابوس وفخر الدولة والتجأ الى
السامانية بخراسان ، واستولى مؤيد الدولة على طبرستان
وجرجان . وحصل صاحب في هذه الواقعة على الفيل الذي كان
في عسكر العدو ، وأمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه ،
فوصفوه بعدد من القصائد الجميلة العذبة .

وفي شوال سنة ٣٧٢ هـ توفي عضد الدولة ، واجتمع القواد
بعد وفاته على بيعه ابنه أبي كاليجار المرزبان الملقب (صمصام
الدولة) ، وكان بفارس اذ ذاك أخوه شيرزيل الملقب (شرف
الدولة) وبجرجان عمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه ..

وقد تآقت نفس مؤيد الدولة الى الاستيلاء على بغداد وضم
مملكة عضد الدولة الى ولايته وأعماله ، لولا ما أصابه من العلة
واشتداد وطأة المرض عليه في سنة ٣٧٣ هـ عليه وهو في جرجان ..
ولما أحسّ" صاحب بدنو أجل مؤيد الدولة دخل عليه وقال
له : « لو عهد أمير الأمراء عهداً الى من يراه يسكن اليه الجند
الى أن يتفضل الله تعالى بعافيته وقيامه الى تدبير مملكته لكان
ذلك من الاستظهار الذي لا ضرر فيه » ..

فقال له مؤيد الدولة : « أنا في شغل عن هذا ، وما للملك

قدر مع انتهاء الإنسان الى مثل ما أنا فيه ، فافعلوا ما بدا لكم حتى
أشفي !

فقال له صاحب : « تب يا مولانا من كل ما دخلت فيه ، وتبرأ
من هذه الأموال التي لست على ثقة من طيبتها ، وحصولها من
حلها . واعتقد متى أقامك الله وعافاك صرفها في وجوها ، ورد
كل ظلامة تعرفها وتقدر على ردها » ..

ففعل مؤيد الدولة ذلك ، وتلطف به ، حتى أدركته منيته في
شعبان سنة ٣٧٣ هـ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة .

الصاحب وفخر الدولة

ولما توفي (مؤيد الدولة) أبو منصور بويه بن ركن الدولة
بجرجان ، أقيم العزاء في كل النواحي والأعمال التي تتولاها
الأسرة البويهية ، وفي قاعدة الخلافة في بغداد جلس صمصام الدولة
(أبو كاليجار المرزيان بن عضد الدولة) ابن أخى مؤيد الدولة ،
وكان يحكم العراق ، (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) ، جلس ببغداد للعزاء ،
وتوافد عليه أعيان الدولة وقوادها معزين ، وفي مقدمتهم الخليفة
العباسي (الطائع لله) .

* * *

ولما مات مؤيد الدولة تشاور أكابر دولته فيمن يقوم مقامه ،
فأشار الصاحب اسماعيل بن عباد بإعادة فخر الدولة الى ملكته ،

اذ هو كبير البيت ، ومالك تلك البلاد قبل مؤيد الدولة ، ولما فيه من آيات الامارة والملك .

فكتب اليه صاحب واستدعاه وهو بنيسابور ، وأرسل اليه صاحب واستخلفه ، وصرف الأمور أحسن تصريف ، فقد أقام خسرو فيروز بن ركن الدولة مقامه ، حتى تهدأ الأحوال ، ويسكن الناس الى أن يقدم فخر الدولة .

فلما وصلت الأخبار الى فخر الدولة سار الى جرجان ، فلقية العسكر بالطاعة ، وتسلم زمام الملك في رمضان سنة ٣٧٣ هـ بغير منة لأحد .

ولما عاد فخر الدولة الى مملكته تقدم اليه صاحب بن عباد قائلاً : « يا مولانا ، قد بلغك الله ، وبلغني فيك ما أمّلته ، ومن حقوق خدمتي لك اجابتي الى ترك الجندية ، وملازمة دارى ، والتوفر على أمر الله » ..

فقال فخر الدولة : « لا تقل هذا ، فما أريد الملك الا لك ، ولا يستقيم لى أمر الا بك ، واذا كرّهت ملابسة الأمور كرّهتها أنا أيضا وانصرفت » !

فقبل صاحب الأرض بين يديه ، وقال : « الأمر لك » . فاستوزره فخر الدولة وأكرمه وعظمه ، وصدر عن رأيه في جليل الأمور وصغيرها .

وفي الوقت نفسه عمل صاحب على التقريب بين حكام بغداد وفخر الدولة ، فسيرت الخلع من الخليفة الى فخر الدولة والعهد ،

واتفق فخر الدولة وابن أخيه صمصام الدولة فصارا يداً واحدة (١) ..

وقد سطع نجم صاحب في أيام فخر الدولة ، فقد استوثقت بينهما جبال المودة والتقدير ، وأحس كل منهما أن الآخر مكمل له ، متمم لمجده ، هذا في الامارة ، وذلك في الوزارة ، وكان صاحب ينتهز المناسبات لابرار عواطفه نحو فخر الدولة ، ومن ذلك أنه أهدى الى فخر الدولة يوم أول المحرم ٣٧٨ هـ ديناراً وزنه ألف مثقال ، وكان مكتوباً على أحد جانبيه من شعر صاحب :

وأحمر يحكى الشمس شكلاً وصورة
فأوصافه مشتقة من صفاته
فان قيل دينار فقد صدق اسمه
وان قيل ألف كان بعض سماته
بديع ولم يطبع على الدهر مثله
ولا ضربت أضرابه لسرراته
فقد أبرزته دولة فلكية (٢)
أقام بها الاقبال صدر قناته
وصار الى شاهان شاه اتسابه
على أنه مستصغر لعفساته

(١) الكامل لابن الأثير ٩/٩٠

(٢) يعنى بقوله « دولة فلكية » أن فخر الدولة كان يلقب « فلك الأمة » .

يخبر أن يبقى سـنـين كوزنه
لتستبشر الدنيا بطول حياته
تأنق فيه عبده وابن عبده
وغرس أياديه وكافى كفـاتـه

وكان مكتوبا على الجانب الآخر سورة الاخلاص ، ولقب
الخليفة الطائع لله ، ولقب فخر الدولة ، واسم جرجان ، لأنه
ضرب بها .

وكان على فخر الدولة أن يعرف دائما فضل صاحب عليه ،
ويتذكر ما أسدى اليه صاحب بما مهد له من الملك ، وما وطأ له
من الأمور . اذا ذكرنا موقف فخر الدولة قبل ذلك ، وموقف
أخويه عضد الدولة ومؤيد الدولة من مطاردته وأخذ ما كان
بيديه ، فقد عهد ركن الدولة — كما أشرنا من قبل — قبل وفاته
بالمملك بعده الى ولده عضد الدولة فناخسرو ، وجعل لولده
« فخر الدولة أبى الحسن على » همدان وأعمال الجبل ، ولولده
مؤيد الدولة أصبهان والرى وأعمالهما . ولكن فخر الدولة كان
مداجيا لأخويه ، وقد كاتبه ابن عمه بختيار بن معز الدولة ، ودعاه
الى الاتفاق معه على عضد الدولة فأجابه الى ذلك ، فعلم عضد
الدولة به ، فحاربه واستولى على بلاده سنة ٣٦٩ هـ ، وأضافها الى
أخيه مؤيد الدولة صاحب أصبهان والرى وأعمالهما ، فهرب
فخر الدولة الى جرجان ، والتجأ الى شمس المعالى قابوس بن
وشمكير فأمّنه وآواه .

ولذلك كان حرص فخر الدولة على صاحب وابقاؤه في

الوزارة هو الجزاء الواجب ، والمكافأة الطبيعية على صنيعه فيه ، وكان على صاحب ألا يفرض نفسه على المنصب بحجة أنه صاحبه وأن له يدأ في تعيين صاحب الرأي فيه ، فتصرف كما تمليه اللباقة ، وما يوجبه الأدب العالي الذي كان جديراً به ، فأظهر رغبته في التنحي ليتأكد من منزلته عند صاحبه ، ويقول ياقوت ان صاحب أراد اختبار فخر الدولة ، هل في نفسه عليه شيء مما كان في أيام مؤيد الدولة مما أوجب هرب فخر الدولة ، فاستغفاه صاحب من الخدمة والوزارة ، فقال له فخر الدولة : « لك في هذه الدولة من ارث الوزارة كما لنا من ارث الامارة ، فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه » ! ، ولم يعفه .

ولم يزل على أمره معه الى أن مات صاحب ، والأمور تصدر عن أمره ، والملك يدبر برأيه ، وكان اذا قال فخر الدولة قولاً وقال صاحب قولاً امثل قول صاحب ، وترك قول فخر الدولة (١) .

الصاحب في بغداد

زار الصاحب بغداد في سنة ٣٤٧ هـ ، فقد ورد اليها الأمير أبو منصور بويه بن ركن الدولة ، ليخطب لنفسه ابنة عمه معز الدولة ، وكان مع أبي منصور في هذه الرحلة الى قاعلة الخلافة وزيره أبو علي بن أبي الفضل القاشاني ، وكاتبه أبو القاسم

(١) معجم الادباء ١٧٤/٦ .

اسماعيل بن عباد ، ويقول مسكويه في كتابه « تجارب الأمم » انه لما كانت ليلة السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة ٣٤٧ هـ زفت بنت معز الدولة الى أبى منصور بويه ، ثم حملها الى أصبهان ..

وقد جن جنون صاحب بدار السلام ، والحياة العلمية والأدبية المزدهرة فيها ، حتى أنه لما رجع عنها دخل على أستاذه أبى الفضل بن العميد ، فسأله : كيف وجدت بغداد ؟ فكان جواب صاحب : بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد ، وأنشد :

أفاضل الدنيا وان برزوا لم يبلغوا غاية أستاذها
أما ترى أمصارها جمة ولا ترى مصر كبغدادها
ففى هذه الزيارة لقي الوزير المهلبى وسمر معه ووصف مجالسه كما مر لأبى الفضل بن العميد ، ومما حدث له في هذه الزيارة في بغداد من الطرائف ، وما يدل على اعتداد صاحب بنفسه ، وحرصه على توفيقه حقه من الاعظام والتقدير ، أنه لما دخل بغداد قصد القاضى أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه ، فتشاكل أبو السائب في القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته ، فأخذ صاحب بضبعه ^(١) وأقامه ، وقال : « نعين القاضى على قضاء حقوق اخوانه » ! فحجل أبو السائب ، واعتذر اليه ..

وزار في هذه الزورة أبا سعيد السيرافى الذى كان كما يقول صاحب : شيخ البلد ، وفرد الأدب ، وحسن التصرف ، ووافر

(١) الضبع العضد .

الحظ من علوم الأوائل ، وقد جرت بينهما محاورات علمية تدل على علم الصاحب وحذقه ، ورآه بعد ذلك غزيراً فاضلاً متوسعاً عالماً ، فعلق عليه ، وأخذ عنه ، وحصل تفسيره لكتاب سيبويه ، وقرأ صدرا عنه . ورأى الصاحب هناك أبا بكر بن مقسم الذي ليس في أصحاب ثعلب أكثر دراية ولا أصح رواية منه ، وسمع الصاحب مجالسه وما فيها من غرائب ونكت ومحاسن وطرف من بين كلمة نادرة ، ومسألة غامضة ، وتفسير بيت مشكل ، وحل معقد معضل . وكذلك رأى الصاحب في بغداد القاضي أبا بكر ابن كامل الذي وصفه بأنه بقية الدنيا في علوم شتى يعرف الفقه والشروط والحديث ، ويتوسع في النحو توسعاً مستحسنًا ، وله في حفظ الشعر بضاعة واسعة ، وفي جودة التصنيف قوة تامة . وكان الصاحب يحب أن يسمع كلام أهل النظر ^(١) بالعراق لما تتابع في حقهم من الأوصاف ، وذكر أبا زكريا يحيى بن عدي وغيره ..

وكل هذا يدل على علو همة الصاحب ، فهو قد دخل بغداد لحاجة في صحبة الأمير ، فلم يكتف حتى حضر مجالس مشاهير العلماء وأخذ عنهم ، وأفادهم واستفاد منهم ، وزار الوزراء والقضاة ، وحضر مجالس أهل النظر ، ومجالس الصوفية .. ولما عاد الصاحب من بغداد أخذ معه أبا الحسن البديهي إلى

(١) يعني به الفلاسفة وعلماء الكلام .

أصبهان . وكان من جملة العلماء الذين استدعاهم الى الري قاضى
القضاة عبد الجبار الباقلانى المعتزلى (١) .

ثم غادر صاحب بغداد وفى قلبه حنين عجيب اليها ، وكأنه
كان يرى أن موضعه الطبيعى هناك فى موطن الخلافة ، رأسا
لدواوينها ، وواسطة عقد أعلامها من علماء الأرض وشعرائها
وأدبائها وفلاسفتها وحكمائها ..

بل لقد صرح صاحب بهذا الأمل الذى يراوده ، فقد روى
هلال بن المحسن أنه سمع محدثا يحدث أبا اسحاق أنه سمع
الصاحب يقول : « ما بقى من أوطارى وأغراضى الا أن أملك
العراق ، وأتصدر (٢) ببغداد ، وأستكتب أبا اسحاق الصابى ،
ويكتب عنى ، وأغير عليه » (٣) ..

وقد التقى أمل الوزير صاحب بأمل أميره مؤيد الدولة بعد
وفاة عضد الدولة ، وقد عرف المتصلون بالصاحب أمله وما تتطلع
اليه نفسه من بلوغ بغداد حتى قال أبو القاسم الزعفرانى يردّد
هذا الأمل فى قصيدة من مدحه للصاحب :

قسما لا ملحت بعد ابن عبا د منيل الشباب والتخيلد
لا لقيت الزمان الا بوجه مأوه لا يجول فى جلمود
ويد ما حسرت ردنى عنها فهى سيف يسان عن تجريد

(١) أعيان الشيعة ٣٧٧/١١ .

(٢) يقال تصدر الرجل اذا تقدم غيره ، وجلس فى أرفع مكان
من المجلس .

(٣) معجم الأدباء ٦/٦٠٦ .

أجمع الناس أنه أفضل الناس اضطراباً أغنى عن التقليد
 فلهذا أعد قربي منه نعمة ليس فوقها من مزيد
 لا ذكرت العراق ما عشت إلا أن أراه يؤمه في الجنود
 ومن قول أبي عيسى المنجم يصف الدار التي بناها الصاحب
 في أصبهان ، ويذكر بغداد وسراً من رأى ، وكأنه يسلمى الصاحب
 عن آماله ، فيصور هذه وتلك وكأنهما تشتهيان أن تكونا مثل
 أصبهان ، تسعدان بوزيرها الصاحب بن عباد :

هي الدار قد عم الممالك نورها
 ولو قدرت (بغداد) كانت تزورها
 ولو خبرت دار الخلافة بادرت
 إليها وفيها تاجها وسيرها
 ولو قد تبقت (سر من را) بحالها
 لسار إليها دورها وقصورها
 لتسعد فيها يوم حان حضورها
 وتشهد دنيا لا يخاف غرورها

وفي المناسبة نفسها يقول الشيخ أبو الحسن صاحب البريد ،
 وهو ابن عمه الصاحب ، ويفضله على وزراء الملك قاطبة بما فيهم
 وزراء بغداد (١) :

وهذه وزراء الأرض قاطبة ييادق ، لم تزل ما بيننا شأها
 فأنت أرفعها مجداً وأسعدها جدّاً وأجودها كفاً وأكفأها
 وأنت أدبها بل أنت أكتبها وأنت سيدها بل أنت مولأها

(١) راجع يتيمة الدهر ٢٠٣ من الجزء الثالث وما بعدها .

فقد كان الصاحب يرى أن تمام مجده أن يكون حيث يكون
رأساً ، وأن يكون كبيراً للوزراء واماماً للكتاب في حاضرة الدولة ،
وكان يحن الى هذا الأمل ويغرى به الأمراء الذين يعمل لهم ،
أغرى به مؤيد الدولة بعد وفاة عضد الدولة ، وكاد مؤيد الدولة
يقود الجيوش لاستخلاص العراق ، وحكم سائر البلاد من بغداد ،
لولا أن بادره المرض وعاجلته منيته كما قدمنا ، فكان الصاحب
على طول الأيام يحب بغداد ، ويشتهي الرياسة فيها ، ويرصد
أوقات الفرصة لبلوغ ما يشتهي ، ثم زين الأمر من بعده لخلفه
فخر الدولة ، الذي شجعه على فتح العراق دون أن يظهر ميله الى
هذا الفتح أو يصرح به ، ولكنه جعل أمام فخر الدولة من يعظم
في عينيه العراق ، ويسهل عليه فتحها ، وظل الصاحب بعيداً عن
هذا الأمر ، وكأنه لا يعلم عنه شيئاً ، أو كأن ذلك أمر لا يعنيه
من قريب أو بعيد ، لأنه كان يخشى الاخفاق وسوء العاقبة ،
ولم يعرف عنه فيما قبل الا الرأي الموفق والتدبير الصائب وما زال
أعوانه يوحون الى فخر الدولة بما أراد الى أن استشاره
فخر الدولة : ما الذي عندك أيها الصاحب فيما نحن فيه ؟

فقال الصاحب : الأمر لشاهنشاه « ملك الملوك » ، وما يذكر
من جلالة تلك الممالك مشهور لا خفاء به ، وسعادته غالبية ، فاذا
هم بأمر خدمته فيه ، وبلغته أقصى مراميه !

فعزم فخر الدولة حينئذ على قصد العراق ، وسار الى
همدان ، واستقر العزم على أن يسير الصاحب ومعه بدر بن

حسنويه على طريق الجادة ، ويسير فخر الدولة ومعه بقية العسكر على طريق الأهواز .

فلما سار صاحب قال قائل لفخر الدولة انه من الغلط أن تفارق صاحب ، لأنك لا تأمن أن يتصل بأبناء عضد الدولة ، وأن يستميلوه فيميل اليهم ..

وكان أن استدعاه من الطريق اليه ، وأمره أن يغير طريقه ، ويذهب الى الأهواز ، فسمع صاحب وأطاع ، فسبقه اليها ، وتم له الاستيلاء عليها ، ولحق به فخر الدولة بعد عشرين يوما ، ولكنه أساء السيرة مع جندها ، وضيق عليهم النفقة ولم يبذل المال ، فتخاذل الجند .. ولم يكن من صاحب الا أن أمسك نفسه تأثرا بما قيل عن اتهامه ، والتوجس من استمالة أولاد عضد الدولة .

فلما سمع بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة بوصول فخر الدولة وجيشه الى الأهواز سبى اليهم عساكره ، والتقوا هم وعساكر فخر الدولة ، وتصادف طغيان فيضان ماء نهر دجلة ، حتى خاف جند فخر الدولة ، وظنوها مكيدة دبرت لهم ، وقال بعضهم لبعض : « انما حملنا صاحب الى هذه البلاد طلبا لهلاكنا » ، فانهمزوا ، وخاف فخر الدولة على نفسه ، وخشى أن يمتد التمرد الى جنود مملكته ، وكان مستبدا .. ولكنه اضطر أن يرجع الى صاحب ليشير عليه بما يرى للخلاص من هذا المأزق . فأشار صاحب ببذل المال واستصلاح الجند ، وقال له : ان الرأي في مثل هذه الأوقات اخراج المال ، وترك مضايقة الجند ،

فان أطلقت المال ضمنت لك حصول أضعافه بعد سنة واحدة !
فلم ينفذ فخر الدولة ما أشار عليه به وزيره صاحب ، فاختلف
عليه كثير من عسكر الأهواز ، واتسع الخرق عليه ، وضاعت
الأمور ، فعاد الى الريّ مخذولا ، وعادت الأهواز الى صاحبها
بهاء الدولة بن عضد الدولة !

وهكذا لم تتحقق آمال صاحب في العراق ، واعتلاء كرسى
الوزارة في بغداد ، فعاد حزينا على ما فاته ، وهالك قصيدة من
شعره الى أبى العلاء السروى يذكر فيها هذا الأمل الذى كان
يداعب جفنيه ، ثم ولى عنه هاربا ، ويذكر عزمه على زيارة
أصفهان :

أبا العلاء ألا أبشر بمقدمنا

فقد وردنا على المهريّة القود (١)

هذا وكان بعيدا أن أراجعكم

على التعاقب بين البيض والستود

من بعد ما قربت بغداد تطلبني

واستجزتني بالأهواز موعودى

وراسلتني بأن بادر لتملكني

ويجرى الماء ماء الجود في العود

(١) المهريّة : الأبل المنسوبة الى مهرة بن حيدان ، والقود الطويلة

الظهور والأعناق جمع أقود .

فقلت هيهات من «جى» (١) وساكنها
 ولو رددت شبابى خير مردود
 فان فيها أودائى ومعتمدى
 وقربها خير مطلوب ومنشود
 ألت أشهد اخوانى ورؤيتهم
 تفى بملك سليمان بن داود

* * *

وكان الصاحب فى كل ما يصدر عنه آمينا على الدولة وفيّا لأصحابها ، لا يعمل إلا ما يرى فيه صلاحا لأحوالها ، وانتظاما لأمرها ، وكان فى الوقت نفسه يرعى حق ربّه ، ويرضى ضميره ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يبيع دنياه بأخرته ، وكان رفيقا بالناس يتحاشى ظلمهم ، ويعف عن أموالهم ، وبهذا عظم الصاحب فى نظر بنى بويه ، فهابوه وأجلّوه ، وصانوا كرامته طول حياته ، فلم يردوا له أمرا ، ولم يفسدوا عليه قولا ، بل كانوا يسرعون الى انفاذ ما يشير به . وقد رأينا ما نصح به لمؤيد الدولة قبل وفاته من تطهير أمواله ، وردّ المظالم حتى يلقى ربّه راضيا مرضيا . ومن ذلك ما رواه المافروخى فى كتابه « محاسن أصفهان » فى قوله : انتهى إلينا أنه رفع انسان الى فخر الدولة رقعة يتعهد فيها أنه يستوفى على المستغلات والأملاك بأصفهان خارجا عن المعاملات والحقوق ٣٠٠٠٠٠ درهم يحصلها فى خزانة

(١) جى بالفتح ثم التشديد اسم مدينة أصفهان القديم ، وهى الآن منفردة كالخراب ، وتسمى عند العجم شهرستان .

فخر الدولة ، وكان فخر الدولة في ذلك الوقت محتاجا الى الأموال ، لأنه كان يريد النهوض لمحاربة عساكر خراسان وفتح جرجان ، فوقع ذلك في روعه ، فلما دخل عليه صاحب ناوله القصة ، وقال : يا أبا القاسم تدبر أمر هذا الرجل وقرره ، فبنا الى مثل هذا المال مساس حاجة . فقال صاحب : سمعا وطاعة لأمر شاهنشاه ، ثم انكفأ عن مجلسه الى غيره ، واستحضر الرجل ، وقال له : أنت صاحب هذه القصة والضامن استخراج هذا المال من الوجوه المذكورة ؟ قال الرجل : نعم ، أيّد الله صاحب !

فسلمه صاحب الى الحسين بن توراب أستاذ الدار ، وأمره بالاحتفاظ به الى الغد ؛ ليفصل في أمره . وأخذ خطوط المتفهمين والقضاة والمعدلين بانزال أشد العقاب بالساعي .

وركب من الغد الى مجلس فخر الدولة ، وقال له : على تحصيل هذا المال من وجهه من غير أن يتوجه الى الرعية فيه عنت ؛ أو ينالهم مكروه . وأتبع ذلك من المواعظ والنصائح بما استنزله عن رأيه ، وعاقب الساعي ، وطلب ذلك المال من عشرة رجال مياسير ، لم يؤثر فيهم تأثيرا كثيرا .

هذا هو صاحب الوزير العف الرفيق بالرعية ، الذي لم يعرف عنه أكل حرام ، وإنما عاش حياته — كما كان يقول — يأكل من حين نشأ الى يومه من أموال أبيه وجده مما ورثه عنهم (١) ..

* * *

وآيات وفاء صاحب لآل بويه أكثر من أن تحصى ، ولكننا

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٥/١١ .

نذكر منها أن الملك نوح بن منصور الساماني صاحب خراسان ، كان يتمنى أن يكون صاحب وزيراً له ، فأرسل اليه سرّاً يمينه ويستدعيه الى حضرته ، ويرغبه في خدمته ، وبذل البذول السنية ، فكان من جملة اعتذار صاحب قوله « كيف يحسن لى مفارقة قوم بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى ؟ ثم كيف لى بحمل أموالى مع كثرة أنقالى ؟ وعندى من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمئة جمل أو أكثر ؟ » .

قال أبو الحسن البیهقي : بيت الكتب الذى بالرى دليل على ذلك (١) بعد ما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين ، فانى طالعت هذا البيت ، فوجدت فهرست تلك الكتب عشر مجلدات ؛ فان السلطان محموداً لما ورد الى الرى قيل له ان هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع ، فاستخرج منها كل ما كان فى علم الكلام ، وأمر بحرقه (٢) .

لقد وزر ابن عباد لمؤيد الدولة ثم لأخيه فخر الدولة فبقى فى وزارتهما ثمانى عشرة سنة وشهوراً ، وفتح خمسين قلعة سلمها الى فخر الدولة ، لم يجتمع عشر منها — كما يقول ياقوت — لأبيه ولا لأخيه (٣) ..

* * *

وقد عاش صاحب مع بنى بويه مبجلاً مقدّراً ، معترفاً له

(١) أى على صحة قول صاحب ان كتب العلم عنده وحدها

(٢) معجم الأدباء ٢٥٠/٦ .

(٣) المصدر السابق : صفحة ٢٥١ .

بالفضل ، نافذ الرأي ، صادق المشورة ، ولقد ارتفع به شأنهم ،
كما سطع نجمه في أيامهم ، حتى لتكاد شهرته تفوق شهرة أكثرهم ،
ولم يكن ذلك الا لما وهبه الله من جودة القريحة ، وصفاء السريرة ..
ولقد بذل لبنى بويه من عقله وأدبه ، كما بذل في سبيلهم من
أعصابه ودمه ، ولقد عوقته خدمته لهم ، وتفانيه في تثبيت ملكهم ،
عن متابعة لذته الكبرى في تحصيل العلم ، واقتطاف ثمار الأدب ،
بين جماعات العلماء الذين كان يحبهم ، والأدباء الذين كان
يجالسهم ، حتى شاخ قبل الأوان ، وها هو ذا يفضى بحاله الى
واحد من أصحاب ودّه القديم يذكر حسرته على أيامه الفائتة
ومجالسه العامرة الزاخرة ، وسمره الممتع في طاقته من أهل العلم ،
وأغصان دولة الأدب ، فيكتب الى أبى العلاء الأسدى عن شئونه
وشجونه :

يقر بعينى أن يلمّ رسولها
ببابى ويهدى بالعشى سلامها
ويذكر لى دون الرجال حديثها
وينشر عندى نطقها وكلامها

« ورد يا شيخى — أطال الله بقاءك — رسولك بكتاب سبق
الأفكار والظنون ، وحسدت عليه القلوب العيون ، وترك الواصفين
بين قاصر ومقصر ، ومثل ليالينا بين اللوى ومحجّر ^(١) بكلام
كالورق النضير تتأوّه منه الغصون ، وكالتور المنير أفنائه
فنون ، فصادفنى حليفا للشوق أو رهينا ، وحنيا على الحنين وساء

(١) اللوى ومحجّر : موضعان .

قرينا ، وكيف لا ، وقد ألفتنا القرب حولاً ، حولنا رياض الأدب ترفاً ، ودوننا رواحل الفضل ترفاً ، نملك رقاب المنطق ، وتتنازع أطراف الكلام المنمق ، ونقطع الليالى تناشداً وتذاكراً ، وتحادثاً وتسامراً الى أن يخلع الظلام ثيابه ، ويحدر ^(١) المصباح نقابه .

« هذا دأبنا كان الى أن جاوزنا الشباب مراحل ، ووردنا من المشيب مناهل . ثم حان الفراق ، فنحن حتى اليوم منه فى جو كدر ، ونجم منكدر ، يقبضنا عن الموارد العذاب ، ويعرضنا على لواعج ^(٢) العذاب . والله نسأل إعادة هاتيك الأحوال ، وتلك الأيام الخضراء الظلال . وان كان الله قد زادنا بعدك مناجح ومنايح ^(٣) ، وأيادى غوادرى وروائع ، حتى فتحنا الفتوح ، وذللنا الصروح ، ورتقنا الفتوق ، ونسخنا القرون ، وأثرنا ^(٤) الآثار ، ووطئنا الرقاب ، وطلبنا الثأر ، واصطنعنا الصنائع ، وجعلنا ودائع النعم قطائع ، وعقدنا فى أعناق الأحرار مننا ، أحسبها من سبل الاحسان سننا ، انا قد تحملنا مشاق مالت على القوة بالضعف وتحاملت على الأثر ^(٥) بالوهن ، ودفعت الى معالجة خطوب ، تعجب الدهر من صبرنا عليها فحار ، وجبن الزمان عند شجاعتنا لها فحار .

(١) حدر الشيء حطه من أعلى الى أسفل ، والمراد يسدل .

(٢) لواعج ، مفرد لها لاعج ، أى محرق .

(٣) المنائح العطايا .

(٤) اثرنا الآثار : تركنا فيها أثراً .

(٥) الأثر المرح والبطر .

وها أنا أحوج ما كنت الى أن أرفقه ولا أستكره ، وقد رميت
بسهم الأربعين ، وأرميت ^(١) على شرف الخمسين ، مدفوع
الأشغال والأثقال ؛ الى متاعب ومصاعب لو منى بها ابن ثلاثين
قويا أزره ^(٢) ، طريا جرضه ^(٣) لقام عجزه وقعدت به نفسه ،
وأظننى قديما قلت :

وقائلة : لم عرتك الهموم
وأمرك ممثـل في الأمم
فقلت : دعيني وما قد عـرا

فان الهموم بقدر الهم
وما أنا على الراحة آسف ، بل على ألا أكون مشغولا بأخرى
أهد لها وأكدح ، وأدأب لنفسي وأنصح .

اللهم وفق وقدر ، وسهل ويسر ، انك على ما تشاء قدير .
وهذه الرسالة وان بدا فيها حب العمل والرغبة فيه ، ومواصلة
الكفاح في أمجاد يبنها للدولة ، فهي تتضمن في الحقيقة مشاعر
جندى لا يستطيع أن يفرّ من ميدان القتال ، ولا سيما اذا كان
ذلك الجندى هو المسئول الأول عنها ، والقائد الذى فرضت عليه
الأقدار قيادتها ، وهو يشعر بثقل الحمل على كاهله ، ألا تراه
يقول « رميت بسهم الأربعين ، وأرميت على شرف الخمسين ،
مدفوع الأشغال والأثقال الى متاعب ومصاعب ، لو منى بها ابن

(١) أرميت : زدت .

(٢) الأزّر القوة .

(٣) الجرض : الريق يبتلع بجهد ، ولكنه اذا كان طريا سهل .

ثلاثين قويا لقام عجزه ، وقعدت به نفسه « ؟ ولكن الهموم
كما يقول على قدر الهم ! . ثم ترك تلك الحسرة الظاهرة على
سعادته بالعلم والأدب والمناظرة والمحاورة التي فقدتها ارضاء
لملوكه « وكيف لا ، وقد ألفتنا القرب حولا ، حولنا رياض الأدب
ترف ، ودوننا رواحل الفضل تزف ، نملك رقاب المنطق ،
وتتنازع أطراف الكلام المنطق ، ونقطع الليالي تناشدا وتذاكرا ،
وتحادثا وتسامرا ، الى أن يخلع الظلام ثيابه « ؟

ولكن بهذا الصبر والثبات استطاع صاحب أن يضم الى
فضل العلم والأدب فضل السيف والجهاد ، وكان بحق « كافي
الكفاة » الذي كان يصول بسيفه كما كان يصول بفكره وفنه !

الصاحب وحكام الزمان

وقد علت منزلة الصاحب في عيون الحكام وفي قلوبهم ،
وتوثقت صلته بمعاصريه من الأمراء والوزراء والكتاب في زمن
غلت فيه مراجل التحاسد والبغضاء ، وازدادت فيه الأطماع التي
أخذت تحطم أواصر الصلات ، وتهدم صروح الصداقات ، ولكن
ما طبع عليه الصاحب من الوقار واحترام النفس ، وما متع به
من حسن التدبير والتفوق العلمي والأدب ، جعل صلته بأولئك
الحكام والوزراء صلة ودّ واكبار .

ولقد كسب الصاحب احترام رجال البيت البويهي وثقتهم
في سائر ممالكهم وأوطانهم وعلى الرغم مما كان بينهم من

التنافس ، وما كان يقع بين بعضهم من التقاطع ، وكان احترام البويهيين له احتراماً موروثاً ، فقد كان آباؤهم يحترمون أباه عبادة الذى كان يلقب «الأمين» والذى كان دينا خيراً مقدماً فى صناعة الكتابة ، والذى تولى الوزارة لركن الدولة بن بويه ، والذى كان أستاذاً للوزير أبى الفضل بن العميد . ثم احترام مكسوب كسبه صاحب بعقله وخلقه وحسن تديره .

* * *

أما الثلاثة من أبناء ركن الدولة عضد الدولة ، ومؤيد الدولة ، وفخر الدولة ، فقد عظم قدر صاحب فى نفوسهم الى درجة كبيرة ، وقد زار صاحب همدان وزار عضد الدولة سنة تسع وستين وثلثمائة ، فلقى منه كل ترحيب واجلال كما قدمنا ، وقد أشار صاحب الى أثر هذه الزيارة فى قوله « ولقد أودعت صدر عضد الدولة ما يطيل التفاته الى » ، ويكثر حسرته على ، ولقد رأى منى مالم يرقبله مثله ، ولا يرى بعده شكله ، والحمد لله الذى أوفدنى عليه على ما يسر الولي ، وأصدرنى عنه على ما يسوء العدو » وفى كتاب محاسن أصفهان لمحمد بن سعد المافروخي عند كلامه عن صاحب « كان والله الفاضل المميز ، والكامل المبرز ، ثالث الثلاثة الذين نافس عضد الدولة فيهم أخاه مؤيد الدولة ، وحسده عليهم ، وهو أن العضد كان كثيراً ما يقول قولاً معناه : قد حببت بغايات الأمنى ، وأوتيت أقصى المباغى ، فلا أحسد ملكاً من الملوك على شىء غير أخى — مؤيد الدولة — على أبى القاسم الثلاثة : أبى القاسم اسماعيل بن عباد ، وأبى القاسم

فضل بن سهل ، وأبى القاسم بن جعفر المعروف باليزدى . وكان كل واحد منهم فى فنه نسيج وحده ، وقريع زمانه ، منيفا على أهل صناعته وأقرانه ، وقول البحترى :

ثلاثة جلة ان شووروا نصحوا

أو استعينوا كفوا أو سلطوا عدلوا

يوهم أنه لم يمدح به غيرهم .

وفى هذه الأمنية أو فى هذا الحسد ما يشعر بمنزلة الصاحب فى نفس عضد الدولة ، أما منزلته عند مخدميه مؤيد الدولة وفخر الدولة فكانت أقوى ، وللكلام فيها بيان فى غير هذا الموضع . وقد تجاوز الاعتراف بالصاحب تلك الدائرة المحدودة دائرة أسرة بنى بويه الى الملوك والحكام المجاورين ، بل الى الذين كانوا ينقمون على بنى بويه كالسامانيين فى بخارى الذين كاتبوا الصاحب سرًا ليصل اليهم ويسلموه زمام الحكم فى بلادهم لما عرفوا فيه من الحكمة والفضل ، ولكنه أبى ، وقد أشرنا الى ذلك فى موضعه من هذه الدراسة ، وكانت كذلك صلته بحاجبه حسام الدولة أبى العباس تاش ، ودليل هذه الصلة القوية والثقة المتبادلة كتاب الصاحب اليه فى أمر العناية بالقاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ..

* * *

وكذلك قويت صلته بسائر الوزراء والكتاب ، وكأنه كان يحسّ بما يدفعه اليه قلبه من البرّ بهم ، وتوثيق عرا الألفة بينهم ، لاتسابهم الى فته ، وكأنهم كانوا يحسون بزعامته لهم ،

ويجدون في قوته تمكينا لهم ، ومنهم أبو القاسم عبد العزيز ابن يوسف الذي وصفه الثعالبي بأنه أحد صدور المشرق وفرسان المنطق ، وأفراد الكرم الكبار ، الحسان الآثار والأخبار ، وأعيان الممدحين المقدمين في الآداب والكتابة ، والبراعة والكفاية ، وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا في وزرائه وأخص ندمائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده ^(١) ، وعلامة هذا الحب للصاحب ، والثقة المتبادلة بينهما كتابه اليه بعد مفارقتها حضرته « كتابي أدام الله عزّ مولانا وحالي — فيما أعايينه من تمثيل حضرته ، وتذكر خدمته ، والمواقف التي سعدت فيها برؤيته ، وأفدت من مشاهدته حظها ، ومقابلة نعم الله عليه ، وعلى الأدب وحزبه ، والكرم وأهله فيه — حال امرئ هبّ وقد أوردته الأحلام مناهل أمله ، فهو يتلّفه تذكرا ، ويتلذذ تحيرا ، ويناجي النفس تأملا ، ويراقب المنى تعللا . وأحمد الله تعالى على الأحوال كلها ، وأسأله قرب الادالة ^(٢) ، والعقبى السارة » .. وينشئ قصيدة في الصاحب منها هذه الأبيات :

يجاذب نحو الصاحب الشوق مقودى
وقد جاذبتني عنه أيدي الشواذب ^(٣)
سقى الله ذاك العهد عهدا من الحيا
وتلك السجايا الغرّ غرّ السحائب

(١) يتيمة الدهر ٣١٢/٢ . (٢) الادالة : الغلبة والنصر .

(٣) الشواذب : المفرقات المبعدات عن الأوطان .

وقد لحظت عيناي من شخصك العلا
ومن فرعك الفينان أعلى المناسب
ومن لفظك الدر المصون ومن حيا
محيالك مالم تجره كف خاطب
وأخلاقك الغر التي لو تجسمت
لكانت نجوما للنجوم الثواقب
ففاضت على خدى سوابق عبرة
كما أسلمت عقدا أنامل كاعب
سلام على تلك المكارم والعلا
تجية خل عن جنابك غائب
وما أنا بالناسي صنائعك التي
كتبن على السرق ضربة لازب

* * *

وكان الشاعر أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي قد
انتجع صاحب ولم يزل بين خير مستفيض وجاه عريض ، ونعم
بيض الى أن آثر قصد حضرة عضد الدولة بشيراز ، فجهزه
الصاحب اليها ، وزوده كتابا بخطه الى أبي القاسم عبد العزيز
ابن يوسف ، وفيه يقول : « قد علم مولاي أطال الله بقاءه أن باعة
الشعر أكثر من عدد الشعر ، ومن يوثق بأن حليه التي يهديها من
صوغ طبعه ، وحلله التي يؤديها من نسج فكره أقل من ذلك !
وممن خبرته بالامتحان فأحمدته ، وفررته ^(١) بالاختبار فاخترته

(١) فررته : اخترته وجربته .

أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي أيده الله تعالى ، وله بديهة قوية توفى على الروية ، ومذهب في الاجادة يهش السمع لوعيه ، كما يرتاح الطرف لوعيه ، وقد امتطى أمله — وخير له — الى الحضرة الجليلة رجاء أن يحصل في سواد أمثاله ، ويظهر معهم بياض حاله ، فجهزت منه أمير الشعر في موكبه ، وحليت فرس البلاغة بمركبه . وكتابي هذا رائده الى القطر ، بل مشرعه الى البحر . فان رأى مولاي أن يراعى كلامي في بابيه ، ويجعل ذلك ذرائع ايجابه ، فعل ان شاء الله تعالى » فلما وردھا تكفل به أبو القاسم وأفضل عليه ، وأوصله الى عضد الدولة ..

* * *

وكذلك كانت صلته بالوزير أبي محمد الحسن بن محمد المهلبى الذى كان من ارتفاع القدر واتساع الصدر ونبيل الهمة وفيض الكف وكرم الشيمة على ما هو مذكور مشهور ، وأيامه معروفة في وزارته لمعز الدولة وتديره أمور العراق ، وانبساط يده في الأموال ، مع كونه غاية في الأدب والمحبة للأهله (اليتيمة ٢/٢٢٣) . وقد وصف الصاحب في كتابه « الروزنامجه » من اهتمام المهلبى به ، حين زاره في بغداد ما يدل على اجلاله وحبّه ، ومن ذلك قوله : « وحضرت الأستاذ أبا محمد أيده الله تعالى في منظره له على دجلة تنفتح منها أبواب الى بساتين ، فعمل بيتين صنعا في الوقت ، وغنى بهما ، وهما :

لئن عرفت جريراً أو اعتمدت قطيعاً (١)
 فلا ظفرت بعاص ولا أظعت المطيعاً
 وأنفذ الأستاذ أبو محمد — أيده الله — ليلة وقد مضى
 الثلث منها فاستدعاني ، وعاد دابة نوبته كي لا أتأخر انتظاراً
 لدابتي ، فمضيت وألفيته قد انتهى من بستانه الكبير الى مصبها
 من دجلة على ميادين ريحان نضرة ، فاستحسن الموضع ، وقعد
 فيه يشرب مع خدمه : أبي الكأس ، وسلاف ، وأبي المدام ،
 وشراب ، وخندريس ، وشمول ، وراح . وأمر فنصبت نحو مائة
 شمعة في أصول تلك الميادين صغيرة ، وقعدت ، فغنّى سلاف :
 يا شقيق النفس من حكم نمت عن ليلى ولم أنم
 فقال الأستاذ : بل غنّ :

يا شقيق النفس من خدمي لم ينم ليلى ولم أنم
 غنّى من شعر ذى حكم يا شقيق النفس من حكم
 قال صاحب : ولم نزل نشرب الراح الى أن باح الصبح
 بسره ، وقام كل منا يتعثر في سكره .

الصاحب والأدباء

ان صلة الصاحب بالأدباء والكتاب ، كانت دائماً صلة الحب
 والابقاء على الود ، لأنهم يمثلون دولة الأدب التي كان الصاحب
 ينتسب اليها ، بل كان من زعمائها ، ورافعي ألويتها ، فكان

(١) المراد بالجرير الجريرة والذنب ، والمراد بالقطيع هنا
 القطيعه — وهو تفسير الصاحب .

يقدرهم في مناصبهم ، ويرهم اذا أبعدوا عنها ، لا يضع له ودّ ، ولا يخيس له معهم عهد ، ومن مثل ذلك ما كان بينه وبين أبي اسحاق الصابي الذي كان أوحّد العراق في البلاغة ، ومن به تشي الخناصر في الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة ، وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفاء ، وخلافة الوزراء ، وتقلد الأعمال الجلائل مع ديوان الرسائل ، وحلب الدهر أشطره ، وذاق حلوه ومرّه ، ولا بس خيره ، ومارس شره (اليتيمة ٢/ ٢٤١) .

وكان الصاحب يتمنى انحياز الصابي اليه ، وقدمه الى حضرته ، ويضمن له الرغائب على ذلك ، اما تشوقا أو تفوقا — كما يقول الثعالبي — وكان أبو اسحاق يحتمل الخلّة وسوء أثر العطلّة ، ولا يتواضع للاتصال بجملة الصاحب بعد كونه من نظرائه وتحليه بالرياسة في أيامه . وكان الصاحب كثيرا ما يقول : كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو اسحاق الصابي ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفسه !

وأيا ما كان القول في المفاضلة بين الرجلين : الصاحب ، والصابي ، فان الصاحب كان يضمّر الودّ للصابي ويظهره ، وكان استدعاؤه له في أيام شدته ومحنته ثمرة لهذا الودّ الأكيد ، وبرّا به ، واعترافا بسابقته في الفضل والفن ، فهو ودّ خالص لوجه الأدب ، وبرّ خالص لوجه الله ، لا يريد الصاحب به جاها

ولا منزلة ، لأنه كان اذ ذاك صاحب الجاه والمنزلة . وكان الصابي
يقدر ودّ الصاحب ، وهذا شيء من أحد كتبه اليه « كتبت
— أطل الله بقاء الصاحب — هذا الكتاب ، وأنا أودّ أن سواد
عيني مداده ، وبياضها طرسه ، شوقا الى لألاء غرته ، وقرما^(١) الى
تقبيل أنامله ، وظمأ الى ارتشاف بساطه .. وما عسيت أن
أبلغ في شكر سيدنا وحمده ، على ما أهلنى له من برّ ورفده ،
وجهدى يقصر عن غفوه ، واسهابى يعجز عن وصفه ، وهل أنا في
ذلك لو فعلته الا كمن جارى الحصان بالأتان ، وواجه الغزالة^(٢)
بالذبالة ، وقارع الحسام بالعصا ، وبارى الدرّ بالحصى ؟^(٣) .

وحدث هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي قال : وكان
الصاحب أبو القاسم يراعى من ببغداد والحرمين من أهل الشرف ،
وشيوخ الكتاب والشعراء ، وأولاد الكتاب والزهاد والفقهاء ،
بما يحمله اليهم في كل سنة مع الحاج ، على مقاديرهم ومنازلهم ،
وكان يحمل الى أبى اسحاق ابراهيم بن هلال خمسمائة دينار ،
والى ألف درهم جبلية مع جعفر بن شعيب ، فأذكر وقد راسله
بعد وفاة عضد الدولة بالاستدعاء الى حضرته بالرى ، وبذل له
النفقة الواسعة ، والمعونة الشاسعة عند شخوصه ، والارغاب
والاكثار عند حضوره ، فكانت عثقله بالذيل الطويل والظهر

(١) القرم - بفتح تين - شدة شهوة اللحم .

(٢) الغزالة الشمس والذبالة الفتية .

(٣) يتيمة الدهر ٢٥٦/٢ .

الثقيل تمنعه من ترك موضعه ومفارقة موطنه ، فمما كتبه اليه
بالاعتذار عن التأخير :

نكصت على أعقابهن مطالبى وتقلدت منى القريجة بعد ما
وبكيت شرح شببتي فدفتها
ومنها :

فلو ان لى ذاك الجناح لطار بى حتى أقبل ظهر كفّ الصاحب
وأعيش فى سقيا سحائبه التى ضمنت سعادة كل جد خائب
وأراجع العادات حول قبابه حتى السواد من الشباب الذاهب
وأعدّ من جلساء حضرته التى شخت بكل مسائل ومجاوب
فيقول من ذا سائل عنى له مثبت فيقول هذا كاتبى
أترى أروم بهمتى ما فوق ذا أنى وخدمته أجلّ مراتبى
ومنها يعتذر عن عدم قدرته على الشخوص اليه :

كثرت عوائقى التى تعتاقنى من غيث راحته المثلث الساكب
ولد لهم ولد وبطن ثالث هو رابعى وعشيرتى وأقاربى
والسن تسع بعدها خمسون قد شامت بوارق يومها المتقارب
فالجسم يضعف عن تجشم راجل والحال يقصر عن ترفه راكب
وعلىّ للسلطان طاعة مالك كانت على المملوك ضربة لازب
وتعطلى مع شهرتى كتصرفى كل سواء فى الحساب الحاسب
وهى قصيدة طويلة .

قال هلال بن المحسن : فلما كانت سنة أربع وثمانين التى توفى

فيها جدّي أحسنّ بانقضاء مدته ، وحضور منيته ، فكتب الى
الصاحب كتابا يسأله فيه اقرار هذا الرسم المذكور على ولده ،
واجراؤه لهم من بعده ، وقرن الكتاب بقصيدة أولها :

تحذر منك النائبات فتحذر
وتذكر للخطب الجسيم فيصغر
وتكسى بك الدنيا ثياب جمالها
فيرجوك معروف ويخشاك منكر
يقول فيها :

أسيدنا ان المنية أعذرت (١)
الىّ بآيات تروع وتدعّر
لها نذر قد آذنتني بهجمة
على مورد ما عنه للمرء مصدر
واني لأستحلي مرارة طعمه
اذا كنت بالتقديم لى تتأخر
وحق لنفس كان منك معاشها
اذا غمضت عينا وعينك تنظّر
ومن ورث الأولاد بعد وفاته
حضانك طابت نفسه حين يقبر
تمرد منك الجود حتى تمردت
مطالبنا والمآجد الحسرى يصبر

(١) يقال أعذر الرجل أى أبدى عذرا

أأطلب منك الرغد عمري كله
وأطلبه والجنب مني معفر
وليست بأولى بدعة لك في الندي
لها موقف فيه لك الحمد ينشر
وهي أيضا قصيدة طويلة .

قال هلال بن المحسن : وأمرني بأن أنفذ ذلك فأنفذته ، وكتبت
عن نفسي كتابا في معناه ، ووصل ونفذ من يحمل الرسم على العادة .
ثم اتفق أن توفي الصاحب في أول سنة خمس وثمانين وثلثمائة ،
فوقف ، وكانت بين وفاتها شهر (١) ..

* * *

وهكذا كانت صلات الصاحب بسائر الحكام والوزراء
والكتاب صلات حب واحترام ، يعرف لهم حقهم ، ولا يقصّر في
إكرامهم ، وهم يعرفون له فضله ، ولا يبخسونه حقه . ولهذا عاش
ما عاش معظما مكرما من الصغير والكبير ، ومن القريب والبعيد ،
وبذلك استقام الملك ، وانتظم جبل الأمر ؛ حتى انتهى أجله فانتشر
ذلك العقد المنظوم بالحلم والعلم ، والنهي والأدب ، وأخذت
الدولة في الضعف والتفتت ، ودب فيها الضعف بعد شبيب
مزهدهر ، وقوة دافعة في وجه الأحداث والخطوب ، وقد تنبأ بهذا
بعض بني المنجم بعد وفاة الصاحب ، واسناد الوزارة الى أبي
العباس الضبي ، الذي لقب بالرئيس ، كما لقب بالجليل ، فقال :

(١) معجم الأدباء ٣٠٦/٦ .

والله والله لا أفلحتم أبسدا
بعد الوزير ابن عباد بن عباس

ان جاء منكم جليل فاجلبوا أجلى
أو جاء منكم رئيس فاقطعوا راسي
وأنشد أبو العباس العلوى الهمذاني في مراثيته للصاحب :
مات الموالى والمحب لأهل بيت أبى تراب
قد كان كالجبل المنيع لهم فصار مع التراب

* * *

وانتقلت الوزارة بعد موت صاحب الى أبى العباس أحمد بن
ابراهيم الضبى ، الذى وصف بأنه جذوة من نار صاحب أبى
القاسم ، ونهر من بحره ، وخليفته النائب منابه فى حياته ، القائم
مقامه بعد وفاته ، وكان صاحب استصحبه منذ الصبا ، وأدبه
بآدابه ، وقدمه بفضل الاختصاص على سائر صنائعه وندمائه (١) ،
وقال ياقوت : انتقلت الوزارة عنه الى أبى العباس أحمد بن
ابراهيم الضبى ، وأبى على الحسن بن أحمد بن حمولة ، والسياسة
التي قد سنها صاحب باقية ، وحشمة الوزارة ثابتة ، والأمور
على ما عهد فى أيامه جارية ، وكان لهما من الحشم والحاشية
والتجمل والزينة مثل ما كان له ، بل كانا فوقه فى الغنى والثروة ،
وان لم يلحقاه فى الفضل والمكرمة (٢) .

(١) يتيمة الدهر ٢٨٧/٣ .

(٢) معجم الأدباء ٢٤٩/٦ .

عروة صاحب

لم يعرف من آباء صاحب وأجداده الا خمسة هم : عباد ،
والعباس ، وعباد ، وأحمد ، وادريس — وفي بيتي السلامي
الشاعر ، اللذين هجا بهما صاحب ، نرى أن جد أبيه هو
« عبد الله » لا « عباد » — ثم ينقطع نسبه بعد ادريس
وأيا ما كان الأمر فإن أسماء هؤلاء الآباء الخمسة كلها أسماء
عربية من الأعلام التي تتردد كثيرا في أسماء العرب ، وليس من
بينها اسم أعجمي واحد .

وعرف كذلك أن صاحب قد ولد في « الطالقان » وهو اسم
لمدينتين احدهما بخراسان ، والأخرى من أعمال قزوين ، وأن
الصاحب من طالقان قزوين ، لا طالقان خراسان . وفي هذا الاقليم
كانت تسكن جماعات الديلم والجيل ، وقيل في نسبة صاحب
انه « ديلمى » والديلم التي نسب اليها الصاحبى ، كما نسب
اليها بنو بويه ، مختلف فيها ، ف قيل هم جنس من الأجnas ،
واختلف في أصل هذا الجنس ، فقال فريق انهم ينحدرون من
الفرس ، وذهب جماعة الى القول بأنهم من أصل عربى ، وقيل انهم
جنس مستقل لهم صفاتهم الخاصة التي جعلت لهم شخصية
مستقلة عن سائر الأجnas . فى حين أن بعض الكتّاب لم يعنوا
بأنساب هؤلاء الديلم ، كما فعل يا قوت اذ قال ان الديلم جيل
سمّوا بأرضهم ، وهم فى جبال قرب جيلان ، وذكر أن الديلم
أيضا ماء لبنى عبس ، وقيل بأرض اليمامة .

وقد ذكر (الديلم) القلقشندى فى أنساب العجم ، وهم من عدا العرب من الفرس والترک والروم وغيرهم — وقال ان الديلم هم الذين كان منهم ملوك بنى بويه الخارجين على خلفاء بنى العباس ببغداد . قال فى العبر : هم من بنى ماداي ، بن يافث ، ابن نوح . وقال ابن سعيد : من بنى باسل ، بن آشور ، بن سام ، ابن نوح . وقيل هم من العرب . وضعفه أبو عبيد (١) .

والذين ينسبونهم الى العرب يرفعونهم الى باسل بن ضبة ابن أد ، هذا ما يقال فى الديلميين جميعا ، وهذا ما يقال فى صاحب بن عباد ، وان كانت أسماء أولئك الأجداد الخمسة ، وهى أسماء أعلام عربية خالصة ، تختلف عن أكثر الأسماء الديلمية التى حملها أكثر الأسماء التى عرفها التاريخ العربى والتاريخ الاسلامى — أقول ان فى هذه الأسماء العربية الخالصة ما يدعو الى الميل الى ترجيح عروبه ، وهو ترجيح على أى حال لا يصل الى درجة اليقين الذى لا يكون الا بنص ثابت يوثق به ويطمأن اليه . ذلك من ناحية الأنساب التى لا يعلم حقائقها الا الله .

* * *

ولكن الحقيقة التى تستعصى على التردد هى أن صاحب كان عربيا بحسه ومشاعره ، وكان عربيا بعقله وتفكيره ، وكان عربيا بفنه وأدبه ، وكان عربيا بدينه وعقيدته ، وقد سبق أن قلنا (٢) ان العروبة طاقة من القوة والحياة استطاعت بحضارتها

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ١/٣٦٧ .

(٢) انظر مقدمة هذا الكتاب .

المتألقة وأمجادها السامقة في تاريخها المجيد أن تصهر أفاذا من
أبناء الأمم ومختلف الأجناس الذين وجدوا تحت لوائها عزا
ومنعة وصيانة لأنفسهم ، وتقديرا لأعمالهم ، فبدلوا لها من
عقولهم وقلوبهم وغيرتهم ما يعزّ على الاحصاء ، وما يستعصى على
النسيان ، فقد أعزتهم العروبة واعتزت بهم ، وضمتهم الى صفوة
أبنائها ، وصهرت من تلك العناصر النقية الدافعة سبيكة صافية
متألقة ، وجوهرة فريدة في جبين الزمان ، فأنسأهم ذلك الاعزاز
منابتهم الأولى وعناصرهم الغابرة ، وشاركوا في بناء نهضة وحضارة
تتحدى الزمن ، وتقف على قدميها في وجه الأحداث والعواصف
والمحن .

وتتجلى عروبة الصأب في كل ناحية من النواحي التي تكونت
بها شخصيته ، وقام عليها مجده ، ولذلك وجدناه دائما متعصبا
للأرب مدافعا عنهم ، متصديا لكل شعوبى يحاول انتقاصهم
أو النيل من أمجادهم ، وكان يقول انه لا يرى رجلا متعصبا
على الأرب الا وفيه عرق من المجوسية !

ومما يذكر دليلا على تعلق الصأب بعروبه ، وعلى بفضه
الشديد للشعوبية ما ذكره أأمد بن الأسين بديع الزمان الهمذاني
في قوله : كنت عند الصأب كافى الكفاة أبى القاسم اسماعيل
ابن عباد يوما اذ دخل عليه شاعر من العجم ، فأنشده قصيدة
يفضل بها قومه على الأرب ، وفيها يقول :

غنيانا بالطبول عن الطلول

وعن عنس عذافرة ذمول

فلست بتارك ايوان كسرى
 لتوضح أو لحومل فالدخول
 وضب في الفلا ساع وذئب
 بها يعوى وليث وسط غيل
 يسلون السيوف لرأس ضب
 حراشاً بالغداة وبالأصيل
 اذا ذبحوا فذلك يوم عيـد
 وان نحروا ففى عرس حليل
 بأية رتبة قدمتموها
 على ذى الفضل والرأى الأصيل ؟
 أما لو لم يكن للفرس الا
 نجار الصاحب القرم الجليل
 لكان لهم بذلك خير فخر
 وجيلهم بذلك خير جيل

فقد حاول ذلك الشاعر الشعبي أن يتملق الصاحب بهذا
 الشعر فينسبه الى الفرس ، مقدرا أنه سيغفر هذه الشعوية اذا
 اتصلت بمدحه ، ولكن الصاحب حين رآه قد وصل الى هذا
 الموضع مع انشاده هاج وغضب ، وقال له : قدك (١) ! ، وشرأب
 ينظر الى مجلسه وزواياه يبحث عن أبى الفضل بديع الزمان .
 قال بديع الزمان : وكنت جالسا فى زاوية فلم يرنى ، فقال :
 أين أبو الفضل ؟ فقمتم واقفا وقبلت الأرض ، وقلت : أمرك !

(١) قدك : حسبك .

فقال : أجب عن ثلاثتك ! فقلت : ما هي ؟ قال : أدبك ونسبك
ومذهبك ! فأقبلت على الشاعر ، وقلت : لا فسحة للقول ،
ولا راحة للطبع الا سردا كما تسمع ، وأنشدت :

أراك على شفا خطر مهـول
بما أودعت رأسك من فضول
تريد على مكارمنا دليـلا
متى احتاج النهار الى دليل ؟

ألسنا الضارين جزى عليكم
وكان الجزى أولى بالذليل ؟

متى قرع المنابر فارسي ؟
متى عرف الأعر من الحـجول

متى علقت وأنت بهـا زعيم
أكف الفرس أعراف الخيول

فخرت بملء ما ضغتيك فخرـا
على قحطان والبيت الأصـيل

وحقك أن تفاخرنا بكسرى
فما ثور ككسرى في الرعيـل

فخرت بأن ملبوسـا وأكـلا
وذلك فخر ربات الحـجول

تفاخرهن في خد أسـيل
وشعر في مفارقها رسيـل

وأنجد من أييك اذا أثرنا

عراة كالليوث على الخيول

قال بديع الزمان : فلما أتممت انشادي التفت الصاحب فقال
له : كيف رأيت ؟ فقال : لو سمعت به ما صدقت ! قال : فاذن
جائزتك جوازك ، ان رأيتك بعدها في مملكتي ضربت عنقك !
ثم قال : لا أرى أحدا يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق
من المجوسية !

وقد سمع الصاحب أن رجلا يتعصب للعجم على العرب ،
وينسب الى العرب أكل الحيات ، ويعيبها بذلك ، فردّ عليه
الصاحب هذا الردّ الموجه :

يا غائب الأعراب من جهله

لأكلها الحيات في الطعم

فالعجم طول الليل حياتهم

تنساب في الأخت وفي الأم

تلك بعض مظاهر اعتزاز الصاحب بالعروبة وبغضه للشعوبية

ودعاتها ، ولكن عروبه الكبرى في علمه وأدبه ، كما سيأتى :

الفصل الرابع
مرسم

أخلاق الصاحب

أخلاق الصاحب

لعل أوضح أخلاق الصاحب وأبرزها ذلك الخلق الذي أجمع عليه الذين عاشروه والذين اتصلوا به ، والذين رووا أخباره ، وهو خلق الترفع والاعتداد بالنفس ، وجدير بمن كان مثله في كرم المنبت والتربية والمنشأ ، ومن كان مثله في المنصب والجاه وتحصيل الثقافة الواسعة والتفرع في الفن والأدب أن يزدان بهذا الخلق ، وألا يستصغر نفسه إذا كان على الهمة ، فقد كان رفيعا في بيته ، رفيعا في علمه وأدبه ، رفيعا في جاهه ومنصبه ، فكان أبوه « الأمين » عالما ووزيرا ، ودرج الصاحب على بساط النعمة ، وما بالك بمن كانت تعطيه أمه كل يوم وهو ذاهب لتحصيل العلم ديناراً ودرهما هذا للنفقة وذاك للصدقة على أول فقير يلقاه ، فكان كما قال عن نفسه :

لست أستغنم الكثير فطبعي

قول «خذ» ليس مذهبي قول «هات»!

وما بالك بمن يصفه أستاذه أبو الفضل بن العميد بأنه

« سيد » ويخاطبه بقوله « مولاي » وان تعددت معاني « المولى »

فانه يذكرها في مقام التعظيم والتقدير ؟ !

وما بالك بمن يصرّ على الاعتذار أمام اصرار ركن الدولة على

أن يكون مؤدب ولده ، ومدربا له على شئون السياسة والتدبير ؟

وما بالك بمن يقال له انه لن يعترض على أى اقتراح يقترحه ،
أو أى شرط يشترطه من الأمير الكبير أو من وزيره الخطير ؟
لم يكن شئ من ذلك الا لما عرف عن صاحب من الترفع
والاباء ، مع ما وهب من سائر الأسباب التى تدعو الى اثاره
والحرص عليه .

ومن ثم عاش صاحب مبعّلاً معترفا بفضلته وعلمه وأدبه ،
مشهورة أمجاده وصنائه ، لأنه كان كما قال أبو سعيد الرستمي :

الصاحب العالى الصنائع صاحبى
فى النائبات وعدتى وعتادى
ورث الوزارة كابراً عن كابر
موصولة الاسناد بالاسناد

يروى عن العباس عباد وزا
رته واسماعيل عن عباد

شرف كعقد الدر واصل بعضه
بعضاً كأنيوب القنا المنسـاد

واذ قد عرف ذلك الخلق فيه ، وكان له أهلاً ، وبه جديراً ،
فان ذلك الخلق لم يزعج أحداً من سادته ومواليه ، بل كانوا يرون
مظاهر استعلائه ، فلا يرون فى ذلك غصاصة ، ولم يسمع عن واحد
منهم أنه كان ينكر على صاحب ما يراه فيه من كبرياء واعتداد
بالنفس ، فلم يكن الأمر أمر منصب يتولاه ، ويتولّى غيره منصباً
أرقى منه ، أو منصباً دونه ، فيتصاغر أمام من هو أعلى منه ويتضاءل ،
ثم يحلّ عقدته النفسية أمام من يصغرونه فى المنصب والوظيفة ،

كما هى شيمة شاغلى المناصب والوظائف ، الذين يقدر كل واحد على حسب درجته من الوظيفة والمنصب ، وينظر كل واحد منهم الى من هم فوقه والى من هم دونه على هذا الأساس ، ويقيسهم على حسب هذا القياس .

ولكن صاحب لم يكن كذلك ، بل كان هذا الاعتداد خلقا فيه ، وطبعا أصيلا من طبائعه المتميزة ، فهو كبير مع الصغار ، وكبير أيضا مع الكبار ، ولكنها الكبرياء المترفعة لا الكبرياء البغيضة المتعجرفة ، بل أننا لنراه فى كثير من المواقف يتلطف لمن هم دونه ، ويكبر من شأنهم ، ويعلى من نفوسهم ، واستطاع صاحب بذلك أن يجعل للأدب دولة ، وللأدباء مقاما ودولة .

* * *

ومن آيات هذا الاعتداد ما ذكر الوزير أبو سعد منصور بن الحسين الآبى فى تاريخه من جلالة قدر صاحب ، وعظم قدره فى النفوس أنه لما توفيت أم كافى الكفاة—الصاحب—بأصبهان ، وورد عليه الخبر ، فجلس للتغزية يوم الخميس للنصف من محرم سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، وركب اليه سلطانه وولى نعمته فخر الدولة بن ركن الدولة معزيا ، ونزل وجلس عنده طويلا يعزّيه ويسكن منه ، وبسط الكلام معه بالعربية ، وكان يفصح بها ، فسمعتة يقول حين أراد القيام : « أيها صاحب ، هذا جرح لا يندمل ! »

فأما سائر الأمراء والقواد ، مثل منوجهر بن قابوس ملك الجبل ، وفولاذ بن مانادر أحد ملوك الديلم ، وأبى العباس

الفيروزان بن خالد فخر الدولة ، وغيرهم من الأكابر والأمثال ، فانهم كانوا يحضرون حفاة حسراً .

وكان كل واحد منهم اذا وقعت عينه على الصاحب قبل الأرض ، ثم توالى بعد ذلك الى أن يقرب منه ، ويأمره بالجلوس فيجلس ، وما كان الصاحب يتحرك ولا يستوفز (١) لأحد ، بل كان جالسا على عادته في غير أيام التغذية .

فلما أراد القيام من المعزى بعد الثالث كان أول من أمر أن يقدم اليه اللكاء (٢) منوهر بن قابوس ، فانه قال : يحمل الى أبى منصور ما يلبسه ، فقدم اليه ، ومنع الخروج من الدار حافيا . ثم قدّم الحجاب والحاشية اللكاوات الى الجماعة ، فعتب فولاذ ابن مانادر والفولاذ دريدية عليه ذلك ، وقالوا ميّز منوهر من بين الجماعة ، فاحتج الصاحب بيته العظيم ، ورياسته القديمة (٣) .. وخطب كافى الكفاة ابنة أبى الفضل الداعى لسبطه (٤) عباد ابن الحسين ، ووقع الاملاك (٥) فى داره يوم الخميس لأربع خلون من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، وكان يوما عظيما احتفل فيه كافى الكفاة ، ونثر من الدنانير والدراهم شيئا كثيرا ، ولذلك أنفذ له فخر الدولة على يدى حجّابه الكبار

(١) استوفز فى قعدته اذا قعد قعودا منتصبا غير مطمئن .

(٢) اللكاء جلد مصبوغ سمي به الخف .

(٣) معجم الأدباء ٦/ ٢٣٩ .

(٤) السبط واحد الأسباط ، وهم ولد الولد ، وعباد ابن بنت الصاحب .

(٥) الأملاك : التزويج .

الى هناك من النّشار (١) ما زاد على مائة طبق عينا وورقا (٢) ،
وحضر الفولاذ دريدية بأسرهم ، فإن الابنة المزوجة كانت ابنة
ديكونة بنت الحسن بن الفيروزان خالة فخر الدولة ، وكان القوم
أخوالها ..

وقد أضافهم الصاحب ، ونصبت مائدة عظيمة في بيت طوله
يزيد على خمسين ذراعا ، وكانت بطول البيت ، وأجلس عليه ستة
أنفس . وكان فولاذ بن مانادر وكبتات بن بلقسم في الصدر ،
وبجنب فولاذ أبو جعفر بن الثائر العلوي ، وبجنبه الآخر أبو القاسم
ابن القاضي العلوي ، ودون أحد العلويين كاكي بن يشكرزاد ،
ودون الآخر مرداويج الكلاري . ووقف أبو العباس الفيروزان
وعبد الملك بن ماكان للخدمة . ووقف كافي الكفاة أيضا ساعة ،
ووقف جميع أكابر الكتاب والحجاب مثل الرئيس أبي العباس
أحمد بن ابراهيم الضبي ، وأبي الحسين العارض ، وأخيه أبي على
وابنه أبي الفضل ، وأبي عمران الحاجب ، وغيرهم ، الى أن فرغ
القوم من الأكل ، ثم أكل هؤلاء مع الصاحب على مائدة مفردة .
وأما قاضي القضاة والأشراف والعدول فانهم أطمعوا على مائدة
أخرى في بيت آخر .

* * *

وقد كان يحضر الى دار الصاحب أعيان الدولة وأبناء الملوك
والأمراء والقواد ، وسائر من ساواهم من الزعماء والكبار ، مثل

- (١) النّشار بالكسر اسم لما ينثر ، وهو هنا الدنانير والدراهم .
(٢) العين الدينار ، أو المال . والورق الدراهم المضروبة .

أولاد مؤيد الدولة ، وابن عز الدولة ، ومنوهر بن قابوس بن
وشمكير ، وأبى الحجاج بن ظهير الدولة ، وأسفهيد بن أسفار ،
وحسن بن وشمكير ، وفولاذ بن مانادر ، ونصر بن الحسن بن
الفيروزان ، وأبى العباس الفيروزان بن الحسن الفيروزان ، وكبات
ابن بلقسم بن الفيروزان ، وحيدر بن وهسودان ، وكبخسرو بن
المرزبان بن السلار ، وجستان بن نوح بن وهسودان ، وشيرزيل
ابن سلار بن شيرزيل ؛ وكان فى يد كل واحد من هؤلاء من
الاقطاع ما يبلغ ارتفاعه خمسين ألف دينار وما دونها الى عشرين
ألف دينار ، ومن أكابر القواد ما يطول تعدادهم .. كانوا يحضرون
باب داره ، فيقفون على دوابهم مطرقين ، لا يتكلم واحد منهم
هية واعظاما لموضعه ، الى أن يخرج أحد خلفاء حجابه ، فيأذن
لبعض أكابرهم ، ويصرفهم جملة ، فكان من يؤذن له فى الدخول
يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحا ومسرّة
وشرفا وتعظيما ! .

فاذا حصل فى الدار ، وأذن له فى الدخول الى مجلسه قبل
الأرض عند وقوع بصره على الصاحب ثلاث مرّات أو أربعاً ،
الى أن يقرب منه ، فيجلس من كانت رتبته الجلوس الى أن يقضى
كلّ واحد منهم وطره من خدمته ، ثم ينصرف بعد أن يقبّل
الأرض أيضاً مرارا ..

ولم يكن الصاحب يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير الى القيام ،
ولا يطعم منه أحد فى ذلك (١) .

(١) معجم الأدباء ٢٤٦/٦ .

وبلغت هيبة صاحب في الصدور ، ومخافته في القلوب ، وحشمته عند الصغير والكبير ، والبعيد والقريب ، الى درجة أن كان صاحبه فخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريد به بسببه ، ويمسك عما تشره اليه نفسه لمكانه . وقد ظهر ذلك للناس بعد موت صاحب ، وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته ، فعلم أنه كان يزم نفسه ^(١) لحشمته .. ثم كان يحله محل الوالد اكراما واعظاما ، ويخاطب بالصاحب شفاهها وكتابا ..

فأما أكابر الدولة فكان الواحد منهم اذا رأى أحد حجابيه ، بل أحد الأصاغر من حاشيته فان فرائضه ^(٢) كانت ترتعد ، وجوانحه كانت تصطفق ^(٣) ، الى أن يعلم ما يريد منه ، ويخاطبه به ...

وقد تظلمت الى صاحب امرأة من أحد أصحاب فولاذ بن مانادر ، وذكرت أنه ينازعها في حق لها ، فما زاد صاحب على أن التفت الى فولاذ ، وكان في موكبه يسير خلفه ، فبهت وتحيّر ، وارتعد ووقف ، ولم يبرح الى أن سار كافي الكفاة ، ثم أرسل الى المرأة من أرضها ، وأزال ظلامتها ، ومثل هذا كثير يطول الكتاب ببعضه ، فكيف يتسع لكـله ^(٤) ؟

وروى ياقوت عن أبي نصر بن خواشادة أنه قال : ما غبظت

-
- (١) أى يمنع نفسه من الانبساط ، يقال زم البعير أى خطمه .
 (٢) الفرائض جمع فريضة ، وهى لحمية بين الجنب والكف ، أو عصب الرقبة وعروقها ، لأنها هى التى تثور فى الغضب .
 (٣) اصطفقت جوانحه اهتزت واضطربت .
 (٤) معجم الادباء ٢٤٨/٦ .

أحدا على منزلة كما غبطت صاحب أبا القاسم بن عباد ، فانا كنا مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية ، فدخل صاحب الى داره فى البلد آخر نهار يوم لحضور المجلس الذى يعقده لأهل العلم ، وتحت دابة رهواء ^(١) ، وقد أرسل عنانه ، فرأيت وجوه الديلم وأكابرهم من أولاد الأمراء يعدون بين يديه ، كما تعدو الركابية ^(٢) . وكان عضد الدولة اذا خاطب صاحب فى مجلس يحضره غيره لا يشرك مع صاحب فيه أحدا ^(٣) . وكان صاحب لا يستأذن على فخر الدولة وهو فى مجلس الأنس والانبساط الا انتقل الى مجلس الحشمة ، فيأذن له فيه . قال صاحب : ما أذكر أنه — فخر الدولة — تبدل بين يديّ وما زحني قط الا مرة واحدة ، فانه قال لى فى شجون الحديث : بلغنى أنك تقول : « المذهب الاعتزال ، و الرجال » ^(٤) ! فأظهرت الكراهة لانبساطه ، وقلت : بنا من الجد ما لا نفرغ معه للهزل ، ونهضت كالمغاضب ، فما زال يعتذر الى مراسله ، حتى عاودت مجلسه ، ولم يعد بعدها لما يجرى مجرى الهزل ^(٥) ..

مع العلماء والزهاد

تلك هى شخصية صاحب المتماسكة ، وخلقه المحكم أمام الأقوياء الذين قد يتناولون بمناصبهم ، أو يشمخون بأنوفهم ،

(١) دابة رهواء : تسير سيرا على مهل .

(٢) أى السائرون فى الركب . (٣) معجم الأدباء ٢٨٠/٦

(٤) موضع النقط كلمتان نايتان .

(٥) يتيمة الدهر ١٩٩/٣ .

أو يتيهون بآبائهم وأجدادهم أو أعراقهم الموروثة ، ولكن
الصاحب كان غير ذلك ، أو بعبارة أخرى كان انسانا آخر مع غير
هذه الطبقة من طبقات المجتمع ، انك تراه انسانا وديعا متواضعا
مع أهل العلم والأدب ، يحوطهم بلطفه ، ويرعاهم ببرّه ، وكان
هذه الطبقة هى طبقته الأصلية ، ومعدنه الجيد الذى يعترز
بالانتساب اليه ، ويرى أنه اذ يكرمهم انما يكرم نفسه ، لأنه
يكرم علمه وثقافته وأصله الذى ينتمى اليه ، ويستمد منه القوة
والحياة ..

أو لعل الصاحب كان حريصا على أن تكون صورته صورة
الرجل المتجمل المتفضل ، لا صورة الطالب المتوسل ، فهو يتواضع
مختارا ، ويتيه ويشمخ بأنفه اذا أراد . قال الثعالبي ان الصاحب
لم يكن يقوم لأحد ، ولا يشير الى القيام ، ولم يكن يطمع منه
أحد فى ذلك كائنا من كان !

ولكن الصاحب كان يعرف متى يقوم ولمن يقوم ، انه يقوم
للفقراء والزهاد الذين يعرف صلتهم بالله ، كما روى أنه نزل
بالصيمرة ^(١) عند عودة من الأهواز ، فدخل عليه شيخ من زهاد
المعتزلة يعرف بعبد الله بن اسحاق ، فقام له ، فلما خرج التفت
كافى الكفاة الى من حوله ، ثم قال : « ما قمت لأحد مثل هذا
القيام منذ عشرين سنة » . وانما فعل ذلك به لزهده ، فانه كان

(١) الصيمرة - بفتح فسكون - بلدة بين ديار الجبل وديار
خوزستان (الأهواز) .

أحد أبدال (١) دهره .. لمثل هذا الرجل من الفقراء الزهاد ،
لا يستتكفى الصاحب عن القيام ، اجلالا له واكبارا ..

ولكن قصة الصاحب مع أبى أحمد العسكرى تشرح لنا
موقفه من العلماء ، واكباره اياهم ، فقد كان أبو أحمد الحسن
ابن عبد الله بن سعيد العسكرى من رجال اللغة الأعلام ، ومن
الأئمة المذكورين بالتصرف فى أنواع الفنون ، ومن المشهورين
بجودة التأليف وحسن التصنيف ، ومن جملة تأليفه : كتاب
صناعة الشعر ، وكتاب الحكم والأمثال ، وكتاب راحة الأرواح ،
وكتاب الزواجر والمواعظ ، وكتاب تصحيح الوجوه والنظائر .
وكان قد سمع ببغداد والبصرة وأصبهان وغيرها من شيوخه
الكبار ، وعاش حتى علا به السن ، واشتهر فى الآفاق بالدراية
والاتقان ، وانتهت اليه رياسة التحديث والاملاء للآداب بقطر
خوزستان ، ورحل اليه الأجلاء للأخذ عنه والقراءة عليه ..

وكان الصاحب بن عباد يثنى لقاء أبى أحمد العسكرى ،
ويكاتبه على ممر الأوقات ، ويستميل قلبه ، فيعتل عليه بالشيخوخة
والكبر ، اذ عرف أنه يعرض بالقصد اليه ، والوفود عليه .

فلما يئس الصاحب من شخوص أبى أحمد اليه احتال فى
جذب السلطان الى ذلك الصوب بأن قال له ان «عسكر مكرم» (٢)

(١) الأبدال : الصالحون والأولياء ، سمووا بذلك كما يقال لأنه
كلما مات منهم واحد أبدال به آخر ، يعتقد هذا طائفة من المتصوفة .
(٢) بلد باقليم خوزستان الذى يسميه العرب الأهواز ، واليه
ينسب أبو أحمد هذا ، وكذلك الأديب الكبير أبو هلال العسكرى
صاحب كتاب « الصناعتين » وكانت بينهما قرابة .

قد اختلت أحوالها وأحتاج الى كشفها بنفسى ، فلما قرب الصاحب
من عسكر مكرم كتب الى أبى أحمد كتابا يتضمن نظما ونثرا .
وكان مما ضمنه من المنظوم قوله :

ولما أيتتم أن تزوروا وقلتم

ضعفنا فما تقوى على الوخدان (١)

أتيناكم من بعد أرض نزوركم

وكم منزل بكر لنا وعوان (٢)

نسألكم : هل من قرى لنزيلكم ؟

بملء جفون لا بملء جفان

فلما قرأ أبو أحمد الكتاب أقعد تلميذا له فأملى عليه الجواب

عن النثر نثرا ، وعن النظم نظما ، وبعث به اليه فى الحال . وكان
فى آخر جواب أبياته :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتى

تعود أعضائى من الرجفان

فضمنت بيت ابن الشريد (٣) كأنما

تعمد تشييهى به وعناني

(١) الوخدان السرعة فى السير ، أو سعة الخطو .

(٢) يريد الصاحب أنه على كثرة ماله من المنازل التى يجلبها
قديمها وجديدها أينما سار أثر زيارة العسكرى من أرض بعيدة .

(٣) هو صخر بن عمرو من بنى الشريد بطن من سليم ، وهو
أخو الخنساء ، والبيت الثالث من أبيات قالها صخر فى زوجه وقد
ملت منه لطول مرضه .

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه

وقد حيل بين العير والنزوان (١)

وقد استحسنه صاحب ووقع منه موقعا عظيما ، وقال :
لو عرفت أن هذا المصراع يقع في هذه القافية لم أتعرض لها ،
وكنت قد ذهلت عنه ، وذهب عليّ ! .

ثم ان أبا أحمد قصده وقت خلوله بعسكر مكرم بلده ، ومعه
أعيان أصحابه وتلامذته في ساعة لا يمكن الوصول اليه فيها
الا لمثله . وأقبل عليه صاحب بعد أن أقعده في أرفع موضع من
مجلسه ، وتفاوضا في مسائل من العلم ، فزادت منزلته عنده ،
وأخذ أبو أحمد من صاحب بالحظ الأوفر ، وأدرّ صاحب على
المتصلين بأبي أحمد ادرارا كانوا يأخذونه الى أن توفي ، وبعد
وفاته أيضا ..

ولما مات أبو أحمد ، ونعى الى صاحب أنشد فيه :

قالوا : مضى الشيخ أبو أحمد

وقد رثوه بضروب الشدب

فقلت : ما من فقد شيخ مضى

لكنه فقد فنون الأدب (٢)

وقد روى هذه القصة شاهد عيان هو أبو الحسن على

(١) العير : الحمار الوحشي والأهلى أيضا ، والنزوان : مصدر

نزائزو ، أى وثب ..

(٢) يريد أنهم ما ندبوه لأنه مات ، ولكن لأن فنون الادب ماتت

بموته . وانظر معجم الأدباء ٢٥١/٨ .

ابن المظفر البندينجي (١) قال : كنت أقرأ بالبصرة على الشيوخ ، فلما دخلت سنة تسع وسبعين وثلثمائة الى الأهواز ، بلغني حال أبي أحمد العسكري ، فقصدته وقرأت عليه ، فوصل فخر الدولة والصاحب بن عباد ، فبينما نحن جلوس تقرأ عليه وصل اليه ركبائي ومعه رقعة ففضها وقرأها وكتب على ظهرها جوابها ، فقلت : أيها الشيخ ؛ ما هذه الرقعة ؟ فقال : رقعة الصاحب ، كتب اليّ : ولما أيتتم أن تزوروا وقلتم ضعفنا فما نقوى على الوخدان الأبيات الثلاثة المتقدمة .. قلت : فما كتبت اليه في الجواب ؟ قال : قلت : « أروم نهوضا .. » الأبيات الثلاثة المتقدمة ..

قال : ثم نهض أبو أحمد وقال : لا بد من الحمل على النفس (٢) ، فان الصاحب لا يقنعه هذا ، وركب بغلة وقصده ، فلم يتمكن من الوصول الى الصاحب لاستيلاء الحشم ، فصعد تلعة (٣) ، ورفع صوته بقول أبي تمام :

مالى أرى القبة الفيحاء (٤) مقفلة

دونى وقد طال ما استفتحت مقفلها

كأنها جنة الفردوس معرضة

وليس لى عمل زاك فأدخلها

قال : فناده الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة

(١) نسبة الى « البنديجين » وهى بلدة فى أطراف النهروان من ناحية الجبل كانت من أعمال بغداد .

(٢) يريد تكليف نفسه مشقة السعى اليه مع ضعفه فكانه حمل نفسه مالا طاقة لها به .

(٣) التلعة : القطعة المرتفعة من الأرض .

(٤) الفيحاء : الواسعة .

الأولى . فتبادر إليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه . فسأله عن مسألة فقال أبو أحمد : « الخير صادفت » فقال صاحب : يا أبا أحمد ، تغرب في كل شيء حتى في المثل السائر ؟ فقال : تفاءلت عن السقوط بحضرة مولانا ، وانما كلام العرب « سقطت » (١) ..

وتلك إحدى صور اكبار العلم وتقدير رجاله ، وهى صورة رفيعة بعيدة المنال ، لا ينهض بها الا العارفون الذين يقدرّون أصحاب الشرف الحقيقي ، شرف الانتساب الى المعرفة . وكأن صاحب أراد أن يضرب المثل فيما ينبغى أن يعامل به أهل العلم ، أو ما يجب أهل العلم أن يكون لهم من التقدير بما يبذلون فى سبيل الوصول الى أقصى غايات الانسان الفاضل ، وهى المعرفة ، أو لعلّه قرأ أبيات صديقه القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني تلك الأبيات الخالدة التى تنكر على بعض من ينتسبون الى العلم اذلال أنفسهم ، وامتهان عقولهم فى سبيل الزلفى الى الحكم لينالوا بها غرضا من أغراض الدنيا وأعراضها الزائلة ، وفى هذه الأبيات يقول القاضى الجرجاني (٢) :

يقولون لى فيك انقباض وانما
 رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
 وما زلت منحازا بعرضى جانبا
 من الذم أعتدّ الصيانة مغنما

(١) معجم الأدباء ٢٥٥/٨ .

(٢) يتيمة الدهر ٢٣/٤ وياقوت ١٨ / ١٤ .

اذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
 ولكن نفس الحر تحتمل الظما
 وما كل برق لاح لى يستفزنى
 ولا كل أهل الأرض أرضاه منعا
 ولم أقض حق العلم ان كان كلما
 بدا طمع صيرته لى سلما
 ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى
 لأخدم من لا قيت لكن لأخدما
 أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ؟
 اذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

فأراد الصاحب أن يكرم فى العلماء علمهم ، وأن يقضى هو
 عنهم حق العلم ، ولم يدعمهم يهينون أنفسهم بالسعى اليه ، ولكنه
 كلف السعى اليهم ، مع كثرة أعماله ووفرة شواغله ، وأراهم
 أن شقاءهم فى تحصيل العلم ليست تتيجه الذلة ، وأن « اتباع
 الجهل » أو « اتباع الجهل » ليس هو الأحزم !

* * *

ومن الدلائل على ذلك أن الصاحب كان يفضى بسبب العلم
 واكرام العلماء عن كثير مما لا يرضى ، أن قاضى القضاة « عبد الجبار
 ابن أحمد الأسد أباذى » وكان الصاحب قد فوض اليه قضاء
 همذان والجبالي ، ذلك القاضى عبد الجبار استقبل الصاحب
 يوما ، وكان راكبا دابته فلم ينزل عنها ، ولم يترجل للصاحب ،

واعتذر عن ذلك بقوله « أيها الصاحب ، أريد أن أترجل للخدمة ، ولكن العلم يأبى ذلك » ! ولم يغضب الصاحب من قاضيه ، وغفر له ، بل غفر للعلم ما لم يكن يرضاه من أحد ، وهو الذى كان أبناء الأمراء يسعون بين يديه ، ويفسحون لدابته الطريق ..

ومما يتصل بالقاضى عبد الجبار أنه كان يكتب فى عنوان كتبه التى يرسلها الى الصاحب : « الى الصاحب : داعيه ، عبد الجبار بن أحمد » ثم كان يكتب بعد ذلك « وليّ عبد الجبار ابن أحمد » ثم كتب بعد ذلك « عبد الجبار بن أحمد » ..

ولكن الصاحب بدقة فهمه وقوة ملاحظته لتدرج القاضى فى الاستعلاء يرسلها طرفة ممتعة فى تهكم رائع ، وفى ايجاز بليغ فى التعليق على هذا التدرج فى الاستعلاء ، وذلك فى قوله : أظنه يئول أمره الى أن يكتب « الجبار » !!

وأبو حيان التوحيدي مع كراهته للصاحب وحقده عليه يقول ان ابن عباد كان يقول للانسان من أهل العلم اذا قدم عليه : « يا أخى ، تكلم واستأنس ، واقترح وانبسط .. ولا يرعك ما ترى من الحشم والخدم .. فان سلطان العلم فوق سلطان الولاية ، فليفرخ روعك ، ولينعم بالك ، وقل ما شئت ، وأبصر ما أردت ، فلست تجد عندنا الا الانصاف والاسعاف ، والاتحاف والاطراف » .. وان كان هدف أبى حيان هو النيل من الصاحب ووصفه بأنه كان يتكلف السجع ، فكان هذا الثناء الذى لم يكن يقصده « والفضل ما شهدت به الأعداء » !

وفاء الصاحب

ومن أخلاق الصاحب الممتازة وفضائله المذكورة خلق الوفاء لكل من منحه ثقته واطمأن اليه ، وقد رأينا فيما مضى صورا رفيعة لهذا الوفاء النادر الذي كان احدى الفضائل النادرة في عصر كثر فيه الغدر بالأولياء ، والخيانة لأرباب الثقة ..

ومن هذه الصور وفاؤه لأستاذه أبى الفضل بن العميد من لزوم طاعته وامتنال أمره ، حتى فيما كان يأباه ، فكان الصاحب يصرّ على الاعتذار من عدم قيامه بخدمة مؤيد الدولة أمام الأمير ركن الدولة ، ولكنه لم يستطع وفاء لأستاذه أبى الفضل وقياما بحق أساتذته أن يصر على اعتذاره واستعفائه ..

ومن هذه الصور وفاؤه لمؤيد الدولة الذى كان عهده بفضل الصاحب عهد الأمن واستقرار الملك وتوطيد أركان الدولة ، ثم وفاؤه لأخيه فخر الدولة حتى آخر أنفاسه ، وكان وفاؤه لآل بويه بالعمل الدائب ، والخدمة المتصلة ، وكأنه المنوط برفع رأيتهم ، وتثبيت أمجادهم ..

ويتخذ هذا الوفاء مظهرا آخر ، هو النصح الخالص لهم الذى لا يسديه الانسان الا الى أخص خاصته الذين ينشد لهم مجد الدنيا وفوز الآخرة ، فقد رأينا نصحه لمؤيد الدولة قبيل وفاته بأن يرد المظالم ، ويعيد الأموال التى يشك فى حلتها الى أصحابها ، ان كان يعرفهم أو يوزعها فى الفقراء ، ثم نصحه لفخر الدولة فى وقعة الأهواز الذى لم يأخذ به ، فخسر المعركة وتبدد أمله فى الوصول الى بغداد .

ثم يبدو هذا الوفاء لآل بويه ، ويبلغ ذروته حينما أنفذ اليه أبو العباس تاش الحاجب رقعة في السرّ بخط صاحبه نوح بن منصور الساماني ملك خراسان ، يريد به فيها الى الانحياز الى حضرة ، ليلقى اليه مقاليد مملكته ، ويعتمده في وزارته ، ويحكمه في ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به من تركه امتثال أمره والصد عن رأيه « كيف يحسن لي مفارقة قوم بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى .. » ! ؟

أرأيت مثل هذا حفاظا على العهد ، واعترافا بالجميل ؟ ولا يقتصر وفاء صاحب على أولياء نعمته من آل بويه ، بل انه ليتجاوز به الى كل من أخلص له الودّ وأصفى له الوفاء كالقاضي أبي الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني الذي تعهده صاحب بعد أن عرف ما عنده من العلم والأدب ومكارم الأخلاق ، فان صاحب كان يوفر له من أسباب الأمن والراحة ما يستطيع ، ومن أمثلة ذلك أن يكتب صاحب الى حسام الدولة أبي العباس تاش الحاجب ليوفر أسباب الأمن والرعاية الكريمة للقاضي حينما حنّ الى زيارة بلده جرجان ، وفي رسالته يقول « قد تقدم وصفى للقاضي أبي الحسن على بن عبد العزيز — أدام الله تعالى عزّه — فيما سبق الى حضرة الأمير الجليل صاحب الجيش — أدام الله تعالى علوّه — من كتبى ما أعلم أنى لم أؤد فيه بعض الحق ، وان كنت دللته على جملة تنطق بلسان الفضل ، وتكشف عن أنه من أفراد الدهر فى كل قسم من أقسام الأدب والعلم . فأما موقعه منى فالموقع الذى تخطبه هذه المحاسن ، وتوجهه هذه المناقب ،

وعادته معى ألا يفارقنى مقيما وظاعنا ، ومسافرا وقاطنا . واحتاج الآن الى مطالعة جرجان ، بعد أن شرطت عليه تصيير المقام كالامام ، فطالبنى مكاتبتى بتعريف الأمير مصدره ومورده ، فان عنّ لى ما يحتاج الى عرضه وجد من شرف اسعافه ما هو المعتاد ليستعجل انكفائه الىّ بما يرسم — أدام الله أيامه — من مظاهرتة على ما يقدم الرحيل ويفسح السبيل من بدرقة^(١) ان احتاج اليها والى الاستظهار بها ، ومخاطبة لبعض من فى الطريق بتصرف النجح فيها . فان رأى الأمير أن يجعل من حظوظى الجسيمة عنده تعهد القاضى أبى الحسن بما يعجل ردّه ، فانى ما غاب كالمضل الناشد ، واذا عاد كالغانم الواجد ، فعل ان شاء الله تعالى .

تلك بعض الصور التى تتم عما طبع عليه الصاحب من فضيلة الوفاء لمن هم فوقه ولمن هم دونه ، من الذين وثق بكفائتهم ومودّتهم .. وهى صور قليلة أوردناها على سبيل التمثيل والاستشهاد ، لا على سبيل الحصر والاستقصاء ..

ولم يكن الصاحب وفيّا للرجال الذين توجب عليه أفضالهم الوفاء لهم فحسب ، ولكنه كان وفيّا أكثر من ذلك لعمله وواجبه ، وهو فى هذا المقام الخطير يدبر سياسة دولة ، فقد كان يتخلى عنه أحيانا ما طبع عليه من الرفق والمسامحة فى سبيل دعم سلطان الدولة وتثبيت دعائمها ، فكان لا يلين للخارجين عليها ، ولا يرقّ قلبه لهم مهما تضرّعوا له ، وكأنّه كان يرى فى نصرتهم فى أحوال

(١) البدرقة : الخفارة أو الجماعة تتقدم القافلة لحراستها .
والمبدرق : الخفير .

ضعفهم تشجيعا للثائرين اذا أمكنتهم الفرصة .. فقد كان نصر بن الحسن بن الفيروزان ، وهو خال فخر الدولة ، قليل المبالاة ، قد استعصى على فخر الدولة ، واقتطع قطعة من بلاده وتغلب عليها ، واحتال على جماعة من عساكره ، فقتلهم بأنواع القتل ، الى أن تكاثرت عساكر فخر الدولة فكسرتة ، وشتتت جموعه ، وهرب نحو خراسان ، حتى صار الى أسفرايين ، ثم بدا له أن سلك طريق المنافسة فيها ، حتى ورد الري ليلة الجمعة لست بقين من شوال سنة ٣٨٤ هـ ، وقصد في الليل باب كافى الكفاة مستجيرا به ، ومستعظما له ، فلم يرق له ، ورد الى دار بعض حجاب فخر الدولة ، فحبس فيها .

وتقل ياقوت عن الوزير أبى سعد قوله : وكنت فى هذه الليلة بحضرة كافى الكفاة ، فأتاه الحاجب ، وقد مضى هزيع من الليل ، فأخبره بوقوف نصر بن الحسن بن الفيروزان على الباب خاشعا متضرعا . فرأيت أنه قد تحير فى الأمر ساعة ، ثم راسله بأن السلطان الأعظم « يعنى فخر الدولة » ساخط عليك ، ولا يجوز لى أن آذن لك فى دخول دارى الا بعد أن ترضاه ، وتستعطف قلبه ، فان عفا عنك ورجع لك فالدار بين يديك وأنا معين لك . فعاد الحاجب اليه بذلك ، ورجع فقال : انه امتنع من العود ، وقال « انما جئت الى الصاحب لائذا به ، ومنقطعا اليه ، ولا أعرف غيره ، وأنا أحتاج أن يدبر أمرى ، ويجيرنى ويحامى على » ، وينب عنى .

قال الوزير أبو سعد : فرأيت الصاحب وقد مال رأيه بين

أحدى خصلتين : أما أن يستمر على المنع ولا يأذن له ، وأما أن يأذن له ويجعل داره بما فيها من الخزائن له ، وينتقل هو الى دار كانت لحاجبه الراوندى وكان قد أضافها بعد موت هذا الحاجب الى داره .

ثم قر رأيه على صرفه . واستمر نصر على الالاحاح فى الخضوع والاجتهاد أن يأذن له فى الدخول ، وانتقل من الباب الكبير الى باب الخاصة ، وسأل واجتهد الى أن جاءه من قبل فخر الدولة « علوسة الحاجب » وحبسه .

وكان هذا الفعل من الصاحب مستهجنًا ، يعجب الناس منه ، وتحدثوا به واستبحوه ، مع ما أظهره نصر من الاستكانة والاستجارة به (١) !

ولست أرى فى موقف الصاحب ما يدعو الى التعجب أو الاستهجان ، فالأمر هنا أكبر من أن يكون أمر استجارة أو استكانة تقبل أو ترفض ، ولكنها سياسة دولة مع الذين تحدثهم أنفسهم بالخروج عليها اذا وجدوا فرصة متاحة ، وهذا رجل لم يخرج فقط ، ولكنه حارب بالسلاح والجند ، وقتل الناس تفتيلا ، فكيف يجيره الصاحب ضد مولاه فخر الدولة ، لا بل ضد الدولة وهيبته أمام قوم كلهم أهل ثورة وخروج وقتال . فكيف يؤوى الصاحب ، وهو حارس الدولة ، خارجا على هذه الدولة يقطع أرضها ، ويسفك دماء جنودها ؟

ولو كان الأمر أمر استعاذة أو استجارة لكان هناك صاحب

(١) معجم الأدباء ٦/٢٤٤ .

الحق الأول ، وهو فخر الدولة ، وهو ابن أخت هذا الثائر العائد ، وأمام نصر من أهل الشفاعة والاجارة من هم أحق من صاحب بالاعادة والاجارة .

بل ان المسألة في نظري لا تدعو الى التعجب ولا الى الاستهجان ، بل هي تدعو الى الاعجاب والاكبار بالصاحب ، وحسب صاحب أنه لم يقتله أو يجسه ، وهو المسئول الأول عن تأمين الدولة ، وأنه رسم لنصر سبيل الأمن ، وهو اللجوء الى ابن أخته فخر الدولة الذي سماه صاحب « السلطان الأعظم » .
فهذا كما رأيت كان وفاء للدولة التي ألفت اليه مقادها ، وللرجال الذين منحوه ثقتهم ، وكان صاحب يستطيع أن يكتسب مجدا رخيصة سريعا ، يعقبه فساد الحكم ، وانتقاض جبل الأمن ؛ فكان هذا من الصاحب وفاء ، وان بدا في نظر بعض الناس خيانة وغدرا ..

وهكذا تمكن خلق الوفاء من قلب صاحب لكل ما عرف وألف ، حتى المواطن التي اتجعها ، وتركت في نفسه أثرا لا ينساه ، كما روى أنه لما افتتح جرجان وشاهد طبرستان تذكر أصفهان فأنشد هذه الأبيات :

يا أصفهان سقيت الغيث من كذب
فأنت مجمع أوطاري وأوطاني
والله والله لا أنسيت برك بي
ولو تمكنت من أقصى خراسان

سقى لإيماننا والشمل مجتمع
والدهر ما خائنى فى قرب اخوانى
ذكرت ديمرت اذ طال الثواء بها
يا بعد ديمرت من أبواب جرجان (١)

* * *

ولقد نعت الصاحب أبو حيان التوحيدى بنعوت كثيرة تدل
على مبلغ حقه على الصاحب ، وعوامل هذا الحقد كثيرة سنعرض
لها ، وقد حاول فيها أن ينال من عظمة الصاحب ، فقال فيه كلاما
كثيرا لم يقله واحد غيره من الذين عرفوا الصاحب واتصلوا به
وعاشروه ؛ وكان مما قال عن الصاحب فى كتابه « الامتاع
والمؤانسة » : انه « لا يرجع الى الرقة والرأفة والرحمة ، والناس
كلهم محجمون عنه ، لجرأته وسلاطته ، واقتداره وبسطته ، شديد
العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان ، يعطى
كثيرا قليلا — أعنى يعطى الكثير القليل ، مغلوب بحرارة الرأس ،
سريع الغضب ، بعيد الفيئة (٢) ، قريب الطيرة ، حسود حقود
حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار الى أهل
الكفاية ، أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته ،
وأما المنتجعون فيخافون جفوته . وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا ،
ونهى أمة ، نخوة وتغتتا وتجبرا وزهوا .. »

(١) ديمرت — بكسر الدال وفتحها وفتح اليم — من نواحى
أصبهان .

(٢) أى بعيد الرجوع الى الرضا .

وهذا كلام حاقد حاسد جرّد فيه أبو حيان الصاحب من كل فضيلة ، وانتزع منه كل مكرمة . ولو كان الصاحب فيه ما قال أبو حيان أو بعض ما قال أبو حيان ، لكان جديرا أن تسود صفحة تاريخه ، وأن يذكره المؤرخون بالغضب واللعنة الى أبد الآبدين ، وأن يتجافاه الناس لحسده وحقده وسطوته التى يؤثر بها ذوى الكفاية ، ويخص بها أهل الفضل ، ولما كان له أتباع وكتاب وعمال ، وفسدت الأرض ، واختل صفو الحياة .. كيف وقد ذكره الثقات الذين يعتد بأخبارهم ، ويؤخذ بأقوالهم شاهدين له بالفضل يستبق الناس الى بابه ، ويرجون المقام فى رحابه التى لم تضق يوما بأهل الفضل والكفاية .

كيف نصدق أبا حيان الحاقد الحاسد الكاذب فيما أكده الأمناء العارفون الذين يقولون ان الصاحب « قد احتفل به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى » .. ويقولون « هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان .. ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق .. الخ ^(١) ..

لقد صور أبو حيان الصاحب فيما صوّر جبارا عنيّدا ، بل وحشا ضاريا ، ولو صدّقناه فى هذه الصورة فكيف نوفق بين هذه الصورة والصورة الأخرى التى رسمها للصاحب بعدها مباشرة فى قوله « وهو مع هذا يخدعه الصبى » ، ويخلبه الغبى » ،

(١) يتيمة الدهر ٣/ ١٨٨ و ١٨٩ .

لأن المدخل عليه واسع ، والمآتى اليه سهل ، وذلك بأن يقال :
« مولانا يتقدم بأن أعار شيئاً من كلامه ، ورسائل منشوره
ومنظومه ، فما جبت الأرض اليه من فرغانة الى غانة ومصر وتفليس
الا لأستفيد كلامه وأفصح به وأتعلم البلاغة منه ، لكننا رسائل
مولانا قرآن ، وفقره فيها آيات فرقان ، واحتجابه من ابتدائها
الى انتهائها برهان فوق برهان ، فسبحان من جمع العالم فى
واحد ، وأبرز جميع قدرته فى شخص » .. فيلين عند ذلك
ويذوب ، ويلهى عن كل مهم له ، وينسى كل فريضة عليه ،
ويتقدم الى الخازن بأن يخرج اليه رسائله مع الورق والورق^(١) ،
ويسهل له الاذن عليه والوصول اليه ، والتمكن من مجلسه^(٢) ..

فنحن فى الصورة الأولى أمام صاحب بطش وجبروت وقسوة
وصرامة مباعدة منفرة ، وفى الصورة الأخرى أمام طفل وديع ،
أو أمام رجل ساذج يخدعه الصبيان ، ويغره الأغبياء بمعسول
القول بكلمات ثناء مفتعلة ، يصلون بها الى ما يشتهون ؛ من
الأموال والأرزاق ، والرضا والتقريب ..

فكيف يمكن التوفيق بين الصورتين المتناقضتين اللتين رسمهما
أبو حيان بخياله السقيم ، وأوحى بهما قلبه المريض ؟
لقد اضطرنا أبو حيان بأكاذيبه وتلفيقاته أن نخصه فى هذا

(١) يريد بأحد الورقين الدراهم المضروبة وهو بفتح الراء
وكسرهما .

(٢) الامتاع والمؤانسة ٥٦/١ .

البحث ببيان ، يعرف به القارئ حقيقة والعوامل التي كانت تبعثه على ما افتراه في حقّ الصاحب بن عباد .

* * *

ولقد كان الصاحب — على خلاف ما ذكر أبو حيان — انسانا دمث الخلق ، رقيق القلب ، لا يستحل قتل النفس التي حرّم الله الا بالحق ، ولا يستحل العقوبة بقطع الأرزاق قائلا « انها نذالة » وتجاوز الرفق والرحمة التي تمكنت من قلبه الناس الى الحيوان ، فلا يستبيح تعذيبه والتمثيل به .

* * *

رحمة الصاحب

وقد ثقل ياقوت ما يؤكد الرحمة التي طبع عليها قلب الصاحب في قوله : ومما وجدت في بعض الكتب من مكارم الأخلاق للصاحب : أن الصاحب استدعى يوما شرابا من شراب السكر ، فجىء بقدر منه ، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه : « لا تشربه فانه مسموم » فقال له : « وما الشاهد على صحة ذلك » ؟ قال : « بأن تجرببه على من أعطاكه » ! قال : « لا أستجيز ذلك ولا أستحله » . قال : « فجرّبه على دجاجة » ! قال الصاحب : « ان التمثيل بالحيوان لا يجوز » .

ثم أمر الصاحب بصب ما في القدح ، وقال للغلام : انصرف عني ، ولا تدخل داري بعدها . وأقرّ رزقه عليه ، وقال : « لا تدفع اليقين بالشك ، والعقوبة بقطع الرزق ندالة » ^(١) !

(١) معجم الأدباء ١٨٥/٦ .

ودخل على صاحب رجل لا يعرفه ، فقال له صاحب : أبو من ؟
فأنشد الرجل :

وتتفق الأسماء في اللفظ والكنى

كثيرا ولكن لا تلاقى الخلائق

فابتسم صاحب ، وقال له : اجلس يا أبا القاسم ! فقد فطن
الى كنيته من بيته ، وكان صاحب يقول لجلسائه اذا أراد أن
يسبّطهم ويؤنسهم : نحن بالنهار سلطان ، وبالليل اخوان (١) !

ومن أخباره أنه مرض مرة بالاسهال ، فكان كلما قام عن
المطهرة وضع عندها عشرة دنائير لئلا يتبرم به الفراشون ،
فكانوا يتمنون لو طالت علته . ولما عوفي أباح للفقراء نهب داره ،
وكان فيها ما يساوى نحواً من خمسين ألف دينار من الذهب (٢) .
فأية رقة وراء هذه الرقة في معاملة الناس ، والرفق بهم ،
والتلطف معهم ؟ !

ثم اقرأ قول أبي حيان الذى يبرز صاحب فيه رجلاً مغروراً
معجباً بنفسه مستبداً برأيه ، واعجب لهذه الصورة البيانية الرائعة
التي رسمتها ريشة أبي حيان بأسلوبه التهكمى اللاذع في قوله :
« والذى غلظه فى نفسه وحمله على الاعجاب بفضله ، والاستبداد
برأيه ، أنه لم يجبه قط بتخطئة ، ولا قبول بتسوئة ، ولا قيل له
أخطأت أو قصرت أو لحت أو أخللت ، لأنه نشأ على أن يقال :
أصاب سيدنا ، وصدق مولانا ، والله درّه ، والله بلاؤه ، ما رأينا

(١) يتيمة الدهر ١٩٦/٣ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٥/١١ .

مثله ، ولا سمعنا من يقاربه ، من ابن عبد كان مضافا اليه ؟
ومن ابن ثوابة مقيسا عليه ؟ ومن ابراهيم بن العباس الصولى
اذا جمع بينهما ؟ من صريع الغوانى ؟ من أشجع السلمى اذا
سلك طريقهما ومتح برشائهما وقدح بزندهما ؟ قد استدرك
مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى
اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الاسكافى فى الموازنة ،
وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى
القراءات ، وعلى ابن جرير فى التفسير ، وعلى أرسطوطاليس فى
المنطق ، وعلى الكندى فى الجزء (١) ، وعلى ابن سيرين فى
العبارة ، وعلى أبى العيناء فى البديهة ، وعلى ابن أبى خالد فى
الخط ، وعلى الجاحظ فى الحيوان ، وعلى سهل بن هارون فى
الفقر ، وعلى يوحنا فى الطب ، وعلى ابن ربن (٢) فى الفردوس ،
وعلى عيسى بن دأب فى الرواية ، وعلى الواقدي فى الحفظ ، وعلى
النجار فى البدل (٣) ، وعلى ابن ثوابة فى التفقه ، وعلى السرى
السقطى فى الخطرات والوساوس ، وعلى مزبد (٤) فى النوادر ،
وعلى أبى الحسن العروضى فى استخراج المعتمى ، وعلى

(١) يريد الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو ما يسمى بالجواهر
الفرد .

(٢) هو على بن ربن كان طبيبا مشهورا ، ألف كتابا اسمه
« فردوس الحكمة » .

(٣) البدل اسم كتاب فى علم الكلام لأبى عبد الله الحسين
ابن محمد النجار .

(٤) هو أبى اسحاق مزبد المدنى ، اشتهر بنوادره المضحكة
وبسرعة خاطره ولطيف ملحه .

بنى برمك فى الجود ، وعلى ذى الرىاستين فى التدير ، وعلى
سطيح فى الكهانة ، وعلى ابن المحيّا خالد بن سنان العبسى فى
دعواه (١) ، وهو والله أولى بقول أبى شريح أوس بن حجر التميمى
فى فضالة بن كلدة :

الألمى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
هذا هو الكلام الذى يصل الى قلب الصاحب ، كما تخيله
أبو حيان ، وهذا الثناء والتفضيل اللذان كان يسمعهما من جلّاسه
ومخالطيه هما سرّ غرور الصاحب وكبريائه كما زعم أبو حيان ،
ان الظن ليسبق الى أن أبا حيان هو الذى كان يحاول أن يخدع
الصاحب بأمثال هذا الكلام ، لأنّه أعرف الناس ، وهو أحذقهم
فى معرفة فحول الفكر والفن والسياسة والعلم !

ثم اقرأ كيف تصور أبو حيان موقع أمثال هذا الثناء من نفس
الصاحب ، وكيف صورّه فى قوله : « فتراه عند هذا الهذر
وأشباهه يتلوّى ويتبسّم ، ويطير فرحا ويتقسم ويقول :
« ولا كذا (٢) » ، ثمرة السبق لهم ، وقصّرنا أن نلحقهم ، أو تقفوا
أثرهم ، ونشقّ غبارهم ، أو نرد غمارهم » ، وهو فى كل ذلك
يتشاكى ويتحايل ، ويلوى شدقه ، ويتلع ريقه ، ويردّ كالآخذ ،

(١) خالد بن سنان زعموا أنّه كان نبيا فى زمن الفترة بين
عيسى ومحمد عليهما السلام ، وكان بأرض عبس . وأصحاب هذه
الأسماء التى ذكرها أبو حيان كان كل واحد منهم علما لكل علم
وفن من العلوم والفنون التى أوردّها الى جانب أسمائهم .

(٢) ولا كذا كلمة ظاهرها الرغبة فى الاقتصاد فى المدح ،
وباطنها كما يرى أبو حيان الحث على الاكثار منه .

ويأخذ كالمتمتع ، ويغضب في عرض الرضا ، ويرضى في لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتقابل ويتمايل ، ويحاكي المومسات ، ويخرج في أصحاب السماجات . ومع هذا كله يظن أن هذا خاف على تقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال ، والذين فرغهم الله لتتبع الأمور ، واستخراج ما في الصدور ، واعتبار الأسباب ، وذلك أنه ليس بجيد العقل ، ولا خالص الحمق ..

قال : وقد أفسده أيضا ثقة صاحبه ^(١) به وتعويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه ، فعذر بازدهاء المال والعلم والاعتدال والأمر والكفاية وطاعة الرجال وتصديق الجلساء والعادة الغالبة ، وهو في الأصل مجدود ^(٢) لا جرم ، ليس يقله مكان دلالا وترفا ، وعجبا وتيها وصلفا ، واندراء ^(٣) على الناس ، وازدراء للصغار والكبار ، وجبها ^(٤) للصادر والوارد ، وفي الجملة آفاته كبيرة ، وذنوبه جمّة « ولكن الغنى رب غفور » .

وسئل أبو حيان : وكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التي تذكرها ؟ فقال : والله لو أن عجوزا بلهاء ، أو أمة ورهاء ^(٥) أقيمت مقامه ، لكانت الأمور على هذا السياق ! فقليل له : وكيف ذاك ؟ فقال : قد أمن أن يقال له : لم فعلت ؟ ولم لم تفعل ؟ .

(١) يريد بصاحبه الملك الذي استوزره ، وهو مؤيد الدولة أو فخر الدولة أخوه ، فكلاهما استوزره .

(٢) المجدود : المحظوظ .

(٣) الاندراء : الاندفاع والتهجم .

(٤) أى جبههم عند ملاقاتهم بما يكرهون .

(٥) الورهاء : الحمقاء .

وهذا باب لا يتفق لأحد من خدم الملوك الا يجد سعيد (١) ..
ألست تجد في هذا حديثا لذيذا للسمر ، وتأليفا طريفا للمتعة ،
أمتع به أبو حيان جليسه الوزير ، وشفى به ما في نفسه وما في
نفس وزيره ، ولكن على حساب الصاحب ، وعلى حساب النيل
من عرضه ومروءته ، بل على حساب أعراض الناس ومروءاتهم ؟ !

بديهته وحضور جوابه

وعرف عن الصاحب أنه سريع النكتة ، حاضر الجواب ،
كثير الفكاهة والدعابة وكان ذلك أثرا من آثار ثقافته الواسعة ،
وعلمه المتبحر ، وتجاربه الكثيرة ، وتوقد ذهنه ، وحضور
بديهته . وقد رويت له في هذا السياق طرائف ممتعة ، منها عدا
ما سنذكره في أدبه :

* ورد الى الصاحب رجل من أهل الشام ، فكان فيما
استخبره عنه : رسائل من تقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن
عبد كان (٢) . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابي .. ثم غمزه أحد
جلسائه ليقول « ورسائل الصاحب » .. ورآه الصاحب يغمزه ،
فقال : تغمز حمارا لا يحسن ؟ !

* وأطال شاب عنده المكث ، ولم يقتد بغيره في المقام . فقال
للغنى : من أين ؟ فقال : من قم ، قال الصاحب : فاذا قم !

(١) الامتاع والمؤانسة ٦٠/١ ، ٦٩ .

(٢) « ابن عبد كان » هو محمد بن عبد كان ، كان كاتباً
للدولة الطولونية ، وكان بليغاً مترسلاً فصيحاً ، وله ديوان
رسائل .

* كان المأموني الأبهريّ الشاعر قال في شاعر أبهري آخر
يهجوه :

كلانا الى آدم يقتـزى وتجمعنا آصرات الرحم (١)
ولكن له الفضل في أنه يصل بقرن وأنى أجم (٢)
واتفق أن حضر مجلس الصاحب ، فقال الخادم : المأموني
الأبهريّ الشاعر . فقال الصاحب : الأقرن (٣) أم الأجم ؟ فاستجيا
ونجل !

* وحدث بديع الزمان الهمداني قال : لما أدخلني والدي
الى الصاحب ، ووصلت الى مجلسه واصلت الخدمة بتقيل
الأرض ، فقال لي الصاحب : يا بني اقعد ، كم تسجد ، كأنك
هدهد !

* ممن كان بباب الصاحب قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد
الأسد أبادي ، وكان يكتب في عنوان كتابه الى الصاحب « داعيه :
عبد الجبار بن أحمد » ثم صار يكتب « وليه : عبد الجبار بن
أحمد » ثم صار يكتب « عبد الجبار بن أحمد » ! فقال الصاحب
لندمائته : أظنه يتول أمره الى أن يكتب « الجبار » !

وكما كان الصاحب متفردا بالقدرة على هذه الدعابات
الساخرة ، والفكاهات النادرة ، كان يعجبه أن يستمع الى الطرفة
والدعابة والسخرية وان كانت السخرية من شخصه ، وذكر

(١) الأصرة : الصلة والقراءة .

(٢) الأجم : الذي لا قرن له ، وفي البيت تعريض ظاهر .

(٣) الأقرن : ذو القرن .

الصاحب أن جماعة أخجلوه بدعاباتهم وحضور جوابهم ، قال :
منهم أبو الحسن البديهي ، فانه كان في نفر من جلسائي ، فقلت
له — وقد أكثر من أكل المشمش — لا تأكله فانه يلطخ المعدة !
فقال : ما يعجبني من يطبّ على مائدته !

قال : وأخجلني آخر اذ قال لي — وقد خرجت من دار
السلطان وأنا ضجر من أمر عرض لي — : من أين أقبلت يا مولانا ؟
فقلت : من لعنة الله ، فقال : ردّ الله غربتك ! وأحسن على
اساءته الأدب — فاستحسنّت مداعبته فقلت : ليتك تحتي ! فقال :
مع ثلاثة آخر — يعني في الجنّازة — فأخجلني !

وحدث الصاحب يوما فقال : ما أفظعني ^(١) الا شاب ورد علينا
أصبهان بغدادى ، فقصدني ، فأذنت له ، وكان عليه مرقعة وفي
رجليه نعل طاق ^(٢) ، فنظرت الى حاجبي ، فقال له وهو يصعد الى :
اخلع نعلك ! فقال : ولم ؟ ولعلّى أحتاج اليها بعد ساعة ! قال
الصاحب : فغلبنى الضحك ، وقلت : أترأه يريد أن يصفعني ! ؟
ومثل هذه الأحاديث والطرائف لا تصدر عن جبار عنيد ،
ولا عن مستبد طائش ، وانما تصدر عن رجل أليف مألوف ،
يحب الناس ، ويحبّه الناس ، كالصاحب الانسان الرقيق ، السّمح
المهذب الرفيق .

(١) أفظعه الأمر : اشتدت شناعته ، وجاوز قدره ، وأقطعه
الأمر : وجده قطيعا .

(٢) يقال : نعل طاق ، عطف ببعضه على بعض .

سماحة الصاحب

وسماحة الصاحب أشهر من أن يعرّف بها ، ولقد أصبحت تلك السماحة مضرب الأمثال ، وحسبنا أن نذكر في هذا المجال قول أبي منصور الثعالبي في نعتة « ليست تحضرني عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله في العلم والأدب ، وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتفرد به غايات المحاسن ، وجمعه أشات المفاخر .. وهو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق . وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط حالهم ، وموسم فضلائهم ، ومرتفع آمالهم ، وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته في مجد يشيده ، وانعام يجده ، وفاضل يصطنعه (١) ..

* * *

والحقيقة أن هذه السماحة التي زينت مكارم الصاحب ، وجعلته مثالا فذا فيها لم تكن خلقا مكسوبا ، بل كانت طبعا فيه وجبلة ورثها عن أبويه اللذين ربياه عليها ، وأخذاه بها ، وعلماء منذ حدائته أن يكون سمحا معطاء ، فقد كان منذ الصغر اذا أراد

(١) يتيمة الدهر ١٨٨/٣ .

المضى الى المسجد ليقرأ تعطيه والدته ديناراً في كل يوم ودرهما ،
وتقول له : تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه ، فكان هذا دأبه في
شبابه الى أن كبر ، وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت
المطرح ديناراً ودرهما لثلاثنساء . فبقى على هذا مدة ، ثم ان
الفراش نسى ليلة من الليالي أن يطرح له الدرهم والدينار ، فانتبه
وصلى ، وقلب المطرح ليأخذ الدرهم والدينار ففقدتهما ، فتطير
من ذلك ، وظن أنه لقرب أجله . فقال للفراشين خذوا كل ما هنا
من الفراش ، وأعطوه لأول فقير تلقونه ، حتى يكون كفارة لتأخير
هذا . فلقوا أعمى هاشميا على يد امرأة ، فقالوا له : تقبل هذا ! فقال:
ما هو ؟ فقالوا : مطرح ديباج ومخاد ديباج ، فأغمى عليه ! فأعلموا
الصاحب بأمره ، فأحضره ورش عليه ماء ، فلما أفاق سأله ، فقال :
أسألوا هذه المرأة ان لم تصدقوني ، فقالوا له : اشرح ، فقال :
« أنا رجل شريف لى ابنة من هذه المرأة خطبها رجل فزوجناه ،
ولى سنتان آخذ القدر الذى يفضل عن قوتنا أشتري لها به
جهازاً . فلما كان البارحة قالت أمها : اشتهيت مطرح ديباج
ومخاد ديباج ، فقلت من أين لى ذلك ؟ وجرى بينى وبينها خصومة
الى أن سألتها أن تأخذ ييدى وتخرجنى حتى أمضى على وجهى .
فلما قال لى هؤلاء هذا الكلام حق لى أن يغشى على » ! ..
فقال الصاحب : « لا يكون الديباج الا مع ما يليق به ، ثم
اشتري له جهازاً يليق بذلك المطرخ » وأحضر زوج الصبية ودفع
اليه بضاعة سنية (١) ..

(١) بغية الوعاة ١٩٦ .

هكذا كان الصاحب في سماحته ، وهكذا كان عطاؤه مع من لا يعرف من الناس ، انه ليعطى للعطاء ، ويهب للهبة ، ويجد في الهبة والعطاء متعة وفألا ، ويجد في المنع طيرة وشؤما . ومع ذلك تجد من أعدائه الذين لجوا في خصومتهم محاولات لتثويته هذا الخلق المطبوع غيظا وحسدا حتى يقول بعضهم « عطاء ابن عباد لا يزيد على مائة درهم وثوب الى خمسمائة ، وما يبلغ الى الألف نادر ، وما يوفى على الألف بديع ! .

وحين تدمغهم الحقائق التي لا يستطيعون انكارها يقولون « بلى ! قد نال به ناس من عرض جاهه على السنين ما يزيد قدره على هذا بأضعاف ، وعدد هؤلاء قليل جدا ، وذلك بابتذال النفس وهتك الستر (١) » .

وهذا كلام مضطرب متناقض ، تطل منه الحقيقة السافرة على الرغم من الحسد والعداوة الظاهرة .

قال الصاحب : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان ، وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة ، وأنا اذ ذاك في ريعان شبابي ، فلما تقوض المجلس وانصرف القوم ، وقد حلّ الافطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي ، واستقبحت اغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت ألا أخلّ بما أخلّ به اذا قمت يوما مقامه ..

فكان الصاحب لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائنا من كان فيخرج من داره الا بعد الافطار عنده . وكانت

(١) معجم الأدباء ٦/ ٢٣٧ .

داره لا تخلو في ليلة من ليالى شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها .. وكانت صلاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة ^(١) وكان ما يخرج لكافي الكفاة في السنة في وجوه البرّ والصدقات والمبرات ، وصلات الأشراف وأهل العلم ، والغرباء الزوار ، ومن يجرى مجرى ذلك ، مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا وأجر الآخرة يزيد على مائة ألف دينار .

ونقل الثعالبي في اليتيمة ما رواه عون بن الحسين الهمداني التميمي في قوله : كنت يوما في خزانة الخلع للصاحب ، فرأيت في حسابات كاتبها ، وكان صديقي ، مبلغ عمائم الخز التي صارت تلك الشتوة في خلع الخدم والحاشية ثمانمائة وعشرين .

* * *

وكان يعجبه الخز ، ويأمر بالاستكثار منه في داره . فنظر أبو القاسم الزعفراني يوما الى جميع من فيها من الخدم والحاشية عليهم الخزوز الفاخرة الملونة ، فاعتزل ناحية وأخذ يكتب شيئا . فسأل صاحب عنه ، فقبل انه في مجلس كذا يكتب ، فقال على به ، فاستمهل الزعفراني ريثما يكمل مكتوبه ، فأعجله صاحب ، وأمر بأن يؤخذ ما في يده من الدرج ، فقام الزعفراني اليه ، وقال : أيّد الله صاحب :

اسمعه ممن قاله تزدد به

عجبا فحسن الورد في أغصانه

(١) يتيمة الدهر ١٩٣/٣ .

فقال الصاحب : هات يا أبا القاسم ، فأنشده أبياتا منها :

سواك يعد الغنى ما اقتنى
وأنت ابن عباد المرتجى
وخيرك من باسط كفه
غمرت الورى بصنوف الندى
وغادرت أشعرهم مفحما
أيا من عطاياه تهدى الغنى
كسوت المقيمين والزائرين
وحاشية الدار يشون فى
ولست أذكر لى جاريا

ويأمره الحرص أن يخرزنا
تعدّ نوالك نيل المنى
وممن ثناها قريب الجنى
فأصغر ما ملكوه الغنى
وأشكرهم عاجزا ألكنا
الى راحتى من نأى أو دننا
كسا لم يخل مثلها ممكنا
ضروب من الخرز الا أنا
على العهد يحسن أن يحسنا

فقال الصاحب : قرأت فى أخبار معن بن زائدة أن رجلا قال له
« احملنى أيها الأمير » ! فأمر له بناق و فرس وبغلة و حمار
وجارية ، ثم قال له : لو كنت أعلم أن الله تعالى خلق مركوبا غير
هذه لحملتك عليه !.. وقد أمرنا لك من الخرز بجة وقميص
ودراعة ^(١) و سراويل و عمامة و منديل و مطرف ^(٢) و رداء و جورب ،
ولو علمت لباسا آخر يتخذ من الخرز لأعطيناكه ، ثم أمر بادخاله
الخزانة ، و صب تلك الخلع عليه ، و تسليم ما فضل عن لبسه
فى الوقت الى غلامه ^(٣) ..

(١) الدراعة : جبة مشقوقة المقدم .

(٢) المطرف - بضم الميم وكسر ها - واحد (المطارف) وهى
أردية من خز مربعة ولها أعلام .

(٣) يتيمة الدهر ١٩١/٣ .

كيف ينسب رجل مثل هذا الى الشح والتقتير ؟ أم كيف يجروء كاتب على التشكيك في سماحته ووفرة عطائه ؟ ولقد ذكر هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي — كما سبق — أن المصاحب كان يراعى من ببغداد والحرمين من أهل الشرف ، وشيوخ الكتاب والشعراء ، وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء ، بما يحمله اليهم في كل سنة مع الحاجّ على مقاديرهم ومنازلهم ، وكان يحمل الى أبى اسحاق ابراهيم بن هلال خمسمائة دينار والى ألف درهم جبلية مع جعفر بن شعيب (١) ..

العدل في الرضا والسخط

ومن أخلاق المصاحب البارزة وفضائله المميزة خلق الاعتدال ، وهو أساس الفضيلة وعنوان الكمال في الانسان الفاضل .
ويبدو هذا الخلق واضحاً في نواح كثيرة من حياته العامة وحياته الخاصة على السواء ، كما تبدو في مبدئه وفي عقيدته ، فقد علمه الحكم وتحمل المسؤولية الترفع عن الخصام والتحلل من قيود العصبية ، ونسى نفسه وذاته وأهواءه وميوله ، حتى كان رجل الدولة أو رجل الجميع ، الذي يحمل قلباً واسعاً يتسع لأنصاره ، ولا يضيق عن خصومه ، يغفر الزلة ويتغاضى عن الهفوة ، ويتماسك عند الأحداث التي تزلزل الرجال .

فلم نقرأ في حياته العامة في السياسة والحكم شيئاً يدل على تهوّر أو اندفاعه مع كبير أو صغير ، ولم نقرأ كذلك شيئاً يدل

(١) معجم الأدباء ٦/ ٣٠٠ .

على تهافته أو ضراسته واستصغار نفسه . وقد رأينا أنه حين أغار مع فخر الدولة على الأهواز ليصلا منها الى الأمل المرتقب في دار السلام ، دب السعاة بينهما ، وخوفا فخر الدولة من أن يكون الصاحب يعمل لنفسه حتى يتصل بحكام بغداد ، فلما استدعاه فخر الدولة من طريقه الى بغداد لبي ورجع اليه ، وشخص معه الى الأهواز كما أراد ، وحارب في الأهواز وانتصر حتى تدخل فخر الدولة وقد أساء الى جنده حتى اضطربوا عليه ولما أحسّ الصاحب بتغير فخر الدولة عليه لم يزد عن الامساك والتزام الصمت ، وكان في استطاعته وقد رأى من مولاه ما رأى أن ينجو بنفسه ذاهبا الى بغداد ، ولن يعدم وسيلة يتوسل بها الى الخليفة أو الى قلب السلطان ، أو أن يرجع الى الري مغاضبا ، ولكنه بقي حيث هو مع مولاه ، حتى اذا رجع اليه مستشيراً وجد عنده الرأي الذي يجمع شمل جنده ، ولو أن فخر الدولة لم يأخذ برأيه ، ولم يجد بماله . الا أن رأى الصاحب كان الرأي الصائب ، وقد عرفت أصابته بعد تشتت جنده وخيبة حملته ، وتبدد الآمال .

ولعل الاعتدال وضبط النفس كان من أهم ما رفع الصاحب في نفوس أمرائه ، ودعاهم الى استبقائه والحرص عليه ، ولهذا عمر في الوزارة تلك المدة الطويلة التي تزيد على ثمانية عشر عاما وهي مدة قلّ أن عمرها وزير في وزارة ، ولا سيما في ذلك الزمان الثائر المضطرب ، ولقد تعاقب عليه أميران ، أحدهما « فخر الدولة » الذي لم يحتمل أخويه ، ولم يحتملاه ، فثار عليهما ، وظل مقصيا ثائرا ، يحارب أخويه عضد الدولة ومؤيد

الدولة ويحاربانه ، حتى توفي مؤيد الدولة فاستدعاه صاحب وسلم اليه السلطان ، واعتذر صاحب عن مشاركته في تحمل مسؤولية الحكم ، لولا أن ألح عليه ، فقبل المضي في طريقه محتفظا بكرامته وترفعه .

ويبدو أثر الاعتدال في سياسته في ذلك الرضا الشامل الذي أبدته الرعية طوال مدة وزارته ولم نقرأ في تاريخه شيئا عن عنف أو عقوبة صارمة أنزلها بأحد مرءوسيه أو رعاياه جزاء عن مخالفة أو محاولة للخروج .

ولقد كان صاحب يغضب اذا استغضب ، ولكنه كان سريع الرجوع ، ومن شأن المتهورين الاندفاع وحدة الانفعال في الرضا وفي السخط على السواء .

أما رحمة صاحب ورفقه بالناس ، وتواضعه للعلماء والشعراء والأدباء ، ونادرتة اللطيفة ، وفكاخته الطريفة .. فإن كل ذلك لم يكن في حقيقته تصاعرا أو شعورا بالهوان ، بقدر ما كان مظهرا من مظاهر الرغبة في تحطيم الكبرياء ، وكسر حدة المنصب وشهوة السلطان التي يكثر أن تخدع كثيرا من رجال الحكم والسلطان ، فلم يستسلم صاحب لتلك الشهوة التي تثير في نفوس أصحابها الحرص على الاستعلاء ، حتى يركبوا مركب البطش والاستبداد . ومن هنا كان التوسط والاعتدال ، فكان بين الحكام مثلا بعيد المنال ، وكان في العلماء والأدباء عالما وأديبا يخلع رداء السلطان الذي تنقبض له النفوس ، ثم يقول لجلسائه كلمته المذكورة : « نحن بالنهار سلطان ، وبالليل اخوان » .. ويقول للقادم عليه

إذا كان من أهل العلم : « يا أخى تكلم واستأنس ، واقترح وانبسط ، ولا ترع .. ان سلطان العلم فوق سلطان الولاية ، فليفرخ روعك ، ولينعم بالك ، وقل ما شئت ، وأبصر ما أردت ، فلست تجد عندنا الا الانصاف والاسعاف » ! ويقول لأبى واقد الكراييسى — وقد حضر مجلسه وهو لا يعرفه — يا أخ انبسط واستأنس ، وتكلم ، فلك منا جانب وطىء ، وشراب مرىء ، ولن ترى الا البر !!

وذلك ان كان يدل على شىء فانما يدل على الطبع الأصيل الذى يملك صاحبه زمام نفسه فلا يسرف بها متعاليا ، ولا ينحط بها متداعيا ، ولكنها تتصرف فى كل موقف بما يتطلبه ، ومع كل انسان بما يناسبه ، وهذا هو سر احترامه وهو أيضا سر محبته ، ولقد مازحه مولاه فخر الدولة ذات مرة بكلمة رأى الصاحب أنها نائية ، فما كان أسرع الى القول « بنا من الجد ما لا نفرغ معه للهزل » وغادر مجلسه غاضبا ، وانكمش عنه ، حتى استرضاه مقدرا ما ينبغى لمثله من التوقير والاحترام .

* * *

وهناك مظهر آخر لتمكن خلق الاعتدال من نفسه ، وتسلمته على قوله وفعله وعقيدته ومذهبه ، فقد رأينا أنه كان يرى رأى المعتزلة أصحاب العدل والتوحيد الذين كانوا يقولون بخلق القرآن ، كما سنعرض ذلك عند دراسة علم الصاحب ، وكان يناظر لتأييد قوله بما يستطيع من الأدلة والبراهين ، ولكنه لم يحاول مرة أن يكره أحدا على القول بما يقول ، ولا أن ينال

من مخالفى مذهبه أو رافضى قوله ، أو أن يفعل ما فعل خلفاء بنى العباس ووزرائهم من أخذ معارضهم للفكرة نفسها بالعسف والظلم والاستبداد ، وتنحياتهم عن وظائفهم ان كانوا من أصحاب المناصب والوظائف ، أو سجنهم وتعذيبهم ان كانوا من غير أصحاب الوظائف والمناصب ، وكأنهم كافرون بكل القيم منكرون لجميع العقائد من أجل خلاف فى رأى حول بدعة جديدة ، أو فتنة جديدة مزقت وحدة المسلمين ، وعذب بسببها كثير من أئمتهم وعلمائهم وفقهائهم وأفاضلهم .

أما الصاحب — وقد كان يقول بما يقول به خلفاء بنى العباس ووزرائهم — فانه لم يحاول أن يسلك مسلكهم ، أو أن يذهب مذهبهم فى التعصب لرأيه ، أو أخذ مخالفه بمثل تلك القسوة والصرامة ، بل كان يدلى بحجته ، ويدع لمخالفه أن يدلوا بحجته ، ولا يحاول أن يحملهم على اعتناق رأيه ، أو أن يصيبهم بسوء ، بل كان على العكس من ذلك يفتح لهم صدره ، ويوسع لهم فى مجلسه ، ويتبسط معهم ، تاركا لكل انسان أن يقول بما يرى ، وأن يعتقد ما يرضى .

* * *

والمعروف عن الصاحب أنه كان شيعيًا اماميًا من الاثنى عشرية^(١) ، ولكن يبدو أن الشيعة كانت مذهبه الرسمى المعروف ،

(١) لأن عدد الأئمة عندهم اثنا عشر يبدأون من الامام على كرم الله وجهه فابنه الحسن فابنه الحسين فعلى زين العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق فموسى الكاظم فعلى الرضا فمحمد الجواد فعلى الهادى فالحسن العسكرى فمحمد المهدي المنتظر .

وان كان له شعر كثير يدلّ على حبه لأهل بيت رسول الله حبّاً
ملك عليه قلبه ، وظهر أثر هذا الحب الشديد في كثير من شعره ،
ملتصفاً بهم الشفاعة والزلفى الى الله كقوله مخاطباً آل رسول الله
صلى الله عليه وسلم :

ان ابن عباد استجار بكم
فما يخاف الليوث في الخيس (١)
كونوا أيا سادتي وسائله
يفسح له الله في الفراديس
كم مدحة فيكم يحبّها
كأنّها حلة الطواويس
وهذه كم يقول قارئها
قد نثر الدرّ في القسراطيس
يملك رقّ القريض قائلها
ملك سليمان عرش بلقيس
بلغه الله ما يؤمّله

حتى يزور الامام في طوس (٢)
وقوله راجياً بحبهم الخلود في الجنان :
نبيّ والوصيّ وسيدان وزين العابدين وباقران
وموسى والرضا والفاضلان بهم أرجو خلودي في الجنان

(١) الخيس بالكسر موضع الأسد .
(٢) طوس بالضم مدينة بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ ،
تشمل على بلدين يقال لاحدهما (الطابران) والاخرى (نوفان) ،
بها قبر الرشيد ، وعلى بن موسى الرضا .

وقوله في ايثار بنى السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قد قلت قولاً صادفاً بيننا وليست النفس به آثمـه
لكلّ شيء فاضل جوهر وجوهر الناس بنو فاطمة
الى أمثلة كثيرة من هذا الشعر الذى فاض به بحر صاحب
في حبّ رسول الله وأولاده ؛ ولا يختلف مسلمان أيا كان مذهب
كل منهما ونحلته في حب رسول الله وآله والولاء لهم ولغيرهم
من ذوى السّابقة والجهاد في سبيل الله من السّابقين الأولين الذين
رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في
سبيل الله . فهذا قدر مشترك بين المسلمين جميعاً سواء أكانوا من
أهل السنة أم كانوا من أهل الشيعة .

ومع هذا الحب والولاء الذى يشاركه صاحب فيه المسلمون
جميعاً ، كان صاحب معتزلياً ، وهنالك اختلافات كثيرة بين
الشيعة والمعتزلة ، والأدلة على كونه معتزلياً كثيرة ، منها تعصبه
للجاحظ الذى كان من أئمة المعتزلة كما هو معلوم ، وقد رد
الشريف المرتضى في كتابه « الانصاف » على صاحب بن عباد
في تعصبه للجاحظ ، ونسب الشريف صاحب الى الاعتزال ،
وقال فخر الدولة للصاحب « بلغنى أنك تقول : المذهب
الاعتزال .. » . وعدّه صاحب كتاب « فرج المهموم » من المعتزلة
ويظهر ذلك من رسالته المسماة بالابانة ، فان ظاهره فيها انكار
النص على أمير المؤمنين مع القول بأفضليته ، وهذا مذهب جماعة
من المعتزلة .. ويحكى عن الصلاح الصفدى أنه قال : ومن المعتزلة

الصاحب بن عباد والزمخشري والفراء النحوي ^(١) وقال أبو حيان التوحيدي « والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب » ^(٢) ..

ما لنا نذهب بعيدا في اثبات اعتزاله ، وهو القائل بما يقول به المعتزلة من الاختيار وانكار الجبر ، حتى قال فيه السلامي الشاعر يهجوهُ :

يا ابن عباد بن عبا س بن عبد الله حرها
تكر الجبر وأخرج ت من دنياك كرها

وهو القائل بما يقول به المعتزلة من خلق القرآن ؟ وهو من المعتزلة الذين يسمون أنفسهم « أصحاب العدل والتوحيد » ، كما قال هو عن نفسه :

العدل والتوحيد مذهبي الذي
يزهى به الايمان والاسلام
وولايتي لمحمد ولآله
ديني وحصن الدين ليس يـرام
فهناك جبل الله مضافور القوى
وعليه من سر القضاء ختام

وكما كرر ذلك كثيرا في شعره . فلم تبق شبهة في اعتناقه آراء المعتزلة .

(١) راجع (أعيان الشيعة) ٣٦٧/١١ و ٣٦٨ .

(٢) الامتاع والؤانسة ٥٤/١ .

والى جانب هذا وذاك ، ذكر التوحيدى فى الامتاع أنه كان
« يتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيدية » (١) ..
ولا شك أن هذه الأقوال كلها تدعو الى العجب ، وتستثير
الدهش ، فكيف يكون صاحب جامعا لهذه المذاهب ؟ فيكون
من الشيعة الامامية الاثنى عشرية ، ومن الشيعة الزيدية ، ومن
المعتزلة حنفيا أو شافعيا ؟ !

وليس من حقنا أن ننفى اعتناق صاحب بن عباد مذهباً من
هذه المذاهب أمام هذه الأخبار والنصوص المتواترة ، وأمام
كلام صاحب نفسه ، وكلام معاصريه ! وليس من حقنا كذلك
أمام هذه الأسباب أن نقول ان صاحب كان له مذهب واحد
بعينه يتمسك به ، وينكر ما عداه !

فهل معنى ذلك أن صاحب كان يجمع هذه المذاهب كلها
أو كانت تجتمع فيه مع ما قد يكون من أوجه الخلاف بينها ؟ !
ان رأى الذى أطمئن اليه أن ذلك ليس مستحيلا كما يخیل
لبعض الأذهان التى تصرّ على أن هناك اختلافا يستحيل معه
الاتفاق . ذلك أن الاختلاف بين هذه المذاهب مهما يكن مداه
ليس الا اختلافا فى الفروع ، أما الأصول فانها واحدة ! كما قال
الله تعالى : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

(١) المصدر السابق ٥٥/١ ؛ وياقوت ١٧٥/٦ . ونقل ياقوت
« ويتشيع بمذهب أبى حنيفة » بالباء موضع اللام . والزيدية
طائفة من الشيعة تقول بامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن
أبى طالب ، وقد خرج زيد على الدولة الأموية فى زمان هشام
ابن عبد الملك .

ولا تختلف هذه المذاهب الا بمقدار ما يختلف الأخ عن أخيه الشقيق في بعض الظواهر العرضية التي لا تنفى وحدة أصلهما ، وتلك الاختلافات العرضية انما جسمتها الأهواء والنزوات ، التي لا يمكن أن تمسّ جوهر العقيدة بحال من الأحوال ؛ وإن كانت قد أحدثت على مر الزمان آلاما وجراحا وأفسدت بين الأشقاء ، ووسّعت الهوة ، ومزقت وشائج الوحدة وروابط الاخاء .

وقد استطاع صاحب بن عباد أن يكون كذلك ، لأن واجبه الأسمى كمشارك في تدير الدولة وسياسة أمورها ، ورعاية رعاياها تقتضى أن يكون كذلك ؛ فهو شيعى في ولائه لآل رسول الله ، وهو معتزلى في تفكيره ، وهو يتشيع لمذهب أبى حنيفة أو لمذهب الشافعى السنين ، أو بعبارة أخرى « هو مسلم » يأخذ بأجود ما يرى أو ما يطمئن اليه عقله من هذا ومن ذاك فليس مقلدا لمذهب من المذاهب ، وانما هو آخذ بأسباب القوة كما يراها في كل مذهب من المذاهب ، ولا ضير في شرعة الانصاف أن يكون على هذا النحو من السلوك ، فان أمامه الأصول التي لا يتماهى فيها مسلمان من كتاب الله عز وجلّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عقله يهديه ، وقلبه الذى يسير وراء عقله .

هذا ما أستطيع أن أطمئن اليه في تفسير هذه الأخبار وتعليل تلك النصوص .

وقد استطاع صاحب أن يضرب أروع الأمثلة الايجابية في ايمانه بما آمن ، وفي أخذه بما أخذ ، فنراه يؤلف كتابا يعد في طليعة ما يذكر من كتبه وآثاره ، وأعنى به كتابه الذى سماه

« كتاب الامامة » الذى يذكر فيه فضائل الامام على كرم الله وجهه ، ويثبت بأدلته وبراهينه صحة امامة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، رضى الله عنهم أجمعين . وقد ذكر هذا الكتاب أعلام يعتدّ بهم ، وفى مقدمتهم محمد بن اسحاق النديم ، الذى عاصر الصاحب نفسه ، وتوفى فى السنة التى توفى فيها الصاحب (سنة ٣٨٥ هـ) وقد قال فى الفهرست فى كتب الصاحب « كتاب الامامة يذكر فيه تفضيل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وتثبيت امامة من تقدمه » ^(١) ، وكذلك القاضى أحمد الشهير بابن خلكان الذى ذكر فى كتب الصاحب « وكتاب الامامة يذكر فيه فضائل على بن أبى طالب — رضى الله عنه — ويثبت امامة من تقدمه » ^(٢) ، وكذلك ياقوت الذى ذكر أن هذا الكتاب « فى تفضيل على بن أبى طالب ، وتصحيح امامة من تقدمه » ^(٣) .

وعلى هذا فليس هنالك شك فى صحة هذا الكتاب ، ولا خلاف فى موضوعه ، وهذا أكبر دليل على ما قررناه من سعة أفق الرجل ، وأخذه بما يراه وبما يقتنع به ، وينفى عنه رذيلة التعصب الذى يعمى عن الحق ، ويفتح للأهواء سبيلها الى الضلال . وقد كان هذا فى حقيقته مؤكدا لما قلناه من قبل عن

(١) الفهرست لمحمد بن اسحاق النديم ١٩٤ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٢٥/٢ .

(٣) معجم الأدباء ٢٦٠/٦ .

فضيلة الاعتدال التي كان يتميز بها صاحب بن عباد بين فضائله الكثيرة ، ومواهبه المتألقة .

ويؤكد هذه الفضيلة أيضا موقفه من القاضي « عبد الجبار ابن أحمد » وهو سنّي (١) معتزلي ، فقد أعجب بعلمه وفضله حين رآه في بغداد ، فلما عاد صاحب الى الريّ استدعاه وكرّمه وقدمه ، ثم ولاّه قضاء الريّ ، ثم أضاف اليه بعد ذلك قضاء طبرستان وجرجان وما يليهما من الأعمال ، غير متعصب لرأى ، ولا متشيع لمذهب ، ولا خاضع لهوى من الأهواء ، الا هوى الحق ، ومنهج العدل .

* * *

وأخيرا فلعل فيما أبرزناه في هذا الفصل عن أخلاق صاحب يلقى ضوءا على ما كان يتمتع به من الفضائل النفسية التي رفعته وخلدت اسمه في سجل الخالدين ، ولعله يعين على تعرف العوامل والمواهب التي تضافرت على تكوين شخصية فذة من أفذاذ التاريخ العربى والتاريخ الاسلامى .

(١) أردنا بالسنية معناها العام ، لا معناها الذى يقابل الاعتزال .

الفصل الخامس

الصاحب الأديب

الصاحب الأييب

كان الصاحب أحد أعيان الأدباء الذين ملكوا زمام هذا الفن وبرزوا فيه ، وبه عرفوا وذاع صيتهم بين الناس ، وقد فاق في أدبه وفي تنوع فنونه أكثر أدباء عصره كتابة وشعرا .

ولن نظلم الحقيقة إذا قلنا ان ابن عباد كان آدب من عرفنا من الوزراء الذين سما بهم هذا الفن الرفيع الى أرفع مكان رسمي في الدولة بعد منصب الخلافة والملك ، وهو منصب الوزارة .

وقد شهد للصاحب بذلك الفضل أكثر الناس عداوة له ، وألدهم خصومة ، وأشدهم حقداً عليه ، وفي مقدمتهم أبو حيان التوحيدي الذي كتب بعد أن فرغ من الاعتذار من التصدي لثلبه أن أول ما يذكر من ذلك ما يدل به على سعة كلامه ، وفصاحة لسانه ، وقوة جأشه ، وشدة منته (١) . وقال أبو منصور الثعالبي في نعته : « همته في مجد يشيده ، وانعام يحدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطاردي البلاغة ، وواسطة عقد الدهر في الساحة ، جلب اليه من الآفاق وأقصى البلاد كل خطاب جزل ، وقول فصل ، وصارت حضرته مشرعة

(١) المنة بضم الميم وتشديد النون القدرة والقوة .

لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعا
لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة
ما يعدّ في السحر ، ويكاد يدخل في حد الإعجاز وسار
كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتي الشرق والغرب (١) ..
وقال فيه الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف
القفطى : « وهذا الصاحب ممن اشتركت الألسن في وصفه ،
وسلم اليه أهل البلاغة ما عاناه من نثره ونظمه ، وحسن ترتيبه
ورصفه (٢) .. ورثاه الشريف أبو الحسن الرضى الموسوى
النقيب بقصيدة طويلة من عيون المراثي قال فيها :

واها على الأقلام بعدك انها لم ترض بعد بنان كفك ألا
أفقدن منك شجاع كل بلاغة ان قال جلتى فى المقال وجالا
من لو يشا طعن العدا براءوسها وأثار من جريانها قسطالا (٣)
ووصفه محمد بن اسحاق النديم بأنه « أوحّد زمانه ، وفريد
عصره فى البلاغة والفصاحة والشعر (٤) ..

* * *

ولقد كان الصاحب أدبيا برز فى فنون الأدب ، فكان كاتباً من
كبار الكتاب ، وشاعراً من فحول الشعراء ، وناقدا عارفاً بأصول
الأدب . وقبلما رأينا أدبيا اجتمع له من أسباب القدرة والتمكن

(١) يتيمة الدهر ٣/ ١٨٩ .

(٢) أنباه الرواة على أنباه النجاة ١/ ٢٠٢ .

(٣) القسطل والقسطلان والغبار .

(٤) القهرست : ص ١٩٤ .

من فنون القول كما رأينا صاحب الذى زاحم كل مختص فى
فنه حتى حاذاه وفاقه ..

ومرجع ذلك الطبع الموهوب، والأدب المكسوب ، والأساتذة
العارفون الذين جلس اليهم وتلقى عنهم أصول الفن ، مع رغبة
شديدة فى المعرفة ، وحرص على الاطلاع الواسع العميق على
غرر الشعر وعيون النثر حتى بلغ من ذلك الغاية ..

وقد كان من أساتذته علماء يشار اليهم بالبنان فى تنوع
المعرفة ، ويعترف لهم بالتبحر فى الأدب وفى مقدمتهم أحمد بن
فارس الذى وصف بأنه من أعيان أهل العلم ، وأفراد الدهر ،
وأنة يجمع اتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء ، وهو
صاحب الكتب البديعة والرسائل المفيدة والأشعار الجيدة ؛ ولعل
الصاحب بن عباد كان أشبه تلاميذه به فى العلم ، وان فاقه فى
فن الكتابة وفن الشعر .

الصاحب النائر

وفى طليعة أساتذته الذين أخذ عنهم أصول فن الكتابة
أبو الفضل محمد بن الحسين الذى اشتهر بابن العميد ، والذى
وصفه الثعالبي بأنه الأوحى فى العصر فى الكتابة ، وجميع أدوات
الرياسة وآلات الوزارة ، والضارب فى الآداب بالسهام الفائزة ،
والآخذ من العلوم بالأطراف القوية ، وكان يدعى الجاحظ
الأخير ، وللاستاذ ، والرئيس ، يضرب به المثل فى البلاغة ،
وينتهى اليه فى الاشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل

وجزالة الألفاظ وسلاستها ، الى براعة المعانى ونفاستها .. وما أحسن ما قال له صاحب — وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها — : « بغداد فى البلاد ، كالأستاذ فى العباد » .. وكان يقال : بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد .

وقد أجرى ذكر عبد الحميد وابن العميد معاً ، وجعلهما مثلاً ، أبو محمد عبدالله بن أحمد الخازن الأصبهاني فى قصيدة فريدة مدح بها صاحب ، فلما انتهى الى بلاغته قال :

دعوا الأقايص والأبناء ناحية فما على ظهرها غير ابن عباد
والى بيان متى يطلق أعتته يدع لسان اباد رهن أقياد
ومورد كلمات عطلت زهرا على رياض ودرًا فوق أجياد
وتارك أولاً عبد الحميد بها وابن العميد أخيراً فى أبى جاد

ويتمثل فى هذا العصر الذى أنجب أبا الفضل بن العميد وتلميذه صاحب بن عباد ازدهار الحضارة ، ووضوح أثرها فى فن الكتابة، التى أخذ أسلوبها يميل الى الزخرف والتأنق والصنعة ، فامتازت كتابة الرسائل فى هذا العصر امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع القصير الفقرات لا سيما الرسائل السلطانية ، وباستعمال الجناس وبعض أنواع البديع ، وباستخدام معانى الشعر وألفاظه فيها بحل الأبيات السائرة والحكم الماثورة ، حتى كادت الرسائل تكون شعراً منشوراً ، وازدادت فيها عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء والتهويل بشأنهم ، والاقتباس من كلام البلغاء ، وتضمين الأفاذ من أبيات الشعراء . ولا عجب من ذلك اذ كان جميع كتاب دول المشرق الذين اشتهرت على أيديهم

هذه الطريقة من الفرس ، وهم أميل الناس الى الحلية اللفظية ، والغلو في عبارات التمجيد والتعظيم .. ومع هذا لم تفت كتابة هؤلاء جزالة اللفظ وانتقاؤه ، وحسن استعماله في مواضعه ، وجمال أسلوبه .

وكان من الممكن أن تكون هذه الطريقة غير منهكة لقوى البلاغة لو لم يستشر داؤها ، ويسوء استعمالها بعد عصر الذين انتحلوها ، اذ لم يكن من بعدهم على مثل سنتهم في الاحاطة باللغة وعلومها وتربية ملكتها ، فأخطئوا التقليد في اللفظ ، كما حرموا الاجادة في المعنى .

وكان ابن العميد أقلهم التزاما للمسجوع ، وأقربهم الى اتحال المطبوع . وكان كثيراً ما يجعل فقر رسائله أبياتا منشورة ، ويلمح فيها الى الأمثال المشهورة والأحاديث المأثورة ، حتى انطبعت كتابته على التمثيل والحكمة ، فكان منها فصول سائرة ومعان نادرة^(١) . ثم يكون صاحب بن عباد ثانياً ابن العميد في حليته ، وأبلغ من سلك طريقته ، غير أنه أولع بالجناس والسجع ، وكان تياها شديد العجب بنفسه ..

والحقيقة أن صاحب أسرف في ولوعه بالسجع اسرافاً عجيباً ، حتى رنق هذا السجع المتتابع رونق كلامه وحسن نظامه . والتأنق في الصياغة ، وتخير الألفاظ ، وجودة التأليف ، وحسن التنسيق والرصف ، كل ذلك مطلوب ، بل هو ضروري في الفن الأدبي ،

(١) تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي ، للأستاذ أحمد الاسكندري ٢١٧ .

لأنه الذى يميز فنية الأديب صاحب القلم أو صاحب اللسان من غيره من الذين يصطنعون اللغة ويعبرون بها عن أغراضهم ومقاصدهم . ففوة العبارة ومثانة سبكها وجودة رصفها وتخير ألفاظها دليل على تلك الفنية التى تشدها فى الأعمال الأدبية ، وفى الجنس والسجع والازدواج موسيقى تأنس بها النفس ، وتطرب لها الأذن ، ولكن تتابع النغم الرتيب ، يشعر بالتكلف ومجافاة الطبع ، لأن الفن جمال ، وليس جمال الفن الأدبى محصورا فى هذا الضرب من التسيق والتنسيق حتى يفرغ الأديب ما فى كنانته فيه ، فيطغى على ما يتطلب فى العمل الأدبى من فخامة المعانى وروعة الخيال .

* * *

وقد نجد فى كلام صاحب ، بل فى كثير من كلامه ، ما شئنا من وفرة المعنى وروعة الخيال ، غير أن تلك الموسيقى المترادفة فى الأسلوب تطفى على ما تتضمنه العبارة من أسباب القوة فى المعانى وأصالتها إذا كانت ذات قوة وذات أصالة ، فليس الفن الأدبى موسيقى فقط ، وإن كانت الموسيقى مطلوبة فيه ، ولكنها الموسيقى المطبوعة التى لا تشعر بالتكلف والتعمل فى طلبها ، ولا تتغلب على سائر الخصائص المميزة لفن الأدب .

ومن هنا أساء سجع صاحب الى أدبه ، وشوهدت صناعته محاسن فنه ، وكان فى هذه الاساءة والتشويه اماما للذين كانوا بعده فى عصور الظلمة والجهل ، والذين صار أدبهم كالطلاء على غير بناء ، وكالصدى الذى لا يرجع الى أصل . وهى على كل حال طبيعة العصر التى تؤثر فى كل شئ فيه .

ولقد وجد أعداء الصاحب وحسّاده في ذلك الغلوّ مجالا للنيل من أدبه ، والغض من طبعه ، فنسبوه الى التكلف ، ووصفه بعضهم بالرقاعة .

وأكبر الظن أن الذي دفع الصاحب الى هذا المنهج غير ما ذكرنا من طبيعة عصره وأسلوب الذين سبقوه من أساتذته ادلاله بثقافته اللغوية ، وتلك الصنعة تقتضى ثقافة لغوية واسعة ، ومعرفة بالألفاظ المتسقة والمتجانسة والمتوازنة ، والقدرة البارعة على تأليفها ، وذلك لا يحذقه كثير من أرباب الصناعة .



ولكن المزية التي توافرت للصاحب ولم تتوافر لغيره ، هي تلك القدرة الفائقة على هذا التأليف المصنوع من غير روية ولا تحضير ولا تحجير ، حتى أصبحت تلك الصنعة طبعا فيه ، وحتى أصبح غالب كلامه المرتجل يجرى هذا المجرى من الكلام الأنيق المسجوع ، فتراه يقول لأحد رجاله الذين يتولون الكتابة والحساب ، ولم يعجب الصاحب ماكتبوه وما حسبوه : « أهذا حساب ؟ أهذا كتاب ؟ أهذا تحرير ؟ أهذا تقرير ؟ أهذا تفصيل ؟ أهذا تحصيل ؟ والله لولا أنى ربيتك فى دارى ، وشغلت بتخريجك ليلى ونهارى ، ولك حرمة الصبا ، ويلزمنى رعاية الأبأ ، لأطعمتك هذا الطومار^(١) ، وأحرقتك بالنفط والقار ، وأدبت بك كل كاتب وحاسب ، وجعلتك مثلة لكل شاهد وغائب ، أمثلى يموءه عليه ؟ ويطمع فيما لديه ؟ وأنا خلقت الحسابة والكتابة ! والله ما أنام ليلة

(١) الطومار : الصحيفة ، والجمع طوامير .

الا وأحصل في نفسى ارتفاع العراق ، ودخل الآفاق . أغرك منى
أنى أجرت رسنك^(١) ، وأخفيت قبيحك ، وأبديت حسنك ؟
غير هذا الذى رفعت ، واعرف قبل وبعد ما صنعت ، واعلم أنك
من الآخرة قد رجعت ، فزد فى صلاتك وصدقتك ، ولا تعول
على قحتك وصلابة حدقتك ..

وجرى يوما فى مجلسه ذكر أبى سعيد الأبهري المتكلم ،
فقال : لعن الله ذاك الملعون المأبون المأفون ، جاءنى بوجه مكّح ،
وأنف مفلطح^(٢) ، ورأس مسطح ، ولسان مكبح^(٣) ، فكلمنى
فى مسألة الأصلح ، فقلت له : اعزب — عليك لعنة الله — لقيت
الأبرح^(٤) ، الذى يلزم ولا يبرح .

وكثيرا ما كان يدعوهُ تطلب السجع الى استعمال الغريب
الموحش ، المتنافر القبيح ، وقد شتم يوما رجلا فقال « لعن الله
هذا الأهوج الأعوج الأفلج الأفحج^(٥) ، الذى اذا قام تخرج^(٦) ،
واذا مشى تدحرج ، واذا عدا تفجفج^(٧) » .

(١) الرسن الجبل ، وهذا كقولهم « حبلك على غاربك » يريد
تركتك لنفسك !

(٢) أى عريض مفرطح .

(٣) أى لا يقدر على الابانة ، أى أن لسانه كالدابة اذ كبحتها
باللجام ؛ يقال كبح الدابة واكبحتها منعها من السير بشد اللجام .
(٤) دعا عليه بالشر والشدة .

(٥) الأفحج ذو الفحج ، وهو تدانى صدور القدمين وتباعده
العقبين .

(٦) أى اضطرب .

(٧) أى انفرج ما بين رجليه عند المشى ، وهو أقبح من الفحج .

ودخل يوما دار الامارة الفيرزان المجوسى ، فقال له فى شىء خاطبه فيه : « انما أنت مَحْشٌ » (١) مجش مخش ، لا تهش ولا تبش ولا تمتش . » (٢) ! فقال الفيرزان : « أيها الصاحب ، برئت من النار ان كنت أدرى ما تقول ! ان كان رأيك أن تشتمنى فقل ما شئت بعد أن أعلم ، فان العرض لك ، والنفس لك فداء ، لست من الزنج ولا البربر ، كلمنا على العادة التى عليها العمل ، والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ، ولا من أهل دينك من أهل السواد ، وقد خالطنا الناس وما سمعنا منهم هذا النمط » ! فقام الصاحب مغضبا .

وقال ابن عباد لشيخ من خراسان فى شىء جرى : « والله لولا شىء لقطعتك تقطيعا ، وبضعتك تبضيعا ، ووزعتك توزيعا ، ومزعتك تمزيعا ، وجزعتك تجزيعا ، وأدخلتك فى خزائنك — ثم وقف ساعة ، ثم قال : — جميعا (٣) » ..

قال أبو حيان فى وصف هذه الحكاية وهو راويها : وملح هذه الحكاية ينبت فى الكتابة ، وطربها ينقص فى الرواية دون مشاهدة الحال وسماع اللفظ ، وملاحة الشكل فى التحرك والتثنى ، والترنح

(١) المخش بكسر الميم الشجاع ، والمجش بكسر الميم والجشة الرحى ، وأصل المعنى فى هذه المادة : الخشونة والمخش بكسر الميم الجرى على العمل فى الليل ، والفرس الجسور .

(٢) أى لا ينال منك غرض .

(٣) يريد أنه أتم السجع بقوله « جميعا » بعد اذ وقف ، ولو أنها فضلة كلام تافهة ، ولكنه أغرم بالسجع ، فلما وقف جرت على لسانه فقالها .

والتهادى ، ومد اليد ، ولّى العنق ، وهز الرأس والأكتاف ،
واستعمال الأعضاء والمفاصل .

* * *

وكان كثير من سجع صاحب يدعو الى العجب ، ويستوجب الضحك حقا ، فقد قال يوما عن أبى الفضل ابن العميد انه كان « سيدا لم يشق غبارنا ، ولا أدرك شوارنا ^(١) ، ولا مسح عذارنا ^(٢) ، ولا عرف غرارنا ^(٣) ، لا فى علم الدين ، ولا فيما يرجع الى نفس المسلمين . فأما ابنه — يعنى أبا الفتح — فقد عرفتم قدره فى هذا وفى غيره ، طباش ، قلاش ^(٤) ، ليس عنده الا قاش ^(٥) وقماش ، مثل ابن عياش ، والهروى الحواش ، وولدت والشعرى فى طالعى ، ولولا دقيقة لأدركت النبوة ، وقد أدركت النبوة اذ قتت بالذب عنها ، والنصرة لها ، فمن ذا يجاريننا ، أو يبارينا ، ويغارينا ^(٦) أو يمارينا ويشارينا ^(٧) ؟

ومما يدل على ولوع ابن عباد بالسجع ، ومجاوزته الحدفيه

(١) يقال : للدابة شوار ، اذا عرضتها للبيع باجرائها امام المشتري .

(٢) العذار جانب اللحية أى الشعر الذى يحاذى الأذن ، يريد أنه ليس له شعر فى اللحي فيمسه .

(٣) الغرار المثال ، يريد أنه لم يبلغ أن يكون مثالا يحتذى كالذى نحن عليه .

(٤) الطباش الطائش ، والقلاش المحتال .

(٥) القاش اسم للقماش كأنه سمي باسم صوته .

(٦) يفاريننا من غاراه اذا لج معه فى الخصومة .

(٧) المشاركة المجادلة .

بالافراط قوله يوما « حدثني أن ناش ، وكان من سادة الناش »
 جعل السين شيئا ، ومر في هذا الحديث ، قال أبو حيان أن
 صاحب سئل عن هذا فقال : هذه لغة ! وكذب ، وكان كذوبا^(١)
 قال : وكان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجد والهزل
 يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد ، قلت لابن المسيبي :
 أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك ، لو أنه
 رأى سجة ينحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ،
 ويحتاج من أجلها الى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ،
 وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل
 يأتي بها ويستعملها ، ولا يعاب بجميع ما وصفت من عاقبتها .

ثم يقول : بالله يا أصحابنا حدثوني : أهذا عقل رئيس ؟ أم
 بلاغة كاتب ؟ أم كلام متماسك ؟ لم تجنون به ؟ وتتهالكون عليه ؟
 وتغيظون أهل الفضل به ؟ . هل هناك الا الجد الذي يرفع من
 هو أنذل منه ، ويوقع من هو أرفع منه . ولقد حدثت هذا الحديث
 أبا السكَم الشاعر ، فأشددني الشاعر :

سبحان من أنزل الدنيا منازلها	وميز الناس مشنوءا وموموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبه	وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
كأنه من خليج البحر مغترف	ولم يكن بارتزاق القوت محقوقا
هذا الذي ترك الألباب حائرة	وصير العاقل التحرير زنديقا

* * *

والحقيقة أنه لو كان الذى رواه أبو حيان من كلام الصحاح من أمثال مامر صحيحا ، لكان الحكم الذى أصدره عليه صحيحا ، ولكانت الأوصاف القبيحة التى وصفه بها من الرقاعة والجنون وغيرهما صحيحة كذلك . أما أن يكون أبو حيان قد افتعل هذه الأمثال ليشوه تاريخ الرجل ويزرى بأدبه وفنه ، فعلم ذلك عند الله ، وحسابه عند الله ، لأننا لم نقرأ هذه المثل الا فى حكايات هو راويها ، وأمامنا من كتب عنه الفصول الطوال كآبى منصور الثعالبى الذى كتب فى الصحاح وفى أخباره ونوادره وفى مجالسه وشعره ونثره قدرا كبيرا^(١) ، لا نقرأ فيه مثل هذا الأدب الغث الذى رواه أبو حيان ، وكأن أبا حيان كان ولوعا بمثل تلك الطرائف يرويها أو يؤلفها بقلمه البارع ، وخياله الخصب ، ويتم رواياته برواية أخرى لا تقل عن أمثال ما مرّ طرافة ، فيذكر أنه بلغ من ركافة الصحاح أنه كان عنده أبو طالب العلوى ، فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرا ينمقه ويرويهِ يبلق^(٢) عينيه ، وينشر منخريه ، ويثرى أنه قد لحقه غشى ، حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ وما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاي يروقنى ويؤتقنى^(٣) حتى

(١) استغرق الجزء الذى كتبه الثعالبى عن الصحاح فى «يتيمة الدهر» نحو مائة صفحة كبيرة (١٨٨ - ٢٨٦) من الجزء الثالث « مطبعة حجازى - بتحقيق الشيخ محمد محبى الدين عبد الحميد »

(٢) يقال بلق الباب وأبلقه اذا فتحه كله .

(٣) يؤتقنى : يعجبنى .

فارقنى لبى ، وزايلنى عقلى ، وتراخت مفاصلى ، وتخاذلت عرا
قلبى ، وذهل ذهنى ، وحيل بينى وبين رشدى !!

فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ، ويتنفس ويضحك عجباً
وجهاً ، ثم يأمر بالحباء والتكرمة ، ويقدمه على جميع بنى أبيه
وعمه ..

ثم يسوق أبو حيان بعد هذه المقدمات نتيجة يقره عليها كل
من يصدق كلامه ، وهى « من ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن
أشبه ، وبالصبيان الضعاف أمثل ^(١) .. !

أم ترى أن ابن عباد كان يتفكه أو يتندر بمثل هذه الأقوال
فى مجالسه التى كانت تتسع لآيات الجد ، كما كانت لا تضيق
بفنون من الفكاهة والمجون ؟ ولم يكن يدرى أن هنالك حساداً
يحصون عليه كلماته ، ويجعلون من سيئاته حسنات ؟

كل ذلك تتسع له أبواب الافتراض ، وتنبسط أمامه وجوب
الاحتمال ! ولكن هل كان هذا التكلف البادى فى مثل ما سقناه
هو طبيعة أدب الصحاب ؟ أو أنه وحده يمثل خصائص أسلوبه فى
الكتابة ؟

* * *

ان بين أيدينا كثيراً من نثر الصحاب فى رسائله ومقاماته ،
وهى ترقى به وبفنه الكتابى الى الذروة والسنام فى عالم الفن
الكتابى والكلامى . وهاك شيئاً من نمط كتابته ، لتقف بنفسك

(١) معجم الأدباء ٦/٢٣٨ .

على حظ الصاحب من الأدب ، وتنزله ما هو أهل له من رفيع
المنزلة بين الأدباء وحملة الأقلام . وهو فصل من رسالة بعث بها
الى ابن العميد جوابا عن كتابه اليه في وصف البحر :

« وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف
ما شاهد من عجائبه ، وعاین من مراکبه ، وراه من طاعة آلاته
للرياح كيف أدارتها ، واستجابة أدواتها لها متى نادتها ، وركوب
الناس أشباحها ، والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون بمرقب
ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك ، اذا
فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر ، واذا لاحت غرر
المطالب الكثيرة حبب اليهم الغرر ^(١) . وعرفت من تمنيه كونى
عند ذلك بحضرته ، وحصولى على مساعدته . ومن رأى بخير
الأستاذ كيف يزخر بالفضل ، وتتلطم فيه أمواج الأدب والعلم ، لم
يعتب على الدهر فيما يفите من منظر البحر . ولا فضيلة عندى
أعظم من اكبار الأستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما
لا شيء أبلغ في مفاخرة ، وأنفس في جواهره من وصف الأستاذ
له ، فانى قرأت منه الماء السلسال لا الزلزال ^(٢) ، والسحر الحرام
لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفره سعة صدره ،

(١) الغرر بفتح الغين - الخطر .

(٢) يقال ماء سلسل وسلسال وسلاسل سهل الدخول في الجلق

لعدوبته وصفائه .

فلو فعل ذلك لرأى البحر وشلا^(١) لا يفضل عن التبرّض^(٢) ،
وثمدا^(٣) لا يكثر عن الترشف :

وكم من جبال جئت تشهد أنك الـ
جبال وبحر شاهد أنك البحر

* * *

وكتب في تنوير باكورة خلاف قد نور ؛ وأهدى قضيباً منورا
منه :

« لتنوير الخلاف فضائل لا تحصى ، ومحاسن تطول أن
تستقصى ، منها أنه أول ثغر يبسم عنه الربيع ويضحك ، ودرء
يعقد على القضبان ويسبك ، ولتمايله اذكار بقدود الأحباب ،
وتهيج لسواكن الاطراب ، وحمل الى قضيب منه ورداته متعادلة ،
ولذاته متقابلة ، فأفقدته مع رقعتي هذه اليك ، وسألت الله أن
يعيده ألف حول عليك ، وقلت :

وقضيب من الخلاف بديع مستخص بأحسن الترصيع
قد نعى شدة الشتاء إلينا وسعى في جلاء وجه الربيع
وحكى من أحب عرفا وظرفا واهتزازا يثير ماء ضلوعي
رقة ما نظمت نحو بديع الـ مجد حاكى الربيع حسن صنيعي

* * *

(١) الوشل الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل
قطره .

(٢) البرض العليل ، وبرض الماء خرج وهو قليل كابتراض ،
والتبرض أخذ القليل .

(٣) الشمد - بسكون الميم وفتحها - الماء القليل .

وكتب رقعة مع أقلام أهداها ؛ وأكبر الظن أنه أهداها الى
 أستاذه أبى الفضل بن العميد : « قد خدمت دواة مولاي بأقلام
 تتخفف بأنامله ، وتتحمل تفحات فواضله ، وتأنتقت فى بريها فأتت
 كمناكير الحمام ، واعتدال السهام ، خمسة منها مصرية مقومة ،
 عليها حلل مسهمة ، وعشرة منها بيض كأياديه ، وأيام مؤمليه ،
 والله يديم له موادّ نعمته ، ويوفقنى لشرائط خدمته » .

* * *

وهذه رسالة كتبها الى أبى على الحسن بن أحمد فى شأن أبى
 عبد الله محمد بن حامد . قال الثعالبي : وسمعت الأمير أبا الفضل
 عبيد الله بن أحمد يسردها ، فزادنى جريها على لسانه ، وصدورها
 عن فمه اعجابا بها^(١) ، وهى :

« كتابى هذا وقد أرخى الليل سدوله ، وسحب الظلام ذيوله ،
 ونحن على الرحيل غدا ان شاء الله اذا مدّ الصباح غرره ، قبل أن
 يسبغ حجوله ، ولولا ذلك لأطلتته كوقوف الحجيج على المشاعر ،
 ولم أقتصر منه على زاد المسافر ، فان المتحمل له وسيع الحقوق
 لدىّ ، حقيق أن أتعب له خاطرى ويديّ ، وهو أبو عبد الله
 الحامدى أعزه الله تعالى ، كان وافانا مع ذلك الشيخ الشهيد
 أبى سعيد الشيبى السعيد ، رفع الله منازلهم ، وقتل قاتله ، يكتب
 له ، فأنسنا بفضلهم ، وأنسنا الخير من عقله ، فلما فجع بتلك
 الصعبة ، وبما كان له فيها من القرية ، لم يرض غير بابى مشرعا ،
 وغير جنابى مرتعا ، وقطع الىّ الطريق الشاق ، مؤكدا حقا لا يشق

(١) يتيمة الدهر ٢٤٩/٣ .

غباره ، ولا ينسى على الزمان ذماره . وكنت على جناح النهضة
التي لم يستقر نواها ، ولم تبين حصباها ، ولم تلق عصاها ، فأمرج
الحرّ المبتدأ الأمر ، القريب العهد بوطأة الدهر ، حامل عليه
بالمركب الوعر .

» فرددته اليك يا سيدي لتسهل عليه حجابك ، وتمهد له
جناحك ، وترصد له عملا خفيف الثقل ندىّ الظل ، فاذا اتفق
عرضته عليه ، ثم فوضته اليه . وهو الى أن يتفق ذلك ضيفي وعليك
قراه ، وعندك مربعه ومشتاه . ويريد اشتغالا بالعلم ليزيده في
الاستقلال ، الى أن يأتيه ان شاء الله خبرنا في الاستقرار ، ثم له
الخيار ، ان شاء أقام على ما وليته ، وان شاء لحق بنا ناشرا
ما أوليته . وقد وقعت له الى فلان بما يعينه على بعض الانتظار
الى أن تختار له — أيدك الله — كل الاختيار ، فأوعز اليّ
بتعجيله ، واكفني شغل القلب بهذا الحرّ الذي أفردني بتأميله ،
ان شاء الله تعالى . «

وهذه رقعة كتبها الى القاضي أبي بشر الفضل بن محمد
الجرجاني عند وروده باب الريّ وافدا عليه :

تحدثت الركاب بسير أروى الى بلد حططت به خيامي
فكدت أطير من شوقي اليها بقادمة كقادمة الحمام
أفحق ما قيل أمر القادم ؟ أم ظن كأمانى الحالم ؟ لا والله ،
بل هو درك العيان ، وانه ونيل المنى سيّان ، فمرحبا أيها القاضي
براحلتك ورحلك ، بل أهلا بك وبكافة أهلك . ويا سرعة ما فاح

نسيم مسراك ، ووجدنا ريح يوسف من ريتاك ، فحث المطى
تزل غلتي بسقياك ، وتزح علتى بليقياك ، ونص على يوم الوصول
لنجمه عيدا مشرفا ، وتتخذة موسما ومعرفا ، ورد الغلام أسرع
من رجع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك
الصبا في عقل وأسر :

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدتك نحوى يا زياد بن عامر
أصائل قرب أرتجى أن أناها بليقياك قد زحزن حر الهواجر

* * *

وكتب رقعة الى صديق أهدى اليه مصحفا :

البر — أدام الله الشيخ — أنواع ، تطول به أبواع وتقصر
عنه أبواع . فان يكن فيها ما هو أكرم منصبا ، وأشرف منسبا ،
فتحفة الشيخ اذ أهدى ما لا تشاكلة النعم ، ولا تعادله القيم ،
كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ، ووحيه وتنزيله ، وهده
وسيله ، ومعجز رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ، طبع دون
معارضته على الشفاء ، وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه
الثقلان^(١) ، وبقي ما بقى الملوان^(٢) ، لائح سراجيه ، واضح
منهاجه ، منير دليله ، عميق تأويله ، يقصم كل شيطان مريد ،
ويذل كل جبار عنيد . وفصائل القرآن لا تحصى في ألف قران ،
فأصف الخط الذى بهر الطرف ، وفاق الوصف ، وجمع صحة
الأقسام ، وزاد في نخوة الأقلام ، بل أصفه بترك الوصف فأخباره

(١) الثقلان : الانس وانجن .

(٢) الملوان : الليل والنهار .

آثاره ، وعينه فراره ، وحقا أقول انى لا أحسب أحدا ما خلا
الملوك جمع من المصاحف ما جمعت ، وابتدع فى استكتابها
ما ابتدعت ، وان هذا المصحف لزائد على جميعها زيادة الحجج
على العمرة .

ادب العهود :

كانت رسائل الدولة ذوات البال تصدر من ديوان الرسائل
واليه ترد ، ولذلك كان لا يتولاه من رجال الدولة الا فحول
البلاغة ، وأهل العلم والأدب والمعرفة بضروب السياسة ومراسيم
الملوك . وكان النظر فى ديوان الرسائل غالبا للوزير ، اما مستقلا
به ، أو مستنيبا عنه ، لموضعه من ضبط أسرار الدولة ، وحفظ
كرامتها ، وتفخيم شأنها فى أعين الرعية والملوك ، فكان وزراء
الأمراء هم شيوخ الكتاب وأساتذتهم .

وقد تعددت موضوعات الكتابة بتعدد أعمال الدواوين الكثيرة
والرسوم العديدة التى استحدثت فى الدولة ، من كتابة بيعة
لخليفة أو وليّ عهد ، أو عهد لوال أو قاض ، أو منشور بإعلان
أمر سياسى أو دينى .. وبعض هذه الأمور ككتابة عهد الوالى
أو القاضى كان يكتب فى عصر الخلفاء الراشدين وفى عصر بنى
أمية ، غير أنه كان يكتب موجزا ساذجا ، يقتصر فيه على نص
التولية وموجبها بإيجاز . أما فى عصر الدولة العباسية ، فقد كان
كل نوع من الأنواع يكتب بغاية الاسهاب والاطناب ، فالبيعة
كانت تشحن بالايمان المخرجة التى تفنن الكتاب والفقهاء فى

اختراعها ، وكان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة ، وما يجب للأمة على الخليفة . وعهد الوالى أو القاضى يفصل فيه الصفات الحسنة التى رغبت الخليفة فى اختياره ، وعدد البلدان والنواحى التى يتولاها ونوع العمل الذى يعمله من صلاة أو خراج أو حرب أو قضاء ، والوصايا بالأمر التى يجب أن يأخذ بها الرعية ، وغير ذلك مما لم يكن له أصل ، أو كان له أصل غير مستوفى^(١) .

تلك هى الرسائل الديوانية التى برزت بين فنون الكتابة الانشائية ، بل ان هذه الرسائل الديوانية هى التى أبرزت عدداً كبيراً من رجال القلم فى أدبنا العربى ، وعلى قدر خطورة هذه الرسائل وموضوعاتها كان خطر كتابها وعظم شأنهم فى الحياة العامة بين مدبرى شئون الدولة ومصرّفى أمورها ، وكذلك فى حياتهم الخاصة اذ ترتب على مزاولتهم هذا الفن بروز شخصياتهم وتقدمهم على أكثر طبقات المجتمع .

ولقد كان صاحب من أولئك الوزراء الكتاب الذين ارتقى بهم القلم الى درجة التدبير ، فلما وصلوا الى درجة التدبير والتصريف لم ينسوا ماضيهم الفنى فى صناعة القلم ، بل اتخذوا من هذه الصناعة ما يدعم الوظيفة والمنصب ، وهكذا خدم القلم الدولة فدبّر أمورها ، وحل مشاكلها ، وخدمت الدولة أصحاب القلم ، فبلغوا أقصى ما يتمناه أصحاب الصناعة الفنية .

* * *

(١) تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى ، للأسكندرى :

وقد قرأنا بعض النماذج للرسائل الاخوانية التى دبجتها
يراعة الصاحب فى الوفاء وفى الوصف وفى الشفاعة وفى الشكر
وفى بث الأشواق . وهى رسائل تفيض بشرح العواطف الانسانية،
وتعبّر عن المشاعر التى يجدها الكاتب نحو مظاهر الحياة ونحو
الأحياء .

وبقى أن نذكر شيئا من رسائله الديوانية ، فى ناحية واحدة،
ولكنها أهم نواحيها الكثيرة ودواعيها المتعددة ، وتلك هى
« العهود » التى كان يكتبها الصاحب عن الخليفة أو عن السلطان
فى اسناد بعض أعمال الدولة الى بعض الرجال التى اجتمعت
فيهم الصفات التى ترشحهم لولاية تلك اعمال .

وسرى الصاحب فى كتابة هذه « العهود » كما عهدناه فى
سائر كتاباته الاخوانية أو غيرها رجل الصنعة البليغ ، ولكن هذه
الصنعة التى أصبحت طبعا عند الصاحب حتى فى كلامه الجارى
وفى حديثه المرسل ، تتوارى هذه الصنعة ، وكأنه لم تكن صنعة ،
أمام فيض المعانى البارزة والأفكار الواضحة والتعاليم الرشيدة،
فلا يبدو أبدا أن فى هذه العهود عبارة مقسورة أو لفظا مجتلبا ،
وانما هى العبارة الناصعة المتحملة لأجود المعانى وأوضحها . وقد
استجمعت تلك العهود سائر الخلال المستحبة ، والمثل المتمنة فى
شاغلى تلك المناصب ، ومن تسند اليهم تلك الأعمال ، بحيث
يعزّ على الباحث أن يجد قصا اذا طلبه ، أو يشعر بخطأ فيما
ينبغى أن يكون كما تصوره الصاحب من المثل والفضائل والحقوق
وللتكاليف والآداب التى تتطلبها الانسانية ، وتقتضيها رعاية

العسل والنهوض به على أكمل وجه . وتلك ميزة كبرى للعهود
التي كتبها صاحب ، ففيها دليل عقله ، وحسن تقديره ، وفيها
أروع المثل لبناء الأمة الفاضلة ، والدولة الناهضة .

ونسرع بك الى نموذج من هذه « العهود » كتبه صاحب
الى قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد ، حين عينه فى ولاية القضاء
فى جرجان وطبرستان ، وما يليهما من أعمال ، بالاضافة الى قضاء
الرى الذى كان يتولاه من قبل . وقد أشرنا الى فاتحة هذا العهد
عند كلامنا على مدى وفاء هذا القاضى لذكرى ولى نعمته صاحب
ابن عباد ، ونذكر بغيته فيما يأتى :

(١) تقوى الله :

« أمره بتقوى الله مفتاح الخيرات المنجية ، ومغلاق الشهوات
المردية ، الداعية من استشعرها لباساً ، وجعلها قاعدة وأساساً
الى أجدى الأقوال ، وأزكى الأفعال ، وأرضى الأحوال ،
الكاسية من اطرحها وراء ظهره ، وصرفها عن سبيله وأمره ،
خسران الصفقة ديناً ودنيا ، وانحلال الرتبة أولى وأخرى ، لا
تقبل منه حسناته ، ولا تكفر عنه سيئاته ، يوم تسود وجوه
المجرمين ، وتبيض وجوه المؤمنين » وينجى الله الذين اتقوا
بمفاضتهم لايمسهم السوء ولاهم يحزنون .

(٢) كتاب الله :

« وأمره بأن يجعل مصباحه فى ظلم الأمور ، واستنجاهه فى
الحكم بين الجمهور ، كتاب الله الذى أنزله ، وبيّنه وفصله ،

وأودعه ما قدم وما حدث ، ونصبه حجة على من ورث وورث ، لا تنزف بحاره ، ولا تبلغ أغواره ، ولا تكسف أضواؤه ، ولا تخلف أنواؤه ^(١) ، ولا تلبس مذهبها ، ولا تنقض عجائبه ، قاطعة أحكامه ، ساطعة أعلامه ، كاف الزامه ، اليه يرجع كل ذاهب ، وبه يجمع كل ناكب ، ليس عن محجته معدل ، ولا يستبدل . بحجته مستبدل « تنزيل من حكيم حميد » .

(٣) سنة رسول الله :

« وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — تالية كتاب الله في الاقتداء ، وجارية مجراه في الاقتفاء ، اذ كانت العروة التي لا تنفصم ، والعمدة التي لا تنشلم ، والصراط الذي لا يميل ، والبرهان الذي لا يستحيل ، قد رتبها الله بيانا لما أشكل ، ولسانا لما أعضل ، وعيانا لمن غاب ، وإيقانا لمن ارتاب ، فالتمسك بها ناج يوم الخيفة ، راج للدرجات المنيفة ، والمخل بها مدخول دينه ، خفيفة موازينه ، ومن يرد الله به خيراً يهيئ له من أمره رشداً .

(٤) إجماع المسلمين :

« وأمره بأن يتلقى الاجماع بالاتباع ، ويحترس معه من الابتداع والاختراع ، فقد خص الله بفضيلته أمتنا دون الأمم

(١) الأنواء جمع نوء ، وهو سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقبته من المشرق ، يقايله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد الى الساقط منها ، وقيل الى الطالع منها ، لأنه في سلطانه .

الماضية ، وشرفهم به على القرون الخالية . وهو جبل من الله ممدود ، وكنف في دين الله ممهود ، لا تضطرب أسبابه ، ولا يهتك حجابيه ، ولا تعمل الآراء مع وجوده ، ولا تسوغ العبرة^(١) بعد معقوده « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

(٥) القياس والاجتهاد :

« وأمره اذا عرض له مالم يفصح به الكتاب نصاً واسماعاً ، وان لم يفرض فيه تضميناً وايداعاً ، ولم تأت به السنة كشفاً وتنويهاً ، وان اشتملت عليه فحوى وتنبيهاً ، ولم يسبق فيه اتفاق ، ولا يسع من بعده افتراق ، أن ينظر نظراً يفعمه ، ويصابر الفكر فيه فلا يسأمه ، فان الله اذا علم أن الحق بغيته ، والصلاح نيته ، أدى به الى ما يريد ، ووقفه فلا يضل ولا يحيد ، ورفده بصائب الخواطر ، وهياً له أجلى الأشباه والنظائر ، ولم ييهم سبيل الرشاد دونه ، وجعله بلطفه من الذين يستنبطونه^(٢) .

« وأمره بأن يكون اختياره اذا اختار ، وايثاره اذا اعتمد الايثار ، من أقوال السلف المشهورين ، وفقهاء الأمة المذكورين ، رحمة الله عليهم أجمعين ، لا يعرج بالمذاهب الشاذة ، ولا يتقبلها ، ولا يترخص في الأقوال الشاردة ، ولا يتحملها ، ويصدر أحكامه

(١) العبرة : الاعتبار ، وفي مصطلح الفقهاء القياس .

(٢) يشير هنا الى الآية الكريمة « ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

عن قول شهيد وبيان مستير ، واستبصار واضح المنهاج ،
واعتبار متألّئ السراج » والله يهدى من يشاء الى
صراط مستقيم .

(٦) الشورى :

« وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة ، والمباحثة لأولى
المعارف الموفورة من الفقهاء الذين جعلهم الله للأحكام قنية ،
وللاسلام حلية . فانه وان كان موصوفا بالاستقلال ، فما أحد
خلق للكمال . وقد جعل الله في وفور العدة مزية لم يجعلها
للوحدة ، وعرف في الاستمداد والاستكثار فضيلة لم يوجد لها
في الاستبداد والاستئثار . ثم له الامضاء اذا استشار ، والقضاء
اذا تخير واستخار ، فقد أفصح منطوق الذكر بقوله تعالى
« وشاورهم فى الأمر » .

(٧) أخلاق القاضى ومسئوليته :

« وأمره بأن يهذب نفسه قبل أن يهذب عمله ، ويؤدب
عادته قبل أن يؤدب من قبله ، ويروض أخلاقه على الحلم ، فانه
أحمد ما اعتاد ، والصبر ، فانه أفضل ما ارتاد ، لئلا يقضى فى
حال قلق أو غلق^(١) ، أو غيظ أو حنق^(٢) ، أو ضجر أو ملال ،
أو حرج أو كلال ، بل ينظر بين الخصوم ، وقد سدّ خصاصته^(٣) ،

(١) الغلق : الاشكال ، يقال كلام غلق - بكسر اللام - أى مشكل .

(٢) الحنق : الغيظ .

(٣) الخصاصة : الفقر .

وقضى عامة أربه وخاصته ، واستظهر بملك نفسه واربه (١) ،
وعرك المساخط والمعايط بجنبه، ليؤدى فرض الله فى عظيم ماتطوقه
من الفروج والدماء ، ويحتذى أمر الله فى جسيم ما اعتنقه من
حقوق الدهماء (٢) . فان الله سائله يوم تشهد الأشهداد ، ويحشر
العباد عن قليل ذلك وكثيره ، ومحاسبه على صغير ذلك وكبيره
« لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر
من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين »

(٨) العدل بين الخصوم :

« وأمره بأن يعدل بين الخصوم فى مجالس قضاائه ، ويعمهم
بحسن استماعه واصفائه ، ولا يعجل بمن قد غشيته هيبة الحكم
فيحصر (٣) ويخرج ، ولا من ملكته روعة الخصم فيحسر (٤)
ويتلجلج ، ولا يقسم لواحد منهما فى لفظه اذا لفظ ، ولحظه اذا
لحظ ، الا مثل الذى يقسمه لصاحبه ، ويوجهه لمنازعه ومجاذبه ،
لئلا يطمع قوى فى انظلام ضعيف ، أو يجزع مشروف من
اهتضام شريف (٥) . فالحق أكبر من كل ذى محل وثروة ، والدين

(١) الارب - بكسر فسكون - هنا العقل .

(٢) الدهماء عامة الناس .

(٣) الحصر : العى والعجز عن الكلام .

(٤) يحسر : يعجز .

(٥) مأخوذ من رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى
فى القضاء من قوله « آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ،
حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا يئس ضعيف من عدلك » .

أعظم من كل ذي منزلة وحظوة . والله على كل قاض فيما يخفيه فيبطنه ، أو يبيديه فيعلنه ، رقيب لا تلحقه غفلة ، وحسيب لا تفوته خصلة « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » .

(٩) اختيار الأعوان :

« وأمره أن يتخير كهفاته وخلفاءه ، وكتابه وأمناءه ، فمن فصح وعفّ وصلح وكفّ أقره ، وفسح له ممره ، ومن صدف عن التورع والظلف ^(١) ، وانحرف الى الجشع والنطف ^(٢) قدّم عزله ، وحسم عن المسلمين ككّله ^(٣) ، فالمرء مسئول عن بطائته ، كما هو مسئول عن أمانته «يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» .

(١٠) الفحص عن الشهود :

« وأمره بأن يتصفح الشهود تصفح من عدالة المسلمين أثر إليه من الجرح ، وسلامتهم في الدين أوقع لديه من القدح ، فالمسلمون بطواهرهم عدول ، الا من ثبت منه فسوق أو غلول ^(٤) ، وأن يخبر أحوالهم بعد ألا يقبل ظنينا ^(٥) ولا عبدا ، ولا من أقام عليه القذف حدا ، ويستشفهم فيما يصدرون ويوردون ، ويتحملون ويؤدون ، لئلا يقدم أحدهم في شهادته على لبس ، أو يهجم به

(١) الظلف : الخشونة ، والمراد : الزهد .

(٢) النطف : الشر والفساد والعيب .

(٣) الكل - بالفتح - المصيبة .

(٤) الغلول : الخيانة .

(٥) الظنين : المتهم .

ضعف درايته على زيادة أو نقص ، فما كل الشهود يؤتى من سوء السريرة ، وانما يؤتون من سوء المعرفة والبصيرة ، ولذلك فضل من فضله علمه ، وقدم من قدمه فهمه « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟

(١١) أموال اليتامى :

« وأمره بأن يحتاط على مال اليتيم بالاحتياط الشديد ، فلا يعوّل في حفظه الا على الأمين السديد ، ويوكل به عينا من ملاحظته ، ويذا من حفظه ومحافظته ، ليؤمن فيه الأكل بالباطل ، والتعريض لخبث المطاعم والمآكل ، ولينفق منه عليه اتفاقا وسطا في التقدير بين التبذير والتقتير ، الى أن يبلغ الحلم والنكاح ، ويستكمل الرشد والصلاح ، فيحصل ماله في يديه ، ويشهد به عليه ، « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنيا فليستغفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا . »

(١٢) الموارث :

« وأمره بأن يضع الموارث اذا دفعت اليه مواضعها من الاستحقاق والاستيجاب ، ويوصلها الى أربابها بالأنساب والأسباب على فرائض الله فيما سمى وأسهم ، وأبقى بعد ما قسم ، وأن يجرى ذوى الأرحام على ما رآه أكثر الأمة ، وقال به جمهور

الأئمة من ايجاب التوريث عند فقد ذوى التعصيب ، فلو لم يكن فى ذلك الا حراسة التراث عن معارضة عمال المعاون^(١) والأحداث لوجب تغليب من هذه فتياه ، والحق فيها غرضه وممرماه . فكيف وقد تلى فى نص كلام الله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » .

(١٣) الرجوع الى الحق :

« وأمره ألا ينسخ حكم القضاة قبله اذا كان مما يسوغ الرأى مثله ، فلو نقض الاجتهاد بالاجتهاد لما استقرت أحكام قضاة البلاد . وان هو وجد من ذلك ما خالف اجماع الحجة ، وخرج عن اتفاق الأمة أتى فيه ما يلزمه تلافيه ، فالباطل أولى بأن يدفع ، والحق أحق أن يتبع »

(١٤) تزويج الأيامي :

« وأمره بتزويج الأيامي^(٢) اللاتى ولايتهن اليه ، وعقدتهن بيديه ، متخيرا الأكفاء ، وطالبا فى الصدقات^(٣) الوفاء ، عالما بأن تقديم ذلك أدعى الى العفاف ، وأرجى للكفاف ، وأقرب الى العدل ، وأبعد من العضل^(٤) ، وقد قال الحكيم الرحيم فى

(١) المعاون : الشرطة .

(٢) الأيامي : الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء ، الواحد منهما (أيم) سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج . وامرأة أيم بكرا كانت أو ثيبا .

(٣) الصدقات ، جمع صدقة - بفتح فضم - والصداق - بفتح الصاد وكسرهما - مهر المرأة .

(٤) العضل : المنع من التزويج .

القرآن المبين » وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم
وامأئكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم .

(١٥) رعاية الأوقاف :

« وأمره بأن ينصب للوقوف من يحسن وقوفه عليها وقيامه ،
ويصدق اشتغاله بها واهتمامه ، لئلا تبور أصولها بالضياع ،
أو تقوت حقوقها باقتطاع ، ولتجرى أقسامها على ذللها ، وتصرف
في وجوهها وسبلها ، وتحمل عن مكائد من يسعى في نقضها برأى
من آراء المجتهدين ، ويتأني لحلها بفتوى من فتاوى المختلفين
» فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يدلونه .

(١٦) انظار المسرين :

« وأمره اذا ثبت عنده الاعسار أن ينظر ويمهل ، ويؤخر
ويؤجل ، فان الله فرق بين ذي المتربة^(١) والمقدرة ، فقال « وان
كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة » .

(١٧) ضرب السكك (العملة) :

« وأمره بأن ينصب لحفظ السكك في دور الضرب أمناء
يحرسون العيار ، ويعرفون السبك والاعتبار ، ليكون ما يطبع
على الامام^(٢) المعلوم ، والمثال المرسوم ، فلا يستطيع من أراد

(١) المتربة : المسكنة والفاقة ، ومسكين ذو متربة أى لاصق
بالتراب .
(٢) المقصود بالامام المعلوم النموذج الذي يضرب النقود على
مثاله .

دغلا^(١) أن يوقع خلا ، فتجرى المعاملات على السداد ، وتحفظ النقود عن الفساد ، « والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .

(١٨) درء الحدود بالشبهات :

« وأمره اذا رفع اليه ما يوجب حدا أو قطعا أو قتلا أو جلدا أن يأخذ بأبعد المذاهب من اباحة ظهر المسلم فانه الحمى ، وارقة دمه فانه الحرمة العظمى ، وابانة أعضائه فالأصل الحظر ، ولا اطلاق ما استعجم الأمر ، وأن يجرد عند ذلك المسألة عن البينات ويأخذ بالسنة في درء الحدود بالشبهات ، فان وضع له ما يوجب اقامة الحدّ أنهاء وتفذه بحكم الله ، ولم تأخذه رافة في دين الله .

هذا عهدنا اليك ، وعهد الله به عليك لم نألك فيه تذكيرا ، وان كنت به بصيرا ، ولم ندخر عنك بيانا ، وان كنت تقتله علما وايقانا . فاستخر الله المقيت يلقك سدا ، ويؤتلك ما بقيت رشدنا ، اليه تفويضنا فيما نبديء ونعيد ، وعليه تعويلنا فيما نعزم ونريد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * *

تلك صورة تخيرناها من العهود المستفيضة التي كتبها صاحب ، واذا صرفنا النظر عن صياغتها الفائقة وأسلوبها الممتاز ، فانا نجد فيها دقة واحكاما لما تضمنته من الأوامر والتوجيهات والأحكام التي تتصل بمصالح الرعية ، وتدل على معرفة صاحب وفقهه ،

(١) الدغل - بفتحيتين - الفساد مثل الدخل .

فقد ذكر فيها أصول التشريع ومصادر الأحكام ، وهى : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واجماع المسلمين ، والاجتهاد والقياس فيما لا نص عليه من كتاب أو سنة أو اجماع على مثله مما له نص من الكتاب والسنة والاجماع . كما ذكر ضرورة الشورى فيما يحتاج اليها ، وحذر من الاستبداد واطاعة الهوى ، ونبه القاضى الى رياضة نفسه وتهذيبها ، والعدل بين الخصوم ، والعناية بتخير أعوانه وأمنائه ، والفحص عن الشهود والاستيثاق من عدالتهم ، ورعاية اليتامى واتباع أحكام الموارث ، وعدم نقض الأحكام الا اذا ثبت خطؤها ، وتزويج الأيامى ، ورعاية الأوقاف ، والتخفيف على المعسرين ، ودرء الحدود بالشبهات . وكلها تتصل بأعمال القاضى وما ينظر فيه .

وهذا العهد كما رأينا طابعه الايجاز ، وان بدا طويلا فلكثرة ما عرض له من الواجبات ، كما رأينا استشهاده فى أكثر مسائله بآيات من كتاب الله يدعم بها أوامره ، ويؤيد بها نصيحته ، وما أجدر الأدباء بهذه الثقافة التى تعرفهم مناهج الحق ، وما أجدر من يتولون الفصل بين الناس بتدبر أمثال هذا العهد الفريد .
وانك لتقرأ كثيرا من أمثال هذا الأدب العالى والنمط الفريد فى مجموع رسائله التى كتبها فى أغراض مختلفة ، وكلها تشهد بالأصالة والقدرة على الابداع (١) .

* * *

(١) طبعت هذه الرسائل فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٤٧) وصححها وقدم لها المرحوم الدكتور =

وللصاحب غرر من فقر ألفاظ تجرى مجرى الأمثال ، منها ما
 أخرج الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد في كتابه الذي سماه
 « ملح الخواطر ، وسيح الجواهر » ومنها مما أخرجه الثعالبي :
 من استباح البحر العذب استخرج اللؤلؤ الرطب
 من طالت يده بالمواهب امتدت إليه ألسنة المطالب
 من كفر النعمة استوجب النقمة
 من نبت لحمه على الحرام لم يحصده غير الحسام
 من غرته أيام السلامة حدثته ألسن الندامة
 ربّ لطائف أقوال تنوب عن وظائف أموال
 الصدر يطفح بما جمعه ، وكل اناء مؤد ما أودعه
 الشمس قد تغيب ثم تشرق ، والروض قد يذل ثم يورق
 العلم بالتذاكر ، والجهل بالتناكر
 الضمائر الصالح أبلغ من الألسنة الفصاح
 الآمال ممدودة ، والعواري مردودة

= عبد الوهاب عزام والدكتور شوقي ضيف . وقد نسقت في عشرين
 بابا يشتمل كل باب منها على عشر رسائل ، عدا الباب التاسع
 والعاشر والخامس عشر فان كل باب منها يشتمل على احدى عشرة
 رسالة ، والباب السابع عشر فانه يشتمل على أربع رسائل .
 وليست هذه الرسائل مع كثرتها وغزالتها كل ما كتب الصاحب .
 وفي يتيمة الثعالبي منها كثير .

متن السيف لين ، ولكن حده خشن ، ومتن الحية ألين ، وناجها
أخشن .

بعض الحلم مذلة ، وبعض الاستقامة مزلة
قد ينبح الكلب القمر ، فليلقم النابح الحجر
ربما كان الاقرار بالقصور أنطق من لسان الشكور
ربما كان الإمساك عن الاطالة أوضح في الابانة والدلالة
تلقى الاحسان بالجحود تعريض النعم للشروء
ما كل طالب حق يعطاه ، ولا كل شائم مزن يسقاه
ان الأحداث لا رياضة لهم بتدبير الحوادث
من ثقلت عليه النعمة خف وزنه ، ومن استمرت به الفرة
طال حزنه

* * *

وللصاحب من التوقعات — وهى التعليقات الموجزة الحكيمة
التي اشتهر بها بعض الخلفاء والوزراء والكتاب — التي كان
يكتبها غفو الخاطر ، تعليقا على بعض ما كان يرفع اليه ما يشهد
على علو كعبه في البلاغة ، وبعضها كان يقتبسه من كتاب الله ،
ومنها :

(١) كتب انسان رقعة ، وقد أغار فيها على رسائله ، وسرق
جملة من ألفاظه ، فوقع الصاحب فيها « هذه بضاعتنا ردت إلينا »
(٢) ووقع في رقعة استحسناها « أفسح هذا أم أتم
لا تبصرون » ؟

(٣) ووقع في رقعة أبى محمد الخازن ، وكان ذهب مغاضبا ،

كتب اليه يستأذنه في معاودة حضرته « ألم نربك فينا وليدا
ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت » ؟

(٤) وكتب بعض العمال رقعة الى صاحب في التماس شغل ،
وفي الرقعة « ان رأى مولانا أن يأمر بأشغالي ببعض أشغاله »
فوقع صاحب تحتها : « من كتب اشغالي لا يصلح لأشغالي » !

(٥) ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى صاحب في
ظلامه لهم مترجمة بالضرايين ، فوقع تحتها « في حديد بارد » !

(٦) ووقع على رقعة لأبى الحسن الشقيقى البلخى : « من نظر
لدينه نظرنا لدنياه ، فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك
الفضل والتمهيد ، وان أقمت على الجبر فليس لكسرك من جبر » !

(٧) ورفع اليه بعض منهى الأخبار أن رجلا ممن ينطوى له
على غير الجميل يدخل داره في الناس ، ثم يتلوم على استراق
السمع ، فوقع « دارنا هذه خان ، يدخلها من وفى ومن خان » !
غير الجميل يدخل داره في الناس ، ثم يتلوم على استراق السمع ،
فوقع « دارنا هذه خان ، يدخلها من وفى ومن خان » !

(٨) وكان مكىّ المنشد قد اتتاب صاحب بجرجان ، وكان
قديم الخدمة له ، فأساء أدبه غير مرة ، فأمر صاحب بحبسه ،
فحبس في دار الضرب ، وهى بجواره بجرجان ، فاتفق أنه صعد
يوما سطح داره لحاجة في نفسه وأشرف على دار الضرب ، فلما
رآه مكىّ نادى بأعلى صوته « فاطلع فرآه في سواء الجحيم »
فضحك صاحب وقال « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ! ثم أمر

باطلاقه . وهذا الخبر وان لم يكن من التوقيعات المكتوبة الا أن له
ما للتوقيع المكتوب من حضور الذهن وسرعة الجواب !

ما عد من سرقاته :

وقد كانت الثقافة الأدبية الواسعة التي حصلها صاحب ،
وأفادها من أساتذته وجلسائه وقراءاته ، ذات أثر واضح في
أسلوبه الكتابي الذي يبدو فيه تأثره بالمعاني والأفكار التي علقت
بذهنه مما قرأ وحفظ من كتاب الله تعالى ، ومن حديث الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وكلام فصحاء العرب وشعرائهم على مر
العصور ؛ ولم تكن هذه الافادة معدودة من عيوب الكاتب أو من
عيوب كتابته ؛ بل كان بعضهم يرى أن هذه الافادة ضرورية لتدل على
مبلغ حفظه واطلاعه على عيون الأدب وفنون القول ، وهي ثقافة
لازمة للأديب بعامة ، ولأولئك الأدباء الكتاب المكثرين بخاصة ،
حتى عقد ضياء الدين بن الأثير فصلا في « الطريق الى تعلم الكتابة »
وقال انه وجد الطريق ينقسم فيها الى ثلاث شعب :

الأولى : أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على
أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني ، ثم يحذو حذوهم ، وهذه
أدنى الطبقات .

الثانية : أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من
زيادة حسنة ، اما في تحسين ألفاظ ، أو في تحسين معان ، وهذه
هي الطبقة الوسطى ، وهي أعلى من التي قبلها .

الثالثة : ألا يتصفح كتابة المتقدمين ، ولا يطلع على شيء فيها ،

بل يصرف همه الى حفظ القرآن الكريم ، وكثير من الأخبار النبوية ، وعدة من دواوين فحول الشعراء ، ممن غلب على شعره الاجادة فى المعانى والألفاظ . ثم يأخذ فى الاقتباس من هذه الثلاثة ، أعنى القرآن ، والأخبار النبوية ، والأشعار . فيقوم ويقع ، ويخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدى ، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريقة أن تكون مبتدعة غريبة ، لا شركة لأحد من المتقدمين فيها . وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعد اماما فى فن الكتابة ، كما يعد الشافعى وأبو حنيفة ومالك — رضى الله عنهم — وغيرهم من الأئمة المجتهدين فى علم الفقه ، الا أنها مستوعرة جدا ، ولا يستطيعها الا من رزقه الله تعالى لسانا هجاما ، وخطرا رقاما .

ثم قال ابن الأثير : وقد سهلت لك صعابها ، وذلك محاجها ، وكنت أشح باظهار ذلك لما عاينت فى نيله من العناء ، فانى سلكت اليه كل طريق حتى بلغته آخرها ، وانما تكون نقاسة الأشياء لعزة حصولها ، ومشقة وصولها .. ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لى عن أسرارها ، وأظفرتنى بكنوز جواهرها ، اذ لم يظفر غيرى بأحجارها ، فما وجدت أعون الأشياء عليها الا "حل" آيات القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، وحل الأبيات الشعرية .. ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مرتبطا فى كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم والأخبار النبوية والشعر ، بحيث أنه لا ينشئ كتابا الا من ذلك ، بل أريد أنه اذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نقب عن

ذلك تنقيب مطلع على معانيه ، مفتش عن دفائنه ، وقلبه ظهراً
لبطن ، عرف من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ،
واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية (١) ..

والسبب في ذلك ما قدمنا من حاجة الكتاب المكثرين الذين
يكتبون الرسائل الطوال في كل يوم في شئون مختلفة ،
ولا يقتصرون على ما يؤدي الغرض المقصود في كلمات موجزة ،
وعبارات قصيرة ، تقتصر على الخبر أو تقف عند حدود الأوامر
والنواهي ، والا تساوت الرسائل ، وتعاذل الكتاب ، ولم يظهر
بينهم من الفروق ما يمكن أن يقال معه : هذا فاضل وذاك مفضول ،
أو هذا أفضل ، بل ان الصناعة وما تقتضي من التألق هي التي تميز
كاتباً من كاتب ، فكان في هذا التحصيل مدد كبير ، وعون أي
عون على بلوغ ما كانوا يتطلعون اليه من الاجادة والتميز ..

وقد أورد أبو منصور الثعالبي بعض الأمثلة من حل صاحب
ابن عباد أبياتا لأبي الطيب المتنبى ، وأدخلها في كلامه ، بعد أن
قال : « واتخذ الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الوقعة ، ويتبع
عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ، وهو أعرف
الناس بحسناته ، وأحفظهم لها ، وأكثرهم استعمالاً إياها ، وتمثلاً
بها في محاضراته ومكاتباته ، وكان مثله معه كما قال الشاعر :

شتمت من يشتمني مغالطاً لأصرف العاذل عن لجأته
فقال : لما وقع البزاز في الثوب علمنا أنه من حاجته

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١٢٩/١ .

وكما قال الآخر :

وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها ولم أر كالدنيا تدم وتحلب

وكما قال الآخر :

نبئت أنى إذا ما غبت تشتمنى قل ما بدالك فالمحبوب مسبوب
ومما مثل به الثعالبي من حلّ الصاحب نظم المتنبي .

(١) قول الصاحب في فصل له من رسالة في وصف قلعة افتتحها
عضد الدولة « وأما قلعة ... فقد كانت بقية الدهر المديد والأمد
البعيد تعطس بأنف شامخ من المنعة ، وتنبو بعطف جامع على
الخطبة ، وترى أن الأيام قد صالحتها على الاعفاء من القوارع ،
وعاهدتها على التسليم من الحوادث ، فلما أتاح الله للدنيا ابن
بجدة^(١) ، وأبا بأسها ونجدتها ، جهلوا بون^(٢) ما بين البحور
والأنهار ، وظنوا الأقدار تأتيهم على مقدار ، فما لبثوا أن رأوا
معقلهم الحصين ومثواهم القديم نهزة الحوادث ، وفرصة البوائق
ومجرّ العوالى^(٣) ، ومجرى السوابق » .. وانما ألم فيه بالفاظ
بيتين لأبى الطيب ، أحدهما :

حتى أتى الدنيا ابن بجدةها فشكا إليه السهل والجبل

(١) بجدة الشيء : أصله وباطنه ، وابن بجدةها : يقال للعالم
بالشى ، وللدليل الهادى .

(٢) البون : الفضل والمزية .

(٣) العوالى : الرماح ، جمع عالية وهى فى الأصل أعلى القناة
أو رأسه أو النصف الذى يلى السنان .

والآخر :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرّ عوالينا ومجرى السوابق
(٢) قول صاحب في فصل له : « لئن كان الفتح جليل
الخطر ، عظيم الأثر ، فان سعادة مولانا لتبشر بشوافع له ، يعلم منها
أن الله أسراراً في علاه لا يزال يديها ، ويصل أوائلها بتواليها »
وهو من قول أبي الطيب :

ولله سرّ في علاك وانما كلام العدا ضرب من الهذيان
(٣) وقول صاحب : « ولو كان ما أحسنه شظية في قلم
كاتب لما غير خطه ، أو قذى في عين نائم لما اقتبه جفنه » . وهو من
قول أبي الطيب :

ولو قلم ألقيت في شق رأسه
من السقم ما غيرت من خط كاتب

وقول نصر :

ضنيت حتى صرت لوزج بى في ناظر النائم لم يتنبه
ومنه أخذ ابن العميد قوله :

فلو ان ما أبقيت في جسدى قذى

في العين لم يمنع من الاغفاء

(٤) وقول صاحب في فصل من كتاب في التعزية « اذا كان
الشيخ القدوة في العلم وما يقتضيه ، والأسوة في الدين وما يجب
فيه ، لزم أن يتأدب في حالات الصبر والشكر بأدبه ، ويؤخذ في
تارات الأسى والأسى بمذهبه ، فكيف لنا بتعزيته عند حادث رزيته ،

الا اذا رويانا له بعض ما أخذناه عنه ، وأعدنا اليه طائفة مما
استفدناه منه ؟ » وانما هو حلّ من قول أبي الطيب :

أنت يا فوق أن يعزّي عن الأحـ

باب فوق الذي يعزّيك عقلا

وبألفاظك اهتدى فاذا عزا

ك قال الذي قلت قبلا

(٥) ومن فصل للصاحب « وقد أثنى عليه ثناء لسان الزهر

على راحة المطر » .. وهو من قول أبي الطيب :

وذكيّ رائحة الرياض كلامها

تبغى الثناء على الحيا فيفوح^(١)

والأصل فيه قول ابن الرومي :

شكرت نعمة الولي على الوسـ

مى ثم العهد بعد العهد^(٢)

فهى تشي على السماء ثناء

طيب النشر شائعا في البلاد

من نسيم كأن مسراه في الأرـ

واح مسرى الأرواح في الأجساد

(٦) ومما أورده الصاحب من أبيات أبي الطيب كما هى قوله

(١) الحيا المطر . شبه رائحة أزهار الرياض بالكلام ، ثم بين
أن الرياض أرادت أن تتحدث عن صنائع المطر ، فأرسلت عبير
أزهارها تحدث عنه .

(٢) الولي المطر بعد مطر ، والوسمى مطر الربيع ، والعهد -
بكسر العين - أول المطر ، وفاعل شكرت ضمير يعود الى الرياض .

في كتاب أجاب به ابن العميد عن كتابه الصادر اليه عن شاطئ
البحر في وصف مراكبه وعجائبه « وقد علمت أن سيدنا كتب
وما أخطر بفكره سعة صدره ، ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلالا
يفضل عن التبرّض^(١) ، وثمر لا يكثر عن الترشف^(٢) :

وكم من جبال جبت تشهد أننى الـ

جبال وبحر شاهد أننى البحر^(٣)

(٧) وللصاحب من رسالة في التهنئة بينت أولها : « أهلا
بعقيلة النساء ، وكريمة الآباء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ،
والأولاد الأطهار ... ثم يقول فيها :

ولو كان النساء كمثل هذى

فضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب

ولا التذكير فخر للهِلال

وهما لأبى الطيب من قصيدة في مراثية والدة سيف الدولة ،
الا أنه يقول : * ولو كان النساء كمن فقدنا * .

(٨) وللصاحب من كتاب تعزية : « وقلنا قد أخذنا الزمان من
أخذ ، وترك من ترك ، فهو لا شك يعفو عن القمر ، وقد أسلم

(١) الوشل - بفتح الواو والشين - القليل من الماء ،
والتبرّض الاكتفاء والتبليغ بالقليل ، لا يفضل عنه ولا يزيد على
قدره .

(٢) التمد - بفتح التين - الماء القليل ، والترشف أخذ الماء
جرعة بعد جرعة .

(٣) جبت : قطعت ، جاب الأرض : قطعها .

الشمس للطفل ^(١) ، ولا يصل الصروف بالصروف ، ولا يجمع
الكسوف الى الخسوف ، فأبى حكم الملوك ^(٢) وقد غبنك اذ
قاسمك الأخوين ، الا أن يعود فيلحق الباقي بالقاني ، والغابر
بالماضي :

وعاد في طلب المتروك تاركه
انا لنفعل والأيام في الطلب
ما كان أقصر وقتا كان بينهما

كأنه الوقت بين الورد والقرب
أقول : هذا كعادة المصدور في النفث ، وشكوى الحزن
والبث ، والا فما يعجب السفر من تقدم بعض وكل بين الراحلة
والرحل ، لا يترك الموت ساعيا على وجه الأرض ، حتى ينقله الى
بطن الترب :

نحن بنو الموتى فما بالناس نغاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هنّ من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه
قال الثعالبي : وهذا غيض من فيض ما اغترفه الصاحب من
بحر المتنبي ، وتمثل به من شعره .. ثم اعتذر عن الصاحب بأن
ذلك شأن الأدباء الكتاب « وليس هو بأوحد في الاقتباس من
كلامه ، هذا أبو اسحاق الصابي رسيله في ذلك وزميله ^(٣) ..

* * *

(١) الطفل - بفتحيتين - الوقت عند غروب الشمس .

(٢) الملوك في الليل والنهار ، الواحد ملا .

(٣) يتيمة الدهر ١٢٦/١ .

وإذا تدبرنا هذه المآخذ ألفيناها نوعين :

أولهما : الأبيات الشعرية التي وشى بها صاحب كتبه ورسائله ، وقد نقلها نقلا أميناً . لم يحور فيها شيئاً ، إلا في قوله « ولو كان النساء كمثل هذى » بديلاً من قول المتنبي « ولو كان النساء كمن فقدنا » وذلك لاختلاف الغرض ، فإن قصيدة أبي الطيب في الرثاء ، ورسالة أبي القاسم في التهنية بالولادة ، ولا عيب فيما فعل صاحب في هذا الاقتباس ، فتلك سنة مطروقة سلكها الأدباء ، وإن أخذ على صاحب أنه لم يشر إلى صاحب الأبيات فليس هذا عيباً ، ولا يعد من السرقة في شيء لأن تلك الأبيات التي نقلها مشهورة متداولة ، يعرفها الناس ويعرفون صاحبها الذي ملأ شعره الأرض ودوى في سائر البقاع ، ومنها البقاع التي كان يعيش فيها صاحب ، والتي انتجعها المتنبي وزارها ، وشاع فيها شعره ، وذاع له ذكره ، واشتعلت نار المعارك الحامية بينه وبين حساده ، أو بين حساده وأنصاره والنوع الآخر : الأبيات الشعرية التي حلها ثم سبكها في كلامه المنشور ، وفي بعض ما ذكر شيء من الصواب لاتحاد المعنى أو قربه في الشعر والكلام المنشور ، وقد قدمنا أثر الثقافة والاطلاع والتحصيل في ذلك ، وهذا عند بعض النقاد معدود من محاسن الكتابة ، وضرورة من ضروراتها ، ولا يعاب المستفيد إلا إذا نقل المعنى بالفاظه ، وهذا أدنى درجات الأخذ مرتبة ، قال ابن الأثير إن هذا — أن يأخذ النثر بيتاً من الشعر فينشره بلفظه من غير زيادة — عيب فاحش ، ومثاله كمن أخذ عقداً قد أتقن نظمه

وأحسن تأليفه ، فأوهاه وبدده ، وكان يقوم عذره في ذلك أن لو نقله عن كونه عقدا الى صورة أخرى مثله أو أحسن منه ، وأيضا فانه اذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة ، فيقال هذا شعر فلان بعينه ، لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء^(١) .. ولم يظهر فيما كتب الصاحب أنه تقل نقلا حرفيا ، وانما كل ما فعله — على فرض التسليم المطلق بذلك — أنه أخذ بعض المعاني فأعاد تأليفها وصياغتها ، وزاد عليها ، وهذا أعلى الأقسام في نظر ضياء الدين^(٢) وغيره ، وهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بالفاظ غير ألفاظه ، وثم يتبين حذق الصائغ في صياغته ، ويعلم مقدار تصرفه في صناعته ، فان استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية ، والا أحسن التصرف وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول . وقال أبو هلال « من أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب » وقال : « وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم ، فليس على أحد فيه عيب الا اذا أخذه بلفظه كله ، أو أخذه فأفسده ، وقصر فيه عن تقديمه .

فهل كان ذلك ما فعله الصاحب ؟ ، أو ما كان يفعله في جل كتاباته ؟ ليس ذلك صحيحا وانما هي تنف من متخير المعاني أوردها بعبارة الممتازة ، وبين معانيه الرائعة . وقد قيل للعتابي : بم قدرت على البلاغة ؟ فقال : بحلّ معقود الكلام : وقال بعضهم :

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ١٢٩/١ .

(٢) المصدر السابق ١٣٢/١ .

الكتابة نقض الشعر .. وعند أبي هلال أن الحاذق هو الذى يخفى
دبيبه الى المعنى يأخذه فى سترة ، فيحكم له بالسبق اليه أكثر من
يسر به ، وأحد أسباب اخفاء السرق أن يأخذ المعنى من النظم
فيورده فى النثر ، أو من النثر فيورده فى النظم ، أو ينقل المعنى
المستعمل فى غرض الى غرض آخر ، الا أن هذا لا يكمل
الا للمبرّز ، والكامل المقدم (١) ..

وقد كان صاحب مقدا مبرزاً، صناعاً فى كتابته وشعره، حتى
ليخفى على كثير أثر هذه الافادة .. ويبقى الفضل لصاحب المعنى
الأصلى الذى ابتكره ، وعرف له من دون الناس .

الصاحبُ الشاعرُ

أما فن الشعر فان الصاحب يسمو بالمأثور منه الى درجة عالية
يطاول فيها الفحول ، ولو كان الصاحب قد خلى بينه وبين هذا
الفن لارتقى الى أسمى الدرجات فيه ، ولفاق الفحول المشهود لهم
على مرّ العصور ، ولكانت منزلته فى فن المنظوم فوق منزلته فى
فن المنثور .

ولكن أعمال الصاحب فى تصريف شئون الدولة ، وفى مجالسه
التي كانت تزدان بالعلماء والشعراء وأسفاره التي يقوم بها وحده
أو يصحب فيها مليكه لتفقد أحوال البلاد ، كانت تستنفد منه

(١) كتاب الصناعتين ١٩٧ ، ١٩٨ .

كثيرا من الوقت والجهد ، وما أحوج الشاعر الى سعة في الزمان ،
وفراغ في البال ، يسعفه هذا أو ذاك على الاطالة والافتتان والاتقان
وكان صاحب بطبعه شاعرا ، وقرأ معالم الشاعرية واضحة فيما
حفظ من شعره ، وفيما روت الأخبار من قدرته على ارتجال
الشعر الجيد المطبوع ، وقد كان على حظ عظيم من المعرفة بروائع
الفن الشعري ، التي كان يحفظ الكثير منها ، وكانت له دراية
عميقة بأسباب جودته .



وقد فضل أبو منصور الثعالبي شعراء عرب الشام على شعراء
سائر البلدان في قوله أن شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر
من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام ،
ويرجع السبب في تبريزهم قديما وحديثا على من سواهم في
الشعر الى قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم
عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل
العراق ، لمجاورة الفرس والنبط ، ومدخلتهم اياهم ، ولما جمع
شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة..
وبعد هذا التفضيل لشعراء الشام يذكر الثعالبي أن جماعة من
أصحاب أبي القاسم اسماعيل بن عباد أخبروه أنه كان يعجب
بطريقتهم المثلى التي هي طريقة البحتری في الجزالة والصدوبة
والنصاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ،
ويستملى الطارئین عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك

البدائع واللطائف ، حتى كسّر دفتر^(١) ضخم الحجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ، ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، حتى صار ما جمعه فيه على طرف لسانه ، وفي سن قلمه ، فطورا يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحلّه أو يورده كما هو في رسائله^(٢) .. ووصفه أبو حيان التوحيدى — مع عداوته له وحقده عليه — بأنه كان كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان .. وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ، ويقول الشعر ... وفي بديهته غزارة^(٣) ..

ويروى أبو حيان في أخباره من الأعاجيب ما يحير العقول في حضور جوابه ، وغزارة بديهته . وإن كان يعرض ما يعرض في صورة الحقد المسموم ، والغضب المحموم ، وذلك بأن يزعم أن كثيرا من الشعر الذى فاضت به قرائح الشعراء فى مديح الصاحب هو من تأليف الصاحب نفسه ، وأنه ينحلهم إياه ، ويدعوهم الى انشاده بين يديه بين حشد من الأدباء والشعراء الذين ينتجعون بابه ، ليلقوا بين يديه ما قصدوه به طمعا فى وافر العطاء ، ثم يخرج أولئك الشعراء بتفضيل الشعر الذى صاغه بنفسه وألقه بصناعته على سائر ما سمع منهم ، ثم يخص بعطائه الذين ينشدون كلامه ، كلام الصاحب !

-
- (١) كسرت الكتاب على عدة أبواب - بتشديد السين - اذا كنت قد جعلته فى عدة أبواب .
 (٢) يتيمة الدهر ١٣/١ .
 (٣) الامتاع والمؤانسة ٥٤/١ .

ومن ذلك ما ادعاه أبو حيان في قوله : ان الصاحب كان يعمل في أوقات كالعيد والفصل شعرا ، ويدفعه الى أبي عيسى المنجم ، ويقول له : قد نحتك هذه القصيدة ، امدحني بها في جملة الشعراء ، وكن الثالث من الهمج المنشدين ، فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادى محكك ^(١) ، قد شاخ على الخدائع وتحنتك — وينشد ، فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ، ووصفه بلسانه : زره يا أبا عيسى والله ! قد صفا ذهنك ، وزادت قريحتك ، وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حين أنشدتنا في العيد الماضي .. مجالسنا تخرج الناس ، وتهب لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة ، وتحول الكودن ^(٢) عتيقا ، والمحمر ^(٣) جوادا .. ثم لا يصرفه عن مجلسه الا بجائزة سنية ، وعطية هنية ، ويفيظ الجماعة من الشعراء وغيرهم ، لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعا ، ولا يزن بيتا ، ولا يذوق عروضاً ..

وقف هنا لنسأل أبا حيان : أكنت معهما حين دبّرا هذه الحيلة ؟ أم باح لك الصاحب بهذا السر الدفين ليفضح نفسه ؟ أم أسره اليك أبو عيسى المنجم ليذيع سرّ صفيّه وأثيره ؟ واذا كان الافتراض وادعاء الامكان لا ينفي شيئا من هذا ، فاننا لنقف مرة أخرى عند قول أبي حيان ان أبا عيسى « لا يقرض مصراعا ، ولا يزن بيتا ، ولا يذوق عروضاً .. » !

(١) المحكك : المجرب المدرب .

(٢) الكودن : الفرس الهجين ، والعتيق عكسه .

(٣) المحمر : الفرس الهجين .

لقد أراد أبو حيان أن يظلم الصاحب، فظلم صاحبه أبا عيسى
المنجم ، وبنو المنجم معروفون بالأدب والشعر والعلم ، وقد عقد
الثعالبي فصلا في يتيمة عن بني المنجم قال فيه « قد تقدم ذكر
بعضهم في أهل العراق ، وهذا مكان من يحضرني شعره منهم »
ووصفهم بأنهم ما منهم الا أغر نجيب ، ولهم وراثه قديمة في منادمة
الملوك والرؤساء ، واختصاص شديد بالصاحب ، وفيهم يقول :
لبنى المنجم فطنه لهيئته ومحاسن عجيبة عربية
ما زلت أمدحهم وأنشر فضلهم حتى اتهمت بشدة العصبية
وروى الثعالبي لأبي عيسى المنجم :

آخ من شئت ثم رم منه شيئا

تلف من دون ما تروم الثريا

قال : وسمعت أبا الفتح علي بن محمد البستي يقول : أنشدت

لأبي عيسى :

رغيف أبي على حل خوفا من الأسنان ميدان السماك
إذا كسروا رغيف أبي على بكى يبكى بكاءً فهو باك
ولأبي عيسى (١) :

لوم النديم منغص طيب المجالس والندام
وسماحة الحر الكريد م تزيد في طيب المدام
فاذا شربت الراح فاش ربها مع النفر الكرام
وتكبن ما استطعت أخ لاق اللثام بنى اللثام
ومن الطرائف التي تذكر لأبي عيسى بن المنجم أنه تلقى له

(١) يتيمة الدهر ٣/ ٣٩٠ .

برذون كان أصداً (١) قد حمله الصاحب عليه وطالت صحبته له :
فقال أبو عيسى في ذلك قصيدة طويلة مطلعها :

لقد عظمت مني المصيبة في الأصدا

وأبدت لي اللذات من بعده صدا

وأهدى الى قلبي المصاب بفقده

من الحزن ما لو نال يذبل لانهدا

وأوعز الصاحب الى ندمائه أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا أصداه
فقال كل منهم قصيدة فريدة ، منهم أبو القاسم الزعفراني ،
وأبو الحسن بن عبد العزيز الجرجاني ، وأبو القاسم بن أبي العلاء ،
وأبو الحسن السلامي ، وأبو محمد الخازن ، وأبو سعيد الرستمي ،
وأبو دلف الخزرجي ، وأبو العباس الضبي ، وأبو محمد
محمود .. وكلها قصائد تتنافس في الجودة والعذوبة (٢) ..

ولم يكن أبو عيسى — أحمد بن علي بن يحيى — أديبا
شاعرا فحسب ، بل كان عالما مؤرخا ، ذكر النديم (٣) أن له من
الكتب كتاب « تاريخ سني العالم » . ووصفه ياقوت (٤) بأنه كان
نيلا فاضلا ..

وفي هذه الاشارات ما يلقي بعض الضوء على أبي حيان، ومدى

(١) الصداة — بضم فسكون — شقرة الى السواد ، يقال

صدىء الفرس فهو أصدا .

(٢) راجع البيئمة ٢١٤ — ٢٢٩ من الجزء الثالث .

(٣) الفهرست ٢٠٧ .

(٤) معجم الأدباء ٢٤٤/٣ .

الثقة في أخباره ، وما يؤكد أنه لم يخدم الحقيقة فيها بقدر ما أطاع شهوته في النيل من صاحب ومن صحابته .

* * *

ومن تلك الطرائف التي ساقها أبوحيان، وتتصل بهذا السياق ما ذكره من أن صاحب قال يوما : من في الدار ؟ فقيل له : أبو القاسم الكاتب وابن ثابت ، فعل في الحال بيتين ، وقال لانسان بين يديه : اذا أذنت لهذين الرجلين فادخل بعدهما بساعة ، وقل ، « قد قلت بيتين ، فان رست لى انشادهما أنشدت » وازعم أنك بددت بهما ، ولا تجزع من تأففى بك ، ولا تفزع من نكرى عليك !! ثم دفع البيتين اليه ، وأمره بالخروج الى الصحن ، وأذن للرجلين حتى وصلا ، فلما جلسا وأنسا دخل الآخر على تقيئتهما^(١) ، ووقف للخدمة ، وأخذ يتلمظ يرى أنه يقرض شعرا ، ثم قال : « يا مولانا ، قد حضرنى بيتان ، فان أنت أذنت لى أنشدت » ! قال صاحب : « أنت انسان أخرج سخياف ، لا تقول شيئا فيه خير ، اكفى أمرك وشعرك » !

قال : « يا مولانا ، هى بدديتى ، فان نكرتنى ظلمتنى ، وعلى كل حال فاسمع ، فان كانا بارعين ، والا فعاملنى بما تحب » ! قال : « أنت لجوج ! هات » فأنشد :

يأيها صاحب تاج العلا لا تجعلنى نهزة الشامت

(١) أى دخل على إثرهما .

بملحد يكتنى أبا قاسم ومجبر^(١) يعزى الى ثابت
 قال : قاتلك الله ! لقد أحسنت وأنت مسيء !!
 ثم يذكر أبو حيان أن أبا القاسم قال له : كدت أتفقاً غيظاً ،
 لأنى علمت أنه من فعلاته المعروفة . وكان ذلك الجاهل لا يقرض
 بيتاً ، ثم حدثنى الخادم الحديث بنصه^(٢) ..
 وهذه كما ترى صورة رائعة لخيال بارع رسمها أبو حيان لبعض
 ماكان يصنع الصاحب فى زعمه ، وان كان صادقاً فهى شهادة بقوة
 الصاحب ، وسرعة خاطره ، وحضور بديهته ، وغزارة أدبه .



والتأمل فيما أثر للصاحب فى فن الشعر يهذى الى أن السمة
 المميزة له والغالبة عليه هى سمة الترف ، وترى هذه السمة واضحة
 فى الفنون والموضوعات التى عالجه ، كما تراها فى الأخيلة والمعانى
 التى صورها ، وفى الألفاظ التى تخيرها والتراكيب التى ألفها .
 ويتجلى كل ذلك فى وصف متع الحياة ومباهج النفس التى
 كانت تنعم بها تلك الطبقة من حكام ذلك الزمان الذين كانوا
 يسكنون شامخ القصور ، ويتمتعون بالمناظر الفاتنة ، والمجالس
 العامرة بأسباب الأئس والطرب ، ويملكون أسباب الترف
 والترهيب ويقدررون على الابعاد والتقريب ، والوصل والجفاء .
 فشعر الصاحب فى جملة يمثل فى فنونه ومعانيه شعر الكبراء

(١) المجبر - بفتح الباء المنسوب الى مذهب الجبرية ،
 وهم فرقة يقولون ليس للعبد قدرة ، وان الحركات الارادية
 بمثابة الرعدة والرعدة .
 (٢) الامتاع والمؤانسة ٥٧/١ .

أو شعر الكبرياء ، الذى قد يسمى شعر الخاصة ، ولكنها ليست خاصة الفن التى كثيرا ما تكون فى متناول الطبقات المتفاوتة فى المجتمع ، وانما هى خاصة الحياة ، وخاصة المنصب والجاه .

واذا ما حاولنا أن نلتمس للصاحب شبيها فى فنه ، فاننا نجد هذا الشبيه فى عبد الله بن المعتز الذى صاح ابن الرومى فى وجهه من أنشده بعض شعره « ويحك ! انما يصف هذا ما عون بيته » !

ولو خلى بين صاحب وبين شاعريته حتى تصل الى مداها ، وتستوفى غايتها ، وتبوح بمكنونها لكان الى الشريف الرضى أقرب ، ولكان فنه بفن الشريف أشبه . ولكن الوقت والفراغ كانا فى يد الشريف بقلر ما كان صاحب فى يد الدولة وفى حوزة المنصب .

كانت جل الأغراض التى عالجها صاحب فى شعره تدور حول تلك الحياة الخصبة التى كان يحياها ، وتصف ألوان المتعة التى كان يجدها فى الطبيعة أو فى الحياة والأحياء ، وهى متعة لم تكن مستعصية عليه ، بل كانت طوع يمينه وبين يديه ؛ ولكنها النفس التى كانت تطلب من هذه المتعة المزيد . وأكثر هذا الشعر يصور الرجل المقصود الذى تتطلع اليه الآمال ، ولم يكن يصور الرجل المتطلع الى الآمال ، فقد بلغ غايته الرفيعة ، كما يصور الرجل المتفضل الذى يجود بماله كما يجود بأدبه ، ويؤدب بهذا الأدب كما يؤدب بالحرمان من عطائه المال ..

ولكل هذا نرى أن المديح فى شعر صاحب قليل ، ولا يتوجه فيه الا الى ولى من أولياء نعمته ، وهم قليل .. ومنه قوله فى عضد الدولة :

همام رأى الدنيا سواما فحاطها
ليالى فى غير الزمان وقور
ولم يخطب الدنيا احتفالا بقدرها
فموقعها من راحتيه سير
ولكن له طبع الى الخير سابق
ورأى بأبناء الرجال بصير
وان لم يلاحظهم بعين حية
قتلك أمور لا تزال تمور
وقوله فى عضد الدولة من قصيدة أخرى :
سعود يحار المشتري فى طريقها
ولا تتأتى فى حساب المنجم
وكم عالم أحييت من بعد عالم
على حين صاروا كالهشيم المحطم
فوالله لولا الله قال لك الورى
مقال النصارى فى المسيح بن مريم
محامد لو فضت ففاضت على الورى
لما أبصرت عيناك وجه مذمم
وكلا ولكن لو حظوا بزكاتها
لما سمعت أذنك ذكر ملوم
ولو قلت ان الله لم يخلق الورى
لغيرك لم أخرج ولم أتائم
وقوله فيه :

يأيها الملك الذي كل الورى
 قسمان بين رجائه وحذاره
 فمناصح قد فاز سهم طلابه
 ومداهن قد جال قدح بواره
 هذى بخارى تشتكى ألم الصدى
 وتقول قولاً نبت فى أخباره
 ماذا عليه لو يهم بعرضتى
 فأكون بعض بلاده ودياره
 وكتب الى مؤيد الدولة أبى منصور :

سعادة ما نالها قط واحد يحوزها المولى الهمام المعتمد
 مؤيد الدولة وابن ركنها وابن أخى معزّها أخو العضد
 وقال فى فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان :

يا بانيا للقصر بل للعلا	همك والفرقد سيان
لم تبني هذا القصر بل صغته	تاجا على مفرق جرجان
وقصرك المبنى من قبله	ملكك ، والله هو الباني
فاقبل ثار العبد بل نظمه	فانه والدرّ مثـلان

وهذا الشعر كما نرى وان كان فى المديح الا أننا نرى
 الصاحب من خلاله ، لا يزال متماسكا ، فلا تقرأ فيه ذلة الخضوع
 والضراعة التى تقرأوها فى أكثر ما تقرأ من شعر المديح للمتكسبين
 من الشعراء الذين كانوا ينسون أنفسهم ، بل يهبطون بها الى
 حضيض الاستعطاف والمذلة والاسفاف ، وأولئك الثلاثة كما رأينا

من أبناء بويه ، وهم أولياء نعمته الذين احتضنوه وارتقوا به في دولتهم الى منصب الوزارة .



ولا يخدعنا عن هذه الحقيقة ما في هذا الشعر من المبالغات التي نأبأها ونرفضها ، فانها من أقاويل الشعراء ، ولا تظهر فيها شخصية صاحب التي تلصقها به ، وتجعلها علما عليه ، بل ان من المستطاع أن تنسب الى غيره ممن شئت من شعراء المبالغات كما ينسب اليه في ذلك العصر الذي نأت الحياة فيه عن مظاهر البساطة ، وجنحت فيه المعاني الى الغلو الذي يشين ، والذي يقرب من الكذب ، بل قد يصل في بعض الأحيان الى درجة الكفر .

ومن الذين مدحهم من أصحاب الفضل عليه أبو الفضل بن العميد ، وهو أستاذه ومدربه . ومن قوله فيه يذكر نقرسا أصاب يميناه :

أبو الفضل من أجرى الى الفضل يافعا
فظل به يدعى وصار به يكنى
سلامته شمس المعالي وسقمه
كسوف المعالي لا كسفن ولا بنا
ولم يأته ورد السقام لغير ما
عرفنا فخذ معنى تألمه منا
وما راده الا ليشغل عن ندى
والا فلم قد خص بالألم اليمنى

وما يحجز البحر الخضم عن الندى
ولا السيد الأستاذ عن جوده يثنى

وهى كلمة وفاء كان جديرا أن يكتبها لأستاذه فى علته ، وقد
ظهر فيها ذلك المعنى البكر الذى أحسن فيه التعليل ، وادعى فيه
أن العلة انما لزمت يده اليمنى لتكفه عن نداه المسرف ، ولكن
هيهات أن تشبه عما طبع عليه ، كالبحر لا يستطيع أن يكفه أحد
عن العطاء !

أما الاخوانيات فان للصاحب المقام الأوفى فى صياغتها ، وتكاد
تسيل رقة لفرط ما حملته من ألوان الصفاء فى معانيها وفى لغتها
التي لا تجدها فيها كلمة نائية أو لفظا مستكرها ، وانما هى أشبه
شيء بالنمير الصافى الذى لا يكدره تصنع ولا تعمل ولا اكراه ،
بل هو يجرى فيها على سجية رفيقة ، وطبع سلسال لا يتحجر
ولا يتعثر ، فهو اذ يتحدث الى صاحبه فى مداعبة أو عتاب فكأنه
يتحدث عن نفسه ، أو كأنه يحدث نفسه ، لفرط ما أصفى من
الود ، وما بذل من صفاء الروح . وتجد مثلا لهذه الشاعرية
الثرة بالود المتربة بالصفاء فى مثل ما كتب الى أبى الفضل بن
شعيب :

يا أبا الفضل لم تأخرت عنا
فأسأنا بحسن عهدك ظنا
كم تمنى نفسى صديقا صدوقا
فاذا أنت ذلك المتمنى

فبغضن الشباب لما تشنى
وبعهد الصبا وان بان منا
كن جوابى اذا قرأت كتابى
لا تقل للرسول كان وكنا
وفى مثل ما كتب الى أبى بكر الخوارزمى :

أسعدك الله ييوم الفصح وعشت ما شئت ييوم سمح
يا رأس مالى فى الورى وربحى وظفري ونصرتى ونجحى
شربا ولا تصنع لأهل النصح فالحزم أن تسكر قبل تصحى
سكر النصارى فى غداة الفصح

أرأيت الى صاحب كيف يحيى هذا الصديق الأديب ،
وكيف يتبسط معه فى الحديث ويتلطف معه فى الخطاب ، وكيف
يعدّه رأس ماله وربحه وظفره ونصرته ونجاحه ؟ ثم انظر الجزاء
الذى يلقاه به الخوارزمى وقد نال من برّه وتقريبه الكثير ، فى
مثل قوله :

لا تحمدنّ ابن عباد وان هطلت
كفاه يوما ولا تدممه ان حرما
فانها خطرات من وساوسه^(١)

يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما
ماذا كان يريد أولئك الأصفياء من ذلك الرجل الذى قربهم ،
وأفاض عليهم من أدبه وماله وقلبه ما كان يستطيع ؟ لعلمهم كانوا

(١) الوسائوس جمع وسواس وهو حديث النفس المختبلة .

لا يقنعون الا بأن يصبوا أموال الدولة وأمواله في جيوبهم ،
أو ينزل لهم عن منصبه ليخلفوه فيه !!

ما هذا الجحود الغريب الذى يشنى الكرام عن المكارم ،
وينتزع من القلوب الثقة بمن هم أحق الناس بالثقة ممن ينتسبون
الى العلم أو الى الفن ؟ ان مثل هذا الجحود لسبب من أعظم
الأسباب فى تزهيد الفضلاء فى الفضل ، وترغيب الكرام عن المكارم ،
وما أصدق الذى قال « والكفر مخبئة لنفس المنعم » وما أحق
الصاحب أن يقول عندما بلغه خبر وفاة أبى بكر الخوارزمى :
أقول لركب من خراسان رائح :

أما ت خوارزميكم ؟ قيل لى : نعم !

فقلت : اكتبوا بالجنب من فوق قبره

« ألا لعن الرحمن من كفر النعم » !

وهما بيتان يشعران بما كان يجده الصاحب من مرارة
الجحود ممن أحسن اليهم وأحسن بهم الظن !
ومن اخوانيأت الصاحب الرقيقة الرائقة ما كتبه الى صاحبه
أبى القاسم القاشانى :

يا أبا القاسم قل لى قل لماذا لا تزور

كنت قد قدّمت وعدا فاذا وعْدك زور

وبذرت الود بالقو ل فلم ترك البذور

ونحرت الودّ بالهج ر كما يهدى الجزور

ان أم الصدق فى الود لمقلاة نزور

وفى هذا العتب المتبسط الذى كتبه اليه :

مولاي لم تدع عب	مدك عند احضار المدام
أعرفته من بينهم	متبسّطاً وقت الطعام
أم قيل عربد ذات يو	م حين صار الى المدام
أم لم يساعد حين مل	ت الى الغلامه والغلام
ان كنت تبخل بالطعا	م فكيف تبخل بالكلام
لسنا نحاول دعوة	فاسمح علينا بالسلام

وحدث الثعالبي عن أبي نصر التهذيبي ، قال : سمعت القاضي
أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني يقول : انصرفت يوما من
دار صاحب ، وذلك قبيل العيد ، فجاءني رسوله بعطر الفطر ،
ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان :

يأيها القاضي الذي نفسى له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
أهديت عطرا مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه
قال : وسمعتة يقول : ان صاحب يقسم لي من اقباله واكرامه
بجرجان أكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد ، وقد استعفيته يوما
من فرط تحفيّه بي ، وتواضعه لي ، فأئشدني :

أكرم أخاك بأرض مولده وأعزّه ما نيل في الوطن
فالعزّ مطلوب وملتمس وأمدّه من فعلك الحسن
ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى في العينية ، فقلت : لعل
مولانا يريد قولي :

وشيدت مجدى بين قومي فلم أقل
ألا ليت قومي يعلمون صنيعى !

فقال : ما أردت غيره ، والأصل فيه قوله تعالى « يا ليت قومي يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » !
 فهذا كلام من يعرف الفضل لأصحابه ، ومن ينصف الصديق ،
 ومن يعرف أثر تكرمته فى وطنه وبين أهله وعشيرته ، وهو أثر
 بعيد لا يدركه الا عالم بأسرار النفوس من أمثال الصاحب فى
 فطنته وبعد نظره وطهارة قلبه .

* * *

أما الوصف فقد كان الصاحب فيه من أعلام المبرزين ،
 وأوصافه تزخر بالتصوير الرائع ، وتفيض بالتشبيهات البارة .
 وأكثر أوصافه فى مباحج الطبيعة وفى الأزهار والثمار وفى
 الخمریات ، وهو صاحب البيتین المشهورین اللذين هام بهما
 البلاغیون :

رقّ الزجاج ورقّت الخمر	فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح	وكأنما قدح ولا خمر
ومن خمریاته :	

وقهوة قد حضرت بختها	فقلت للندمان عند شهما
لا تقبضن بالماء روح جسمها	فحسبها ما شربت من كرمها
وقوله :	

متغايرات قد جمعن وكلها	متشاكل أشباحها أرواح
واذا أردت مصرحا تفسیرها	فالراح والمصباح والتفاح
لو يعلم الساقى وقد جمعن لى	من أىّ هذى تملأ الأقداح
وقوله :	

ولما بدا التفاح أحمر مشرقا
دعوت بكأسى وهى ملى من الشفق
وقلت لساقبيها : أدرها فانها
خدود عذارى قد جعلن على طبق
ومن أبدع ما قال فيها من قصيدة :
وكأس تقول العين عند جلائها
أهل لخدود الغانيات عصير ؟
تحاميتها الا تعلل واصف
وقد يطرب الانسان وهو كبير !
وقوله فى جلوسه مع الشرب من غير شرب :
تمتع ندمان بها وأجبة
وحظى منها أن أقول ألا انعمى
لك الوصف دون القصف منى فخيى
بغير يدى وارضى بما قاله فى
ومن ملح أوصافه وتشبيهاه :

أقبل الثلج فانبسط للسور
ولشرب الكبير بعد الصغير
أقبل الجو فى غلائل نور
وتهادى بلؤلؤ منشور
فكان السماء صاهرت الأر
ض فصار النشار كالمنشور
وقال فى النارج :

بعثنا من النارج ما طاب عرفه

فقل على الأغصان منه نوافج^(١)

(١) النوافج : جمع نافجة ، وهو وعاء المسك (معرب) .

كرات من العقيان أحكم خرطها
 وأيدى الندامى حولهنّ صوالج^(١)
 وقال في الند^(٢) :

ند لفخر الدولة استعماله قد زاد عرفا من نسيم يديه
 فكأنما عجنوه من أخلاقه وكأنه طيب الثناء عليه
 وقال في حبة عنب :

وحبة من عنب من المنى متخذة
 كأنها لؤلؤة في وسطها زمردة

وقال فيها أيضا :

وحبة من عنب قطفتها تحسدها العقود في الترائب
 كأنها من بعد تمييز لها لؤلؤة قد ثقت من جانب
 وقال في التين :

تين يزين روائه مخبوره متخير في وصفه يتحير
 غسل اللعاب لديه مما يجتوى وجنى النخيل لديه مر مقرر^(٣)
 وكأننا هو في ذرا أغصانه قطع النضار أدارهن مدور
 ويقول ذائقه لطيب مذاقه الله أكبر والخليفة جعفر

(١) العقيان : الذهب الخالص .

(٢) الند - بفتح النون وكسرها - طيب ، أو هو العنبر .

(٣) اجتوى : أصابه الجوى ، وهو الحرقه وشدة الوجد .

وشيء مقرر ومقر - على وزن كتف - حامض أو مر .

ومن قوله يصف الشمع :

ورائق القد مستحب
صفرة لون وسكب دمع
يجمع أوصاف كل صب
وذوب جسم وحر قلب
وقال في الخط واللفظ :

بالله قل لى أقرطاس تخط به

من حلة هو أم ألبسته حللا ؟

بالله لفظك هذا سال من غسل

أم قد صبيت على أفواهنا عسلا ؟

ومن ملح شعره فى الغزل :

وشادن أصبح فوق الصفه
كم قلت اذ قبل كفى وقد
قد ظلم الصب وما أنصفه
تيمنى : يا ليت كفى شفه
وقوله :

تسحب ما أردت على الصباح
لقد أولاك ربك كل حسن
فهم ليل وأنت أخو الصباح
وبعد فليس يحضرنى شراب
وقد ولأك مملكة الملاح
وليس لدى نقل فارتهنى
فأنعم من رضاك لى براح
بنقل من ثناياك الوضاح

وقال من باب الاقتباس من الحديث الشريف :

ومفهف يغنى عن القمر قمر الفؤاد بفاتن النظر (١)

(١) امرأة مفهفة أى ضامرة البطن ، وقمر الفؤاد - على
زنة طرب - تحير .

خالسته تفاح وجنته
فأخافنى قوم فقلت لهم
ومن بديع غزله :

أتانى البدر باكيا خجلا
قال غزال أتى ليعزلنى
فقلت قبل ترابه عجلا
قد بايعت أنجم السماء له
وقال متغزلا :

يشكو غزالا لجّ فى عقوقه
من عاشق أحسن من معشوقه
قال أبو بكر الخوارزمي : أشدنى صاحب هذه القوافي
ليلة ، وقال : هل تعرفون نظيرا لمعناها فى شعر المحدثين ؟ فقلت :
لا أعرف الا قول البحتري :

ومن عجب الدهر أن الأُمَيَّ ر أصبح أكتب من كاتبه
فقال صاحب : جودت وأحسن ، وهكذا فليكن الحفظ !
وللصاحب فى شعر المجون باع طويل ، يقصر عنه المقلقون
المجودون ، وكان مبعث ذلك روح النقد التى تمكنت منه ،
فبرع فى رسم صور خلاصة تشيع فيها روح السخرية ممن سُلط
عليهم شاعريته المبدعة ، وله هجاء لا ذع يقصر عنه الهجاءون الذين

(١) الكثر - بفتح تين - جمار النخل ، والشطر كله حديث
« لا قطع فى ثمر ولا كثر » .

تخصصوا في النيل من الأعراض ، ومن قوله في قاض لم يثبت عنده
هلال شوال :

ان قاضينا لأعمى أم على عمد تعامى ؟
سرق العيد كأن ال عيد من مال اليتامى !
وقوله فيه :

يا قاضيا بات أعمى عن الهلال السعيد
أفطرت في رمضان وصمت في يوم عيد
وأشدد له الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى :
نبئت أنك منشدا ما قتلته
في سبّ عرضك لا تخاف وعيدي
والكلب لا يخزى اذا أخسأته
والقار لا يخشى من التسويد
وأشدد له غيره :

تزلزلت الأرض زلزالها فقالوا بأجمعهم ما لها
مشى ذا الثقليل على ظهرها فأخرجت الأرض أثقالها
ولو ذهبنا نتخير للصاحب روائع شعره في سائر الفنون
التي أجاد فيها صاحب وأبدع ، ثم شرحنا أسباب الاجادة ومظاهر
الابداع ، لاتسع مجال القول ، وضائق عنه هذه الصفحات ،
ولكننا نجترىء بهذه الأمثال التي يستطيع القارىء أن يستشف
من خلالها طبيعة شعر صاحب ، وما أتيح له من ملكة بارعة
وقدرة فائقة على التحليق في سماء هذا الفن الرفيع ، وفختم هذه
الروائع بقوله :

وقائلة لم عرتك الهموم وأمرك ممثّل في الأمم ؟
فقلت دعيني على غصتي فان الهموم بقدر الهمم !

* * *

ولا يتسرب اليّنا شك في أن أي ناظر الى هذا الشعر سيقع منه موقع القبول ، وأنه سيجد فيه من القوة ما يرفعه الى درجة الفحول المطبوعين . ولكن أبا حيان التوحيدي ، وقد عرفنا من عداوته للصاحب ما عرفنا ، وعرفنا ولوعه بثلبه وانتقاصه ، لما قدمنا من الأسباب ، يذكر جملة من الآراء تسائر رأيه في الصاحب ، وينسبها الى غيره من الناس ، والله أعلم بصحة ذلك ، فقد سأله الوزير أبو عبد الله العارض : كيف بلاغة الصاحب من بلاغة ابن العميد ؟ وأين طريقته من طريقة ابن يوسف (١) والصابي (٢) ؟.

وأراد أبو حيان أن ينسب ما أراد من قدح في الصاحب الى غيره فقال : قد سألت جماعة عن هذا ، فأجابني كل واحد بجواب اذا حكيتّه عنه كان ما يقال فيه ألصق وكنت من الحكم عليه

(١) ابن يوسف الذي يريده هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف أحد أعيان الكتاب في دولة بني بويه ، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده . .
(٢) هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابيّ كاتب الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة البويهى ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ هـ ونقم عليه عضد الدولة مكاتبات صدرت منه ، فلما ملك عضد الدولة أراد قتله فشفعوا فيه فأطلقه ، وألف له كتاب « التاجي » في أخبار بني بويه ، وظل على دين الصابيّة الى أن مات سنة ٣٨٤ هـ كما روى ابن خلكان ، وقال صاحب الفهرست أنه مات قبل سنة ٣٨٠ هـ والأول هو الأصوب .

وله أبعد ! ... سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عباد في كتابته ، فقال : يرتفع عن المتعلمين فيها بدرجة أودرجتين ..

وقال على بن القاسم : هو مجنون الكلام ، تارة تبدو لك منه بلاغة قس ، وتارة يلقاك بعى باقل ، تحريف كثير في المعاني ، وإحالة في الوضع ، وغلط في السجع ، وشروء عن الطبع .

وقال ابن المرزبان : هو كثير السرقة ، سيء الاتفاق ، ردىء القلب ، فروقة ^(١) في إirاده ، هزيمته قبل هجومه ، وإحجابه أظهر من إقدامه ..

وقال الصابي : هو مجتهد غير موفق ، وفاضل غير منطوق ^(٢) . وقال على بن جعفر : هو يكذب نفسه بحسن الظن في البلاغة ، وطباعه تصدق عنه بالتخلف ، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى ، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة . وأما إحالته فبالإبعاد عن حومة القصد والإرادة ، والعجب أنه يحفظ الطم والرم ^(٣) من النثر والنظم ، ثم إذا ادعاهما يقع دونهما سقوطاً ، أو يتجاوزهما فروطاً ^(٤) ، وهذا مع الكبر الممقوت والتشيع الظاهر ، والدعوى العارية من البينة العادلة ..

وقال أحمد بن محمد : ... بلى ابن عباد في هذه الصناعة بأشياء

(١) رجل فروقة شديد الفرق - بفتحيتين - وهو الفزع .

(٢) غير منطوق أى غير بليغ النطق .

(٣) الطم والرم : العدد الكثير ، يقال جاء بالطم والرم ، والطم في الأصل الماء الكثير أو ماساقه الماء من غشاء ، والرم الثرى .

(٤) الفروط التقديم .

كلها عليه لاله .. فأول ما بلى به أنه فقد الطبع وهو العمود ،
والثاني العادة وهى المواتية^(١) ، والثالث الشغف بالجاسى^(٢) من
اللفظ وهو الاختيار الردىء ؛ والرابع تتبع الوحشى وهو
الضلال المبين ، والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى ، والسادس
استكراه المقصود من المعنى واللفظ على النبوة ، والسابع
التعاضل^(٣) المجهول بالاعتراض ، والثامن الف الرسوم الفاسدة
من غير تصفح ولا فحص ، والتاسع قلة الالتقاط بما كان —
لثقة الواقعة فى النفس — من الفائت ، والعاشر تنفيق المتاع
بالاقتدار فى سوق العز ، وهذه كلها سبل الضلالة ، وطرق
الجهالة^(٤) ..

ونعتقد أن شيئا من هذا الكلام أو هذه النعوت لا ينطبق
على شيء من شعر الصاحب ، وإن كان ينطبق بعضه على شيء من
نثره المسجوع من أمثلة ما روى أبو حيان نفسه شيئا منه أوردناه
فيما تقدم ، وقلنا رأينا فيه .. وهذا أيضا على فرض التسليم
بصحة ما أورد من السجع المتكلف واللفظ الغريب والحوشى ،
وعلى فرض التسليم أيضا بصحة صدور هذه الأحاديث والآراء
عمن ذكر أسماءهم ! .

ولا يستبعد الأستاذ أحمد أمين فى مقدمته التى كتبها للامتناع

(١) المواتية أى المساعدة المعينة .

(٢) الجاسى : الجاف الصاب .

(٣) التعاضل التعقيد ، وللتعاضل معان أخرى ، أكثرها مناسبة
هنا التعقيد بعدم تنسيق الكلام ووضع كل كلمة فى موضعها .

(٤) الامتناع والموانسة ٦٥/١ .

والمؤانسة أن يكون أبو حيان قد تزيّد فيه ، واخترع أشياء لم تجر
في مجلس الوزير ، فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل ، وقد اتهمه
العلماء من قبل ومنهم ابن أبي الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة
المعزوة الى أبي عبيدة على لسان أبي بكر وعمر في حق عليّ بن
أبي طالب ، ولعل هذا التزيّد كان من ضمن الأسباب التي دعت
أن يرجو أبا الوفاء — وهو الذي كتب له ما جرى بينه وبين
الوزير أبي عبد الله العارض — في أن يكون الكتاب سرّاً ، فانه
ألف الكتاب في حياة الوزير ، وخشى أن يطلع عليه الوزير ، فيعلم
مقدار ما تزيّد (١) ..

لقد جمع القائلون في هذه الكلمات ، أو جمع لهم أبو حيان ،
جميع عيوب الفن الأدبي ، وصبوها على أدب صاحب الذي لم
يرأ ولا سيما بعض ثمره منها ، ولكن تجريد هذا الأدب من كل
مزية والصاق كل نقص به محال في مجال النقد النزيه الخالص من
نزعات الكيد والانتقام التي سمت آراء أبي حيان وروايات
أبي حيان .

ذلك أن القول المطبوع ، والأدب الصافي ، والشاعرية المرفهة
كل ذلك واضح المعالم في أدب صاحب لكل منصف يطلع على
شعره وأكثر ثمره .

لقد كان صاحب يرتجل الشعر ، فتخال لفرط اتقانه وصفاء
ديباخته أنه شعر معدّ مهذب أعاد صاحبه النظر فيه ، لولا أن رواته

(١) انظر مقدمة (الامتاع والمؤانسة) بقلم الأستاذ أحمد أمين :

سمعوا هذا الشعر ، وأخبروا عن ارتجاله في مناسباته . بل لقد كان صاحب يسبقهم الى أشطرهم وقوافيهم التي ينشدونها في حضرته فتكون تلك الأشطر هي عين ما قالوا ، ومن أمثلة ذلك ما حدث أبو الرجاء الضرير الشطرنجي العروضي الشاعر الأهوازي في قوله : قدم علينا صاحب بن عباد في السنة التي جاء فيها فخر الدولة ، ولقيه الناس ، ومدحه الشعراء ، فمدحته بقصيدة قلت فيها :

الى ابن عباد أبى القاسم الصاحب اسماعيل كافى الكفاة
فقال صاحب : قد كنت والله أشتهى أن تجتمع كيتى واسمى
ولقبى واسم أبى في بيت !

قال أبو الرجاء فلما انتهيت الى قولى فيها :

* ويشرب الجيش هنيئاً بها *

قال صاحب : يا أبا الرجاء ، أمسك ! فأمسكت ، فقال :
. ويشرب الجيش هنيئاً بها

من بعد ماء الرى ماء الصَّراق^(١)

هكذا هو ؟ قلت : نعم ! قال : أحسنت ! قلت : يا مولاي ،
أحسنت أنت ، عملت أنا هذا في ليلة ، وأنت عملته في لحظة^(٢) !
وروى عون الهمداني أن صاحب أتى بعلام مثاقف^(٣) ،

(١) الصراة نهر بالعراق .

(٢) معجم الأدباء ٦/٢٥٤ .

(٣) المناقفة الملاعبة بالسلاح .

فلعب بين يديه ، فاستحسن صورته وأعجب بمشاقفته . فقال
 لأصحابه : قولوا في وصفه ، فلم يصنعوا شيئا ، فارتجل صاحب :
 مثاقف في غاية الحذق فاق حسان الغرب والشرق
 شبهته والسيف في كفه بالبدر اذ يلعب بالبرق^(١)
 وانتحل أحد المتشاعرين بعض شعر صاحب ليمدحه به ،
 فبلغ صاحب ذلك ، فقال : ابلغوه عنى :

سرق شعري ، وغيرى يضام فيه ويجزع
 فسوف أجزيك صفعا يكدر رأسا وأخدع
 فسارق المال يقطع وسارق الشعر يصفع
 وكتب اليه أبو منصور الجرجاني :

قل للوزير المرتجى كافي الكفاة الملتجا
 انى رزقت ولدا كالصبح اذ تبلىجا
 لا زال في ظلك ظ ل المكرمات والحجا
 فسمه ، وكنه مشرقا ، متوجيا

فوقع صاحب تحت هذه الأبيات :

هنته ، هنته شمس الضحا ، بدر الدجى
 فسمه « محسنا » وكنه « أبا الرجا »
 وأهدى العميرى قاضى قزوين الى صاحب كتبا ، وكتب معها :
 العميرى عبد كافي الكفاة ومن اعتد في وجوه القضاة
 خدم المجلس الرفيع بكتب مفعمات من حسناتها مترعات

(١) يتيمة الدهر ٢٠٢/٣ ووفيات الأعيان ٢٢٥/٢ .

فوقع الصاحب تحتها :

قد قبلنا من الجميع كتابا
ورددنا لوقتها الباقيات
لست أستغنم الكثير فطبعي
قول «خذ» ليس مذهبي قول «هات»!

وكتب الصاحب الى أبي هاشم العلوي ، وقد أهدى اليه في
طبق فضة عطرا :

العيد زارك نازلا برواقك يستنبط الاشراق من اشراقك
فأقبل من الطيب الذي أهديته ما يسرق العطار من أخلاقك
والظرف يوجب أخذه مع ظرفه فأضف به طبقا الى أطباقك
ولما أتت الصاحب البشارة بسبته عباد بن علي الحسنی ، ولم
يكن للصاحب ولد غير أمه ، وكان قد زوجها من أبي الحسن علي
ابن الحسين الحسنی الهمداني ، وكان شاعرا أدبيا بليغا ، أنشأ
الصاحب يقول :

أحمد الله لبشري	أقبلت عند العشي
اذ جاني الله سبطا	هو سبط للنبي
مرجبا ثمت أهلا	بغلام هاشمي
نبوي ، علوي	حسني ، صاحبني

ثم قال :

الحمد لله حمدا دائما أبدا

قد صار سبط رسول الله لي ولدا

والحقيقة أن كثيرا من هذه الأشعار المرتجلة لا يصور الفحولة
التي يتصف بها شعر الصاحب ، فإن فيها من بساطة التعبير ، ومن
قرب المعاني ، ما يهبط بها كثيرا عن درجات شعره الرائق الممتاز ،
ولكن مواقف الارتجال وغزارة البداهة من غير اعداد أو تعبير
ترقى به الى درجة الشعر الذي نجد فيه عذوبة الصاحب ، وسماحة
طبعه ، حتى لقد يكون في الامكان القول بأن الصاحب لو أراد
أن يكون كل كلامه على هذا النمط من الشعر لم يتأب عليه
القول ، ولم يستعص عليه شيء مما يريد ، فقد أصبح القريض
طوع بنائه ، يكاد يسيل على عذبات لسانه .



ولقد كانت ثقافة الصاحب الأدبية واطلاعه على غرر الشعر
وروائع الكلام سببا من أسباب افادته من شعر غيره ، وأخذه من
معاني بعضهم في نظر بعض الكاتبين في تاريخ الصاحب ، كما فعل
الثعالبي في محاولته ارجاع بعض معاني الصاحب الكتابية الى أبي
الطيب المتنبى ، وقد فصلنا الكلام في هذا الموضوع ، وشرحنا
رأينا ورأى النقاد فيما أثبتته الثعالبي ، وتذكر هنا أن الثعالبي بعد
أن أورد في يتيمة غررا من شعر الصاحب ، ذكر نبذا من سرقاته في
شعره ، وقال فيها : سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول : قال بعض
ندماء الصاحب له يوما : أرى مولانا قد أغار في قوله :

لبسن برود الوشى لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود
على قول المتنبى :

لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصن به الجمالا

فقال : كما أغلر هو بقوله :

ما بال هذى النجوم حائرة كأنها العمى مالها قائد

على العباس بن الأحنف فى قوله :

والنجم فى كبد السماء كأنه أعمى تحير ما لديه قائد

وسمعت أيضا أبا بكر يقول : أنشدنى الصاحب تنفة له منها

هذا البيت :

لئن هو لم يكف عقارب صدغه

فقولوا له يسمح بترياق ريقه

فاستحسنته جدا حتى جمعت من حسدى له عليه ، ووددت

لو أنه لى بألف بيت من شعرى ! قال الثعالبى : فأئشدت الأمير

أبا الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى هذا البيت ، وحكى له

هذه الحكاية فى المذاكرة ، فقال لى : أتعرف من أين سرق

الصاحب معنى هذا البيت ؟ فقلت : لا والله ! قال : انما سرقه من

قول القائل . ونقل ذكر العين الى ذكر الصدغ :

لدغت عينك قلبى انما عينك عقرب

لكن المصة من رى قك ترياق مجرب

فقلت : لله درّ مولانا الأمير ! فقد أوتى حظا كثيرا من

التخصص بمعرفة التلصص ! قلت : ومعنى قول الصاحب فى الثلج :

وكان السماء صاهرت الأر ض فكان النشار من كافور

ينظر الى قول ابن المعتز :

وكان الريح يجلو عروسا وكأنا من قطره فى ثار

وقول صاحب :

يقولون لي كم عهد عينك بالكرى

فقلت لهم : مذ غاب بدر دجاها

ولو تلتقى عين على غير دمعة

لصارمتها حتى يقال نفاها

مأخوذ لفظ البيت الثاني من قول المهلبى الوزير :

تصارمت الأجنان منذ صرمتنى

فما تلتقى الا على عبرة تجرى

وقول صاحب :

هات مشطا الى وليك عاجا فهو أدنى الى مشيب الرءوس

واذا ما مشطت عاجا بعاج فامشط الآبنوس بالآبنوس

مأخوذ من قول أبى عثمان الخالدى :

ورأتنى مشطت عاجا بعاج فامشط الآبنوس بالآبنوس

وأخذ قوله :

فم الغويرى اذا فتشته أتن فم

كم قلت اذ كلمنى وأسفى على الخشم

من قول المهلبى الوزير :

وان أبصرت طلعتة فوا لهفى على العمش

وأخذ قوله فى ابن العميد :

الى سيد لولاه كان زماننا وأبناءؤه لفظا عريّا عن المعنى

من قول المتنبى :

* والدهر لفظ أنت معناه *

وقوله في القافية الأخيرة :

وناصح أسرف في النكير
فكيف صفت الهجو في حقير
فقلت : لا تنكر وكن عذيري
من قول الحمدوني :

* هبوني امرأ جربت سيفي على كلب *

وقوله في البيت الأخير من هذه الأبيات :

ومهفهف حسن الشمائل أهيف
ما زال يبعدني ويؤثر هجرتي
قالوا تراجعهم ؟ فقلت بديهة
والله لا راجعتهم ولو انه
تردى النفوس بفترتي عينيه
فجذبت قلبي من اسار يديه
قولاً أقيم مع الروى عليه
كالشمس أو كالبدر أو كبويه

مأخوذ من قول ابن المعتز :

والله لا كلمتهم ولو انه

كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفى (٢)

* * *

ولا شك أن الافادة في معاني هذا الشعر أوضح من الافادة
فيما قدمناه من المنشور من كتابة صاحب ، ولكن الافادة هنا
لا تعنى النقل ، بل هنا تصرف كثير . وقد يقع للمتأخر معنى سبقه
اليه المتقدم من غير أن يلم به ، ولكنه كما وقع للأول وقع للآخر .
فليس هنا ما يدعو الى الجزم بأن صاحب اطلع على الكلام الذي

(١) النكير : النقرة التي في ظهر النواة .

(٢) بيتمة الدهر ٢٧٧/٣ .

قيل انه أفاد منه أو انه سرقه . قال أبو هلال : وهذا أمر عرفته من
نفسى ، فكيف أمتري فيه ، وذلك أنى عملت شيئا فى صفة النساء
* سفرن بدورا وانتقبن أهلة *

وظننت أنى سبقت الى جمع هذين التشبيهين فى نصف بيت
الى أن وجدته بعينه لبعض البغداديين ، فكثرت تعجبى ، وعزمت
على ألا أحكم على المتأخر بالسرقة من المتقدم حكما حتما (١) ..

الصاحب الناقد

وكما كان الصاحب بن عباد أدبيا كبيرا ، وكاتباً فى مقدمة
أعلام هذا الفن عند العرب ، وشاعرا تفيض شاعريته بهذا الشعر
المستعذب المطبوع ، كان كذلك ناقدا فى طليعة النقاد الذين يعتد
بآرائهم ونظراتهم الصائبة الى الفن الأدبى ..
والأديب أعرف من غير شك بصناعته ، والكاتب أحق الناس
بالقول فى كتابته ، والشاعر أعرف من غيره بمواضع الاجادة ،
ومواطن التقصير ..

وقد عرفنا أن الصاحب كان واسع الاطلاع كثير المحفوظ من
الروائع الأدبية ، وقد أعانتها ادامة النظر على صحة الفكرة وجودة
الرأى فيما يرى وفيما يسمع ، فقد صارت حضرة كما يقول
الشعالبى (٢) مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار

(١) الصناعتين ١٩٧ •

(٢) يتيمة الدهر ١٨٩/٣ •

الخواطر ، ومجلسه مجعلا لصوب العقول وذوب العلوم ودرر
 القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر ، ويكاد يدخل في حد
 الاعجاز ... واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء
 الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ،
 ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ومملك رق المعاني ،
 فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب
 الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين ، كأبي نواس ،
 وأبي العتاهية ، والعتابي ، والنمري ، ومسلم بن الوليد ،
 وأبي الشيص ، ومروان بن أبي حفصة ، ومحمد بن منذر ..
 وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى . وجرجان مثل
 أبي الحسين السلامي ، وأبي بكر الخوارزمي ، وأبي طالب
 المأموني ، وأبي الحسن البديهي ، وأبي سعيد الرستمي ، وأبي
 القاسم الزعفراني ، وأبي العباس الضبي ، وأبي الحسن بن
 عبد العزيز الجرجاني ، وأبي القاسم بن أبي العلاء ، وأبي محمد
 الخازن ، وأبي هاشم العلوي ، وأبي الحسن الجوهري ، وبنو
 المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشاني ، وأبي الفضل الهذاني ،
 واسماعيل الشاشي ، وأبي العلاء الأسدي ، وأبي الحسن
 الغويري ، وأبي دلف الخرجي ، وأبي حفص الشهرزوري ،
 وأبي معمر الاسماعيلي ، وأبي الفياض الطبري ، وغيرهم ..
 ومدحه مكاتبة الشريف الموسوي الرضي ، وأبو اسحاق
 الصابي ، وابن حجاج ، وابن سكرة ، وابن نباته ...
 وحدث ابن بابك قال : سمعت الصاحب يقول : مكنت

والعلم عند الله بمائة ألف قصيدة شعر ، عربية وفارسية ، وقد أنفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد ، ما سررت بشعر ، ولا سرنى شاعر كما سرّنى أبو سعيد الرستمى الأصفهائى بقوله :

ورث الوزارة كابراً عن كابر مرفوعة الاسناد بالاسناد
يروى عن العباس عباد وزا رته واسماعيل عن عباد^(١)
ان رجلا يرى هؤلاء ويقرأ شعرهم ويستمتع اليه لجدير بأن
يخرجه هذا فى فهم الشعر والأدب وأن يعينه على تذوقه ، ويقدره
على ابداء الرأى فى صوابه وخطئه وفى جودته ورداءته ، وأن
تتسع خبرته بالفن الأدبى لسائر فنونه من الكتابة والخطابة
والشعر ، ولكل ما يتصل بمبناها ومعناها وفى استطاعته أن يردّ
كل قول الى أصله ، وكل سطو الى صاحبه ، ومن أمثلة ذلك ما مر
من أن بعض ندماء الصاحب قال له يوماً : أرى مولانا قد أغار
فى قوله :

لبسن برود الوشى لا لتجمل

ولكن لصون الحسن بين برود

على قول المتنبى :

لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصنّ به الجمالا

فقال الصاحب : كما أغار هو بقوله :

ما بال هذم النجوم حائرة كأنها العمى مالها قائد

(١) معجم الادباء ٦/٢٦٣ .

على العباس بن الأحنف في قوله :
والنجم في كبد السماء كأنه أعمى تحير ما لديه قائد
فما أكثر حفظه ، وما أسرع استحضاره !
وقال الشاعر الأوسى : مدحت الصاحب بن عباد بقصيدة ،
وكنتم أنشدوها بين يديه ، فلما بلغت قولى :
لما ركبك إليك مهرى نعلتها بدر السما وسمرتها بكواكبه
فقال لى الصاحب : لم أنتت المهر وهو مذكر ؟ ولم شبهت
النعل بالبدر وهو لا يشبهه ؟ ولو شبهته بالهلال لكان أحسن
لأنه على صورته وهيئته !

* * *

ومع أن كثيرا من النصوص النقدية التى قيلت فى تلك
المجالس وأشباهاها قد أضاعه الزمن فيما أضاع من آثار الصاحب
الحافلة فى فنون المعرفة والأدب فقد حفظ التاريخ شيئا من آثار
النقد التى كتبها الصاحب ، وهى تنم على معرفة عميقة بالفن
الأدبى ، ومذاهب أصحابه ، ولا غرو فقد كان الصاحب كما يقول
عن نفسه « وهأنا منذ عشرين سنة أجالس الكبراء ، وأكاثر
الأدباء ، وأباحث العلماء ، وأجارى الشعراء ، بالجمال تارة
وبالعراق مرة ، وأخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب
عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب ، فما رأيت من يعرف الشعر
حق معرفته ، وينقله حق نقله غير الأستاذ الرئيس أبى الفضل
ابن العميد ، فانه يجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ،
فلا يرضى بتعذيب المعنى ، حتى يطالب بتخير القافية والوزن ،

وعن مجلسه أعلاه الله أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطرافه كلامه تعلقت فيما أتحدى به في هذا الجنس « .. وذلك بعد أن وصف المتكلمين في الشعر الذين يتصدون لإصدار الأحكام على الأدباء ، وهم لا يملكون الأداة التي تمكنهم من إصدار هذه الأحكام : « وقد بلينا بزمن زمن^(١) يكاد المنسم^(٢) فيه يعلو الغارب^(٣) ، ومينا بأغبياء أغمار^(٤) قد اغتروا بممادح الجهال لا يضرعون لمن حلب الدهر أشطره^(٥) ، ولا سيما علم الشعر فهو فوق الثريا وهم تحت الثرى ، وقد يوهمون أنهم يعرفون ، فاذن تكلموا رأيت بهائم مرسنة^(٦) ، وأنعاما مجفلة^(٧) .

الصاحب والمتنبى :

قال الصاحب هذا في وصف كثير من الذين كانوا يعرضون في زمنه للكلام في فن الشعر من غير علم ولا معرفة في مقدمة رسالته التي كتبها في « الكشف عن مساوئ المتنبى » لما رأى

(١) الزمن - بكسر الميم - المبتلى .

(٢) المنسم - على وزن المجلس - خف البعير .

(٣) الغارب : ما بين السنام الى العنق .

(٤) جمع غمر - بضم الغين وسكون الميم وضمها ، وهو الذى لم يجرب الأمور .

(٥) حلب الدهر أشطره ، مثل يضرب في الخبرة وطول التجربة ، وهو مستعار من حلب أشطر الناقة وذلك اذا حلب خلفين من أخلافها ثم يحلبها الثانية خلفين أيضا ، والمعنى أنه اختبر الدهر شطرى خيره وشره فعرف ما فيه .

(٦) مرسنة أى مشدودة بالرسن وهو الحبل .

(٧) يقال : أجفلت الدابة اذا أسرع وزهبت في الأرض .

كثيرا من هؤلاء يشيدون بالمتنبى ، ويغنون في وصف شاعريته .
ولقد شغل أبو الطيب المتنبى عصره ومعاصريه بشعره
وشخصيته ومطامحه ، فقد اتصل بسيف الدولة بن حمدان أمير
حلب والشغور والجزيرة ، فمدحه بمدائح خلدت وخلّدت اسمه
أبد الدهر ، وحضر معه الوقائع العظيمة مع الروم ، وحدث في
واقعة منها أن دارت الدائرة على سيف الدولة ، وتشتت جنده ،
وهلكت أتباعه ، وثبت سيف الدولة في ستة نفر أحدهم أبو الطيب ،
فاخترقوا صفوف العدو ونجوا ، وبقي أثيرا عند سيف الدولة
مقدّما في جميع حاشيته وبطاته مع صلفه وتبّيه ، فحسده بطاته ،
فوشوا به اليه حتى فارقه الى كافور الاخشيدى صاحب مصر
واسع الآمال في ملك أو ولاية ، حتى اذا طاش سهمه وخاب فأله
فرّ من مصر ، قاصدا بغداد ، وقد ترفع عن مدح الوزير المهلبى ،
ترفعا عن مدح غير الملوك ، فشق ذلك على المهلبى ، فأغرى به
شعراء بغداد ، حتى نالوا من عرضه وتباروا في هجائه ، وأسمعوه
ما يكره ، وتماجنوا به ، وتنادروا عليه ، فلم يجبههم ولم يفكر
فيهم ، وقيل له في ذلك ، فقال : انى فرغت من اجابتهم بقولى لمن
هم أرفع طبقة منهم فى الشعراء :

أرى المتشاعرين غرّوا بدمى ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّا به الماء الزلالا
ثم ان أبا الطيب اتخذ الليل جملا ، وفارق بغداد متوجها الى
حضرة أبى الفضل بن العميد مراغما للمهلبى الوزير ، فورد أرجان ،
وأحمد مورده .

ويقال ان صاحب أبا القاسم طمع في زيارة المتنبى اياه بأصبهان ، واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو اذذاك شاب ، ولم يكن قد استوزر بعد . وقد كتب صاحب اليه يلاطفه في استدعائه ، ويضمن له مشاطرته جميع ماله . فلم يقم له المتنبى وزنا ، ولم يجبه الى كتابه ، ولم يحقق مراده .

وقصد المتنبى بعد ذلك الى حضرة عضد الدولة بشيراز — فأسفرت سفرته — كما يقول الثعالبي^(١) — عن بلوغ الأمنية ، وورود مشرع المنية .. وذلك أن المتنبى قتل عند مغادرته اياه محملا بالعطايا والهبات ..

قال الثعالبي : واتخذ الصاحب غرضا يرشقه بسهام الوقعة ، ويتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ، وهو أعرف الناس بحسناته ، وأحفظهم لها ، وأكثرهم استعمالا اياها ، وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته !

* * *

وقد عمل الصاحب رسالة فيما أخذه على المتنبى ، وذكر الحاتمي جملة من نقدرات الصاحب في مناظرته مع أبي الطيب المتنبى . « واذا فرضنا أن الذي دعا الصاحب الى عمل هذه الرسالة هو استيأؤه من المتنبى حيث تعاضم عن مدحه ، فانا نجد له لم يتحامل عليه بالباطل في شيء منها ، ولم يظلمه بحرف واحد جاء فيها ، ولم يعبه الا بما هو عيب ، لا يمكن للمتنبى ولا لغيره أن يعتذر منه (٢) .

(١) يتيمة الدهر ١٢٢/١

(٢) أعيان الشيعة ١٦٠/٨

وفي مقدمة تلك الرسالة التي كتبها صاحب في الكشف عن مساوئ المتنبي ، نجد صاحب قبل أن يدخل في موضوعه يبرأ من الهوى والعصية ، ويرى أنهما يزران بالعالم ويحطان من علمه ، كما أن تغليب الهوى يطمس الحقائق « أما بعد ، — أطل الله مدتك ، وأدام في العلو رغبتك — فالهوى مركب يهوى بصاحبه ، وظهر يعثر براكبه . وليس من الحزم أن يزرى العالم على نفسه بالعصية ، ويضع من علمه بالحمية . فالناس مع اختلافهم وتباين أصنافهم متفقون على أن تغليب الهوى يطمس أعين الآراء ، وأن الميل مع الهوى عن الحق يبهيم سبيل الصدق ^(١) » . ثم يذكر سبب التأليف وهو تعصب بعض الأدباء لأبي الطيب المتنبي ، وفيهم أن له قبيحا ، وكنت ذاكرت بعض من يهتم بالأدب والأشعار وقائلها والمجودين فيها ، فسألني عن المتنبي ، فقلت : إنه بعيد المرمى ، وشعره كثير الإصابة في نظمه ، إلا أنه ربما أتى بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء ! . فرأيته قد هاج وحمى وتأجج ، وأدعى أن شعره مستمر النظام ، متناسب الأقسام . ولم يرض حتى تجداني ، فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت في ورقة ما تنكره ، وقيّد بالخط ما تذكره ، لتصفحه العيون ، وتسبكه العقول !

ف فعلت ذلك ، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتي ،

(١) الكشف عن مساوئ المتنبي = الابانة عن سرقات

المتنبي : ٢٢٢ .

«ولا تتبع الزلات من طريقي ! وقد قيل : أى عالم لا يهفو ،
وصارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو ؟ وانما قلت ما قلت لئلا
يقدر هذا المعترض أننى ممن يروى قبل أن يروى^(١) ، ويخبر
قبل أن يخبر . فاستمع وأنصت ، واعدل وأنصف ، فما أوردت
من كثير مازل فيه الا قليلا ، ولا ذكرت من عظيم ما اختل فيه
الا يسيرا ..

قال صاحب : والآن حين أعود الى ذكر المتنبي ، فأخرج
بعض الأبيات التى يستوى فيها الريّض والمرئاض^(٢) فى المعرفة
بسقوطها دون المواضع التى تخفى على كثير من الناس لغموضها .
فأما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعر الجاهلية والاسلام
عليها ، ولكن يعاب اذا كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبخترى
وغیره جل المعانى ، ثم يقول لا أعرفهم ، ولم أسمع بهم ، ثم ينشد
أشعارهم ، فيقول : هذا شعر عليه أثر التوليد ؟
ثم يأخذ صاحب فى تعداد المعايب فى بعض شعر المتنبي ،
فيقول : وأول حديث المتنبي أن لا دليل أدل على تفاوت الطبع
ممن جمع الاحسان والاساءة فى بيت كقوله :

* بليت بلى الأطلال ان لم أقف بها *

وهذا كلام مستقيم لو لم يعاقبه ويعقبه بقوله :

* وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه *

(١) يروى الثانية - بتشديد الواو المكسورة - ينظر ويفكر .

(٢) يقال ناقة ريض ، أول ما ريضت وهى صعبلة بعد ،
والمرئاض أنهر صار مروضاً .

فان الكلام اذا استشف جيده ووسطه ورديئه كان هذا
الكلام من أرذل ما يقع لصبيان الشعراء وولدان الأدباء . وأعجب
من هذا هجومه على باب قد تداولته الألسنة ، وتناولته القرائح ،
واعتورته الطباع باسائة لا اسائة بعدها : سقوط لفظ وتهافت
معنى ، فليت شعري ! ما الذى أعجبه من هذا النظم ، وراقه من
هذا السبك ، لولا اضطراب فى النقد ، واعجاب بالنفس ؟
ومن شعره الذى يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة
الموجودة فى طبعه ، بيت رقية العقرب أقرب الى الأفهام منه ، وهو :
نحن من ضايق الزمان له فيك وخاتته قربك الأيام (١)
فان قوله « له فيك » لو وقع فى عبارات الجنيد والشبلى
لنازعته المتصوفة دهرا بعيدا ..

* * *

ثم تناول صاحب أبياتا من مرثية المتنبى فى أم سيف الدولة ،
ووصفها بأنها تدل على فساد الحس ، وسوء أدب النفس ، وهى
الأبيات :

رواق العزّ حولك مسبط	وملك على ابنك فى كمال
وهذا أول الناعين طرّا	لأول ميتة فى ذا الجلال
ضلاة الله خالقنا حنوط	على الوجه المكفن بالجمال
ولا من فى جنازتها تجار	يكون وداعهم خفق النعال
وأفجع من فقدنا من وجدنا	قبيل الفقد مفقود المثال

(١) يريد أن الزمان يهواه ويفار عليه فلا يسمح لأحد أن
يقترّب منه لينفرد به دون الناس .

وقد عاب الصاحب البيت الأول بأن لفظة « الاسبطرار »^(١) في مراثى النساء من الخذلان الصفيق الدقيق المغير . وقال عن البيت الثاني من سمع باسم الشعر عرف ترددده في انتهاك الستر ، ولما أبدع في هذه المراثية واخترع قال البيت الثالث ، وقد قال فيه بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ولكنها استعارة حداد في عرس . ولما أحب تقريظ المتوفاة والافصح عن أنها من الكريمات قال البيت الرابع بعد أن أعمل دقائق فكره ، واستخرج زبدة شعره^(٢) ، وسخر الصاحب بقوله : لعل هذا البيت عنده وعند من يقول بامامته أحسن من قول الشاعر :
 أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّه فطيب تراب القبر دلّ على القبر
 أما البيت الخامس فقد قال فيه ان الناس كانوا يستبشعون قول مسلم بن الوليد :

* سلت وسلت ثم سل سليلها *

حتى جاء هذا المبدع فقال بيته ، وأظن المصيبة في المراثي أعظم منها في المراثي !

وأخذ الصاحب على المتنبي التفاسح بالألفاظ النادرة

(١) الاسبطرار التمدد .

(٢) معنى هذا البيت انها ليست من النسوة السوقية يسمي وراء جنازتها التجار والباعة ، وينفضون نعالهم بعد انصرافهم من قبرها .

والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء أو غدى لبن (١) ، ولم
يطأ الحضر ولم يعرف المدر (٢) ، فمن ذلك قوله :
أيفطمه التوراب قبل فطامه

ويأكله قبل البلوغ الى الأكل (٣) ؟
وما أرى كيف عشق « التوراب » حتى جعله عوذة شعره ؟ .
وعاب عليه قوله :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا

فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل
قال : وما زلنا نعجب من قول أبي تمام « لا تسقني ماء
والمخضرمين والمحدثين ، والصب على قوالبهم ، فقال :
الملام » فخفف علينا بجلواء البنين . وقد أراد التشبه بالمتقدمين
ان كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام
و « حينئذ » هنا أنقر من غير منفلت . ومن أساليبه العجيبة في
التعزية عن المصيبة قوله :

لا يحزن الله الأمير فانتى لآخذ من حالاته بنصيب
ولا أدري لم لا يحزن سيف الدولة اذا أخذ أبو الطيب
بنصيب من القلق ؟ أترى هذه التسلية أحسن عند الشعراء أم
قول أوس :

(١) أى كأنه أعرايى من البادية .

(٢) المدر : المدن والحضر .

(٣) التوراب : التراب ، معنى البيت : أيفطمه التراب قبل أن
تفطمه أمه ، ويأكله التراب قبل أن يبلغ سن الأكل .

أيتها النفس أجملى جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا ؟
و كنت أتعجب من كلام أبى يزيد البسطامى فى المعرفة وألفاظه
المعقدة وكلماته المبهمة حتى سمعت قول شاعرنا فى صفة فرس :
وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد
وما أحسن ما قال الأصمعى لمن أنشده :

فما للنوى جذّ النوى قطع النوى

كذاك النوى قطّاعة لوصال

لو سلط الله على هذا البيت شاة لأكلت هذا النوى كله .
ولم تنفك مستحسنين لجمع الأسامى فى الشعر ، فاحتذى هذا
الفاضل على طرق الشعراء فقال :

وأنت أبو الهيجا بن حمدان يا ابنه

تشابه مولود كريم ووالد

و حمدان حمدون و حمدون حارث

وحارث لقمان ولقمان راشد

وهذه من الحكمة التى تركها أرسطاطاليس وأفلاطون لهذا
الخلف الصالح ، وليس على حسن الاستنباط قياس .. ومن بدائعه
الطريفة عند متعلقى حيله وقرائحه البديعة عند ساكنى ظله :

شديد البعد من شرب الشمول ترنج الهند أو طلع النخيل

فلا أدرى استهلال الأبيات أحسن ؟ أم المعنى أبدع ؟ أم قوله

« ترنج » أفصح ؟

ومن لغاته الشاذة ، وكلماته النادرة قوله :

كل آخائه كرام بنى الهدى يا ولكنه كريم الكرام

ولو وقع « الآء » فى رائفة الشماخ لاسثقل ، فكيف مع
أفبات منها :

قد سمعنا ما قلت فى الأحلام فأجزناك بدرة فى المنام
والكلام اذا لم فتناسب زفنه جهاذته ، وبهرجه تقاده .
وله ففب لا ففدرى أمدح القائل به أم رثاه ، وهو :

شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرخ من ففحه وصهفل^(١)
فلم فرفض أن سرق من بفار قوله :

والففل شائلة لشق فبارها كعقارب قد رفعت أذناؤها
حتى ضففع الفشففه الصائب ففن ألفاظ كالمصائب . والفذى
لا أمترى ففه أن عالما من المناضلفن عنه عنده أن « شوائل تشوال
العقارب » أبداع فى صفه الففل من قول امرىء القفس :

له ففطلا فبى وساقا نعامة وارفاء سرحان وفقرفب فففل
ومن أوافده الفى لا فسمع طوال الدهر مثالها قوله فى سفف
الدولة :

اذا كان بعض الناس سففا لدولة

ففى الناس بوقات لها وطبول

وهذا الفحاظق منه كنفل الشفوخ قفبا ، ودلائل العفائف
سمافة ، ولكن بقى أن فوجد من فسمع . وفى هذفا القصفدة
فقول :

(١) شوائل : فقال شالفا العقرب ذنبا اذا رفعته ، فرفد أنها
سرفعة السفر ، فرفع أذناها فى سفرها ، وذلك دلفل على كرمها
وقوتها .

فان تكن الدَّوَلات قسما فانها

لمن ورد الموت الزَّوَام تدول

فان قوله « الدولات » و « تدول » من الألفاظ التى لو رزق فضل السكوت عنها لحاز فضلا ، ومن مبادئه التى تجمع استكراه الألفاظ وسقوط المعنى :

وما مطرّتيه من البيض والقنا

ورثوم العبدى هاطلات غمامه^(١)

ومن ركيك صنعته فى وصف شعره والزراية على غيره قوله :

ان بعضا من القريض هراء

ومن هذا نتيجة قريحته فى وصف شعره كيف يطمع له بادعاء سبق لولا التقليد الذى صار آفة العقول وعاهة الألباب ؟ ومما لم أقدره يلج سمعا أو يرد أذنا قوله :

جواب مسألى : أله نظير ؟ ولا لك فى سؤالك لا ألا^(٢)

وقد سمعت بالفاء ، ولم أسمع باللام حتى رأيت هذا المتكلف المتعسف الذى لا يقف حيث يعرف . ومن استرساله الى

(١) البيض السيوف ، والقنا الرماح ، والعبدى - بكسرتين ودال مشددة مفتوحة - العبيد . يقول انى سائر كذلك فيما يمطرني به سحب جودك من سيوف ورماح يحملها العبيد ، فانت وهبت لى العبيد وسلاحهم .

(٢) معناه : اذا سئلت عن هذا الممدوح : أله نظير ؟ فالجواب : لا ، ولا لك أيضا نظير فى هذا السؤال ، فان أحدا لا يجهل هذا غيرك !

الاستعارة التى لا يرضاها عاقل ، ولا يلتفت اليها فاضل قوله :
تتقاصر الأفهام عن ادراكه مثل الذى الأفلاك فيه والدنا
فالمصراعان يتبرأ أحدهما من صاحبه ، ثم « الدنا » من الألفاظ
التى لا يبالى الانسان أن يعدمها فى شعره . ومن شعره الذى
يدخل فى العزائم ، ويكتب فى الطلسمات قوله :

لم تر من نادمت الاكا لا لسوى ودك لى ذاكا
وأحسب أنه بهذا البيت أشد سرورا من أم الواحد بواحد
وقد آب بعد فقد ، أو بشرت به عقب ثكل ، ومن أبياته السنية
الجماعية قوله :

لعظمت حتى لو تكون أمانة ما كان مؤتمنا بها جبرين
وقلب هذه اللام الى نون أبغض من وجه المنون ، ولا أحسب
جبريل عليه السلام يرضى منه بهذه المجازاة .. ومن عيوب قصائده
التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام جمعه من الحساب ما لا يدرك
بالأرتماطيقى^(١) ، ولا بالأعداد الموضوعة للموسيقى قوله :

أحاد أم سداس فى أحاد ليلتنا المنوطة بالتنادى
وهذا كلام الحكل^(٢) ورطانة الزط^(٣) ، فما ظنك بممدوح

(١) الأرتماطيقى المقصود به علم الحساب ، وقد نقل بعض
الترجمين الكلمة بحروفها منذ عهد الترجمة والكلمة يونانية
نقلت عنها معظم اللغات الأوربية .

(٢) الحكل بالضم ما لا يسمع صوته كالذر .

(٣) الزط : جيل من الهند ، معرب .

قد شمر للسماح من مادحه ، فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة ،
والمعاني المنبوذة ؟ فأى هزة تبقى هناك ؟ وأى أريحية تثبت بهذا ؟ ..
ومن مساءلته للطلول البالية ، وكلامه أشد منها بلى ، وأكثر
أخلاقا :

أسألها عن المتديريها ^(١) فما تدرى ولا تدرى دموعا
فان لفظة (المتديريها) لو وقعت في بحر صاف لكدرته ،
أو ألقى ثقلها على جبل سام لهدته ، وليس للمقت غاية ، ولا للبرد
نهاية .. ومما يتصل بالفن المتقدم قوله :

عظمت فلما لم تكلم مهابة

تواضعت وهو العظم عظما على العظم
وكان الرجل محاربا ، فقال في وصف الحروب وما تنتج من
رعب القلوب قوله :

فعدا أسيرا قد بللت ثيابه بدم وبلّ ببوله الأفخاذا
فكأنه حسب الأسنة حلوة أو ظنها البرنى والآزادا ^(٢)
فلا أدري أكان في حومة الحرب ، أم في سوق التمارين في
البصرة . ومن مبادئه التي تنبئ عن ركوبه لرأسه ، وعشقه
لنفسه قوله :

لجنّية أم غادة رفع السجف

لوحشية لا ما لوحشية شنف ^(٣)

(١) المتديرون الذين اتخذوها دارا . اذا سألت الربوع
لا تدرى ما تقول ، ولا تبكى فتساعدني على البكاء .

(٢) البرنى والآزاد ، نوعان من أنواع التمر الجيد .

(٣) السجف جانب الستر ، والشنف ما علق في أعلى الأذن .

وفى هذه القصيدة سقطة عظيمة لا يظن لها الا من جمع في علم وزن الشعر بين العروض والذوق ، وهو قوله :

تفكره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف

وذلك أن سبيل العروض الطويل أن تقع « مفاعلين » وليس يجوز أن تأتى « مفاعيلن » الا اذا كان البيت مصرعا ، اللهم الا أن يضع عروضاً لتمام الدائرة ، فهذه العروض قد ألزمت القبض لعل ليس هذا موضع ذكرها ، ونحن نحاكمه الى كل شعر للقدماء والمحدثين فما نجد له على خطئه مساعداً .. ومنها بيت قد حشا تضاعفه بالضعف ، وهو :

ولا الضّعف حتى يبلغ الضّعف ضعفه

ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وهؤلاء المتعصبون له يصلح عندهم أن ينقش هذا البيت على صدر الكعبة ، وينادى فى الناس : قعوا له ساجدين .. وله وقد غاص فأخرج جندلة قوله :

لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو

عقمت بمولد نسلها حواء^(١)

وأنا أقول : ليت حواء عقمت ولم تأت بمثله ، بل ليت آدم

(١) اللذ : لغة فى (الذى) . والمعنى لو لم تكن من هذا الورى الذى كانه منك ، لأنك جماله وشرفه وأنت أفضل أهله لكأنت حواء فى حكم العقيم . قال بعضهم : نصف البيت بهى ، ونصفه ردى .

أجفر (١) ، ولم يكن من نسله ! . ومن تصرفه الحسن وضعه
« التقييس » موضع القياس في قوله :

بشر تصور غاية في آية ينفي الظنون ويفسد التقييس
ويليه بيت ان لم يستحي أصحابه منه سلمنا لهم ، وهو :
وبه يضمن على البرية لا بها وعليه منها لا عليها يوسى
وليس بالحلوقوله :

صدق المخبر عنك دونك وصفه

من بالعراق يراك في طرسوسا

وقد كنت أسمع رواية المعلّى للخليل بن أحمد :

لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك
فاقتفاه شاعرنا هذا وعبر في قفاه ، فقال :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله

ويجهل علمى أنه بى جاهل

وفى رافعى رايته من يشغف بهذا البيت أشد من شغفنا بقول

حبيب الطائي :

أبا جعفر ان الجهالة أمها

ولود وأم العلم جداء حائل (٢)

ومن رفعه وافصاحه عن عظيم محله ، واباتته عن علو همة

قوله :

(١) أجفر عن المرأة : انقطع .

(٢) أبو جعفر كنية محمد بن عبد الملك الزيات ، والجداء
الصغيرة الثدى والذاهية اللبن ، والناقة الحائل التى لم تلحق سنة
أو أكثر .

ربما أشهد الطعام معي

من لا يساوى الخبز الذى آكله

وما أدري الى أين ينخفض قائل هذا المقال فى سقوط النفس
والسّفال (١) ، وفى تشبيهاته المتناسقة فى الخذلان قوله :
وشوق كالتوقد فى فؤاد كجمر فى جوانح كالمحاش (٢)
ومن مخازيه التى خلقها خلقا متفاوتاً تخفيفه « العاش » ؛
وهذا ما لا أعلم سامعا باسم الأدب يسوّغه ، أو يسمح فيه
فيجوّزه ، وذلك فى قوله :

كأنك ناظر فى كل قلب فما يخفى عليك محل غاش
فان جاز هذا جاز أن يقال عباس بن عبد المطلب ، والشماخ
بن ضرار ، ولا تشدد الباء ولا الميم ، على أن ما أورده أشنع من
هذا الذى مثلنا به ، اذ كان لفظ فاعل بنى على فاعل مشددا ..
ولا يزال يركب القوافى الصعبة ثقة بالقريحة السمحة ، فيتبدى
زائيته بقوله :

كفرندى فرند سيفى الجراز لذة العين عدة للبراز (٣)
حتى امتد به النفس فقال :
تضم الجمر والحديد الأعادى دونه قضم سكر الأهواز

(١) السفال - بالفتح - تقيض العلو .

(٢) المحاش : ما أحرقتة النار .

(٣) الفرند جوهر السيف ، والجراز - بضم ففتح - السيف
القاطع . يقول ان سيفى شبيه بى فى المضاء ، وهو جميل فى مرأى
العين .

وهذا « السكر » اذا جمع الى « البرنى » و « والأزاد »
فيما تقدم من شعره تم الأمر .. وليس العجب منه ، ولكن ممن
يظنه معصوما لا يرى له زلل ، ولا يوجد في شعره خلل .. وفي
هذه يصف المدوح ومعرفته بالمديح فيقول :

ملك منشد القريض لديه يضع الثوب في يدي بزّاز^(١)
وفي أقل ما ذكرناه غنى للمنصف ، وان لم يكن في أكثر منه
كفاية للمتعسف . ومما دلنا على حفظه الغريب قوله :
جفخت وهم لا يجفخون بهابهم

شيم على الحسب الأغرّ دلائل

يريد بالجفخ البذخ والفخر ، من قول الشاعر :
أيوعدني بجفخ بنى عمير وقد أفحمت شاعر كل حي ؟
ومنه قول الآخر :

أجفخا اذا ما كنت في الحيّ آمنا

وجبنا اذا ما المشرفة سلت ؟

وليس هذا مثله وهو وليد قرية ومؤدب صبية ! وله ، يريد
أن يزيد على الشعراء في وصف المطايا فأتى بأخزى الخزايا
في قوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبد الله بعرانا
وفي الناس أمّه ! فهل ينشط لركوبها ؟ وكذلك المدوح لعل

(١) يقول ان ممدوحه يعرف الشعر ، كما يعرف البزاز

الثياب .

له عصابة لا يجب أن يركبوا اليه ^(١) ، فهل في الأرض أفحش من هذا السخب ^(٢) ، وأوضع من هذا التبسط ؟ .. وكانت الشعراء لا تصف المآزر تنزيها لألفاظها عما يستبشع ذكره ، حتى تخطئ هذا الشاعر الى التصريح الذي لا يهتدى اليه غيره ، فقال :
 انى على شغفى بما فى خمرها لأعفّ عما فى سراويلاتها ^(٣)
 وكثير من العهر أحسن من عفافه هذا !

* * *

وأنهى صاحب رسالته فى الكشف عن مساوىء المتنبي بقوله : هذه أيدك الله تعالى .. مقدمة علقتها ليستدل بها على ما بعدها ، لو أتيت بنظائرها مما أخرجت من شعره لأضجرت

(١) قال الواحدى : يقول لو قدرت لأظهرت ما وراء ظواهرهم من المعانى البهيمية ، واطهار ذلك باجرائهم مجرى سائر الحيوان بالركوب ، وانما كنت افعل ذلك لأنه لا عقل لهم .
 ويقول فى الرد على صاحب فى نقده هذا البيت : وليس الأمر على ما قال ، لأن الشاعر اذا ذكر الناس فانه يخرج من جملتهم كثيرا من الناس ، كما قال السرى الرفاء :
 لا أن خير الناس حيا وميتا أسير ثقيف عندهم فى السلاسل
 لم يفضل السرى احدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه بهذا البيت ، وان كان أكد بقوله « حيا وميتا » .

(٢) السخب - بفتحيتين - الصخب .

(٣) الخمر جمع خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . قال الواحدى : سمعت أبا بكر الشعرانى يقول : هذا مما عابه صاحب ابن عباد على المتنبي ، وانما قال المتنبي « عما فى سراويلاتها » وهو جمع سربال ، وهو القميص ، وكذا رواه الخوارزمى . يريد المتنبي : مع حبى لوجوهها أعف عن أبدانهن ! .

القارىء ، وأملت السامع ، فان دام هؤلاء الأغمار على النقرار^(١)
لم يعدموا المادة ، ولم يفقدوا الزيادة :

فمن شاء فليعذر ومن شاء فليلم
وللصدق أولى من وفاق البهائم

* * *

ولو أعدنا النظر في هذه الرسالة النقدية التي وصلت إلينا
لأعطينا صورة صادقة لمقدرة صاحب على مزاولة فن النقد
الأدبى ، ولو تمحض صاحب لصناعة النقد ، ولو كان أمامه من
الوقت متسع لقاض قلمه بالعجب العجاب ، ولعد في مقدمة النقاد
العرب لأنه يفضلهم بأنه عالـج هذه الصناعة وهو أديب يعالج أهم
فنون الأدب وهما فن الشعر وفن الكتابة ، وهو فيهما يفضل
صاحبيه الحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات اللذين قال
الجاحظ انه لم يظفر بما طلب من علم الشعر الا عندهما وعند
أمثالهما من أدباء الكتاب !

وقد اعترف للأدباء بالمقدرة على نقد الأدب ، وفضلوا على
غيرهم من العلماء في فروع المعرفة الذين يتناولون فن الأدب من
النواحي التي يحذقونها ويقفون عندها ، أو يتناولون هذا الفن
عن طريق الفكر والنظر ، ومصادق ذلك ما رواه محمد بن يوسف
الحمادى في قوله : حضرت مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

(١) المناقرة والنقرار المراجعة فى الكلام ، والأغمار الذين لم يجربوا

وقد حضر البحتري ، فقال : يا أبا عبادة ، مسلم بن الوليد أشعر
أم أبو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، لأنه يتصرف في كل طريق ،
في كل مذهب ، ان شاء جدّ ، وان شاء هزل ، ومسلم يلتزم طريقا
واحدا لا يتعداه ، ويتحقق مذهبا لا يتخطاه .. فقال عبيد الله :
ان أحمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا ! فقال البحتري :
أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ، وانما يعرف الشعر
من دفع الى مضايقة ، فقال : وريت بك زنادي يا أبا عبادة ! لقد
حكمت في عمّيك حكم أبي نواس في عمّيه جرير والفرزدق ، فانه
سئل عنهما ، ففضل جريرا ، فقليل له ان أبا عبيدة لا يوافقك على
هذا ! فقال : ليس هذا من علم أبي عبيدة ، وانما يعرفه من دفع
الى مضايق الشعر !

ولذلك كان صاحب أجدر المتكلمين في الأدب بالكلام ،
وكانت آراؤه أجدر بالاعتبار والقبول .. وقد يكون السبب الذي
دعا صاحب ما قدمناه ، وهو سخطه على المتنبي لأنه لم يردّ على
كتابه الذي أرسله اليه ، ولم يجبه الى ما أراد من شخوصه اليه
ومديحه اياه . وقد يكون السبب في تحبير هذه الرسالة ما ذكره
الصاحب نفسه من تعصب جماعة ممن ينتسبون الى الأدب
للمتنبي وشعره ، وذهابهم الى تبرئته من الأخطاء والعيوب ،
ومغالاتهم في الدفاع عنه والتعصب اليه . ولذلك كان أكثر كلام
الصاحب موجها اليهم .

ومع ذلك فان صاحب كما رأينا لم يقل ان شعر المتنبي ساقط
كله ، أو مردول أكثره ، بل ان صاحب كما رأينا يمجّد المتنبي

ويصفه بأنه « بعيد المرمى » ويصف شعره بأنه « كثير الاصابة في نظمه » .. وكل ما ذكره سقطات معدودة ، وهنوات في بعض أبياته ، وهى تغفر فى هذا الخضم من الشعر الكثير الغزير الذى جمعه ديوانه الحافل ، وربما أتى — كما يقول صاحب « بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء » ..

ويبدو أن أنصار المتنبي هم الذين استفزوا صاحب كما ذكر ، ولم يرضوا حتى تحدوه ، وطلبوا اليه أن يثبت فى ورقة ما ما ينكره عليه ، ويقيد بالخط ما يذكره حتى تتصفح العيون ... واعترف صاحب بشاعرية المتنبي على الرغم من ذلك واضح لا يحتاج الى بيان ، فقد اعتذر عنه بقوله صراحة : أى عالم لا يهفو ؟ وأى صارم لا ينبو ؟ وأى جواد لا يكبو ؟ فقد جعله عالما ، وشبهه بالسيف الصارم ، والجواد السابق الكريم .. وقال صاحب عن نفسه ان تطلب العثرات ليس من شيمته ، ولا تتبع الزلات من طريقته ..

* * *

ولكن مما لاشك فيه أن ما ذكره صاحب من مآخذ على شعر أبى الطيب لا يسع أكثر الناس انصافا وميلا الى التسامح أن يقرّوه على صحة رأيه ، ويسلّم له بنقده .

وقد أملت هذه الرسالة الموجزة التى كان من الممكن أن تطوله حتى تكون كتابا له اعتباره فى مراجع النقد وأصوله . أملت بأكثر النواحي التى ينظر اليها فى العمل الأدبى والشعرى بصفة خاصة ،

فقد تناولت اللفظ وقيمته ، كما تناولت التركيب كله ، وعالجت
الفكرة والمعنى وعالجت جو العمل الأدبي وظروفه .

فقد نقد صاحب لفظ المتنبي المفرد وعبارته المركبة ، فذكر
الغرابة والتنافر والتعقيد الذى أصيب به بعض شعر المتنبي ، كما
نقد سوء المطالع التى جانب المتنبي فيها الذوق ، وتنبه الى
الألفاظ الشعرية والألفاظ غير الشعرية ، والمعانى التى تقبح والتى
تجمل ، والأسلوب الذى لا يناسب الغرض الذى يعالجه الشاعر ،
كما نقد الابتذال فى الألفاظ والفحش فى المعانى ، فقد عاب
« الاسيطرار » ولا سيما فى مرثئى النساء ، وعاب الوجه « المكفن
بالبجمال » وقال انه « استعارة حداد فى عرس » ! وعاب التجار
و « خفق النعال » بعد الجنازة ، وعاب تكرار الألفاظ التى يسبب
اجتماعها تنافرا وثقلا ، وعاب التفاسيح بالألفاظ النافرة المهملة
كلفظ « التوراب » الذى كان المتنبي ولوعا به ، وكأنه يتخذ
عموذة أوراقية ، وعاب استعارته الغريبة فى « حلواء البنين » .
وعاب كلمة حينئذ وهى صحيحة الا أنها ليست من لغة الشعر ،
وعاب جمع الأخ على « آخاء » ولو وردت فى شعر الشماخ
لاستقل ، وعاب عليه « البوقات » و « الدولات » واستكراه
الألفاظ وسقوط المعانى ، والاستعارات الخاطئة أو القبيحة
كاستعارة المحول للحدود ، ومخالفته قواعد اللغة ..

ولقد اعتمد صاحب فى نقده على ثقافته اللغوية والأدبية ،
وعلى ذوقه الفنى الناضج فى أكثر ما عاب عليه أبا الطيب .

* * *

الا أننا وجدنا ظاهرة جديدة فى هذا النقد ، وهى روح
السخرية والمرح التى تفشت فى ثناياه ، مما لم نعهده فى كثير من
فصول النقد الأدبى ، ولا شك أنها سخرية الفنان التى تدفع
القارئ الى التأمل ، وفى هذه السخرية العذبة التى تفيض فى
ثنايا نقد صاحب قليل من الكلمات اللاذعة التى تطغى عذوبتها
على ما قد يكون فيها من الفحش .. ومن أمثال هذه السخرية
المرحة والفكاهة العذبة ، ولكنها سخرية لازعة :

« ومن شعره الذى يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة
الموجودة فى طبعه ، بيت رقية العقرب^(١) أقرب الى الأفهام
منه » ..

« قوله — له فيك — لو وقع فى عبارات الجنيد والشبلى^(٢)
لنازعت المتصوفة دهرا بعيدا » ..

« هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها بمثابة « وقيل يا أرض
ابلعى ماءك » من القرآن ، و « اصدع بما تؤمر » من الفرقان !
« قال بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ،
ولكنها استعارة حداد فى عرس » !

« كان الناس يستبشعون .. حتى جاء هذا المبدع يقول » ..
« أظن المصيبة فى الرائي أعظم منها فى المرثي » !

(١) رقية العقرب يشبه بها ما لا يفهم من الكلام ، وقد يقال
« رقية الحية » فى الكلام الطويل الذى لا يفهم .
(٢) علمان من أعلام المتصوفة فى الاسلام .

« ما أدري كيف عشق » التوراب « حتى جعله عوذة في شعره » ..

« ومن تعقيدته الذى لا يشق غباره » ..

« ما أشك أن هذا البيت عند حملة عرشه .. » .

« هذه من الحكمة التى تركها أرسطاطاليس وأفلاطون لهذا

الخلف الصالح ، وليس على حسن الاستنباط قياس » !

« هذا التحاذق منه كتغزل الشيوخ قبحا ، ودلال العجائز

سماجة ، ولكن بقى من يسمع » !

« من افتتاحاته التى تفتح طريق الكرب ، وتغلق أبواب

القلب » ..

« ومن شعره الذى يدخل فى العزائم ، ويكتب فى الطلسمات » ..

« قلب اللام الى النون فى « جبرين » أبغض من وجه المنون ،

ولا أحسب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذه المجازاة » ..

« لا أدري أكان فى حومة الحرب ، أم فى سوق التمارين

بالبصرة ؟ » ..

« هؤلاء المتعصبون له يصلح عندهم أن ينقش هذا البيت

على صدر الكعبة ، وينادى فى الناس : قعوا له ساجدين ! » .

« وقد غاص فأخرج جندلة » !

« وهذا السكر اذا جمع الى البرنى والأزاذ تم الأمر » !

ومن تهكمه المرير الذى يبدو فيه الفحش قوله : فأتى بأخرى

الخرايا فى قوله :

« وفى الناس أمه ، فهل ينشط لمكوبها ؟ » .

وأياما كان الأمر فان هذا اللون الساخر من النقد هو أحب الألوان الى القراء ، لأنه أسلوب خفيف يجلب المتعة ، ويسرّي عن خاطر ، فوق ما يستثير من الأذواق ، ويحركها في طلب موضع النقص ، والوقوف على مظنة الطرفة ، فهو نقد أشبه بالأدب في عذوبة عبارته ، وصفاء ديباجته ، وتلك هي طبيعة صاحب في أدبه وفي أخلاقه ، كلها تفيض سماحة وسلاسة وعذوبة .

وكان لهذه الرسالة الموجزة التي كتبها صاحب أثر كبير في تنشيط حركة النقد الأدبي فدارت معارك نقدية كثيرة حوله المتنبى بين خصومه الناقمين عليه أو على أدبه ، وأنصاره المتعصبين له ، وقد أفاد النقد الأدبي عند العرب من هذه المعارك التي ابتدأها صاحب فوائد جلية ، غنى بها هذا النقد ، وتعددت مناهجه ، واحتكت الآراء احتكاكا أشعل الجذوة المستترة في النفوس ، والمواهب الكامنة في الرؤوس ، ومن أمهات الآثار النقدية التي يعتز بها الفكر العربي ، وتزدان بها المكتبة الأدبية ، من آثار هذه المعركة كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » الذي ألفه القاضي أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني الذي قال فيه أحد الشعراء من أهل نيسابور :

أيا قاضيا قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطه
كتاب الوساطة في حسنه لعقد معاليك كالواسطه
وقد كان القاضي أبو الحسن صنيعة صاحب كما تقدم «

قال الثعالبي (١) : ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة في اظهار
مساوىء المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب « الوساطة بين
المتنبي وخصومه في شعره » فأحسن وأبدع ، وأطال وأطاب ،
وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الأمد في فصل الخطاب ،
وأعرب عن تبخره في الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة
الحفظ وقوة النقد ، فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار في البلاد
يغير جناح ..

(١) نسيمة الدهر ٤/٤ .

الفصل السادس

علم الصاحب

علم الصاحب

ذكر أبو حيان في « الامتاع والمؤانسة » عن الصاحب أنه كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان ، قد تتف من كل أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافا ، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابته مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب . قال : وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس عنده بالجزء الالهي خبر ، ولا له فيه عين ولا أثر ، وهو حسن القيام بالعروض ويقول الشعر ، وليس بذلك ، وفي بديهته غزارة (١) ..

هذا ما ذكره أبو حيان ، وعد عرفنا ولوعه بانتقاص الصاحب ، وهو هنا لا يذكر من ثقافة الصاحب وعلمه الا الثقافة الأدبية ، كما اصطلاح عليها في أزمانهم ، فقد « تتف من كل أدب خفيف أشياء ، وأخذ من كل فن أطرافا » اذ كان الأدب كما كانوا يعرفونه « هو الأخذ من كل فن بطرف » .. ومعنى ما وصفه به أنه لم يكن صاحب ثقافة أصيلة ، أو معرفة عميقة يعدّ بها عالما بين علماء فن من تلك الفنون ، وحجة في مسائله وادراك أصوله وفروعه . ولكننا مع ذلك نقر أبا حيان على أن الثقافة المتميزة عند

(١) الامتاع والمؤانسة ٥٥/١ .

الصاحب هي الثقافة الأدبية وأن شهرة الصاحب في ميدان الثقافة انما قامت على أنه أديب استوفى أداة الفن الأدبي واجتمع لديه ما يلزم لها من ألوان المعرفة . ولكن ليس معنى ذلك أن الصاحب كان أديبا فحسب ، ولكن معناه أن ثقافته الأدبية كانت الغالبة على سائر ألوان ثقافته وان كان قد برّز في فنون كثيرة أخرى من المعرفة ، كان عالما بها ، وكان حاذقا في معرفتها ، وحجة في مسائلها ، وكان صاحب قول فيها .

* * *

وقد وصفه كثير من المترجمين بوفرة العلم وتنوعه ، فقال الأنباري في نزهة الألباء : وأما الصاحب أبو القاسم اسماعيل ابن عباد فانه كان غزير الفضل متفنا في العلوم ، أخذ عن أبي الحسين بن فارس .. وصنف تصانيف كثيرة كالوقف والابتداء ، والعروض ، وجوهرة الجمهرة .. ويحكي عنه أنه لما صنف كتاب « الوقف والابتداء » كان في عنفوان شبابه ، فأرسل اليه أبو بكر الأنباري ، وقال له : انما صنفت كتاب « الوقف والابتداء » بعد أن نظرت في سبعين كتابا تتعلق بهذا العلم ، فكيف صنف هذا الكتاب مع حداثة سنك ؟ فقال الصاحب للرسول : قل للشيخ نظرت في النيف وسبعين التي نظرت فيها ونظرت في كتابك أيضا ^(١) ! . وقال فيه المولى محمد تقى المجلسي بقوله : هو أفقه أصحابنا المتقدمين والمتأخرين ، وكل ما يذكر من العلم والفضل فهو فوقه .. وهو رئيس المحدثين والمتكلمين

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ٤٠٠ .

علامة . وعن تاريخ الوزراء : كان صاحب الكافي اسماعيل بن عباد
وحيد عصره وفريد دهره في العلم والفضل والفهم والفطنة ،
مقدما في اصابة الرأي والتدبير واطاعة خاطر ، وصفاء
الضمير (١) ..

* * *

فهذه الأقوال الكثيرة تدل على أن صاحب كان عالما كما كان
أديبا ، وإن غلب أدبه على علمه ، وربما كان ينقص بعض هذه
الأقوال التوضيح اللازم الذي يدل على ما تبجّر فيه ، وجهوده
المتأزمة التي بذلها في كل أصل . وفي كل فرع .

* * *

وقد عرف عن صاحب أنه كان من أصحاب علم الكلام ،
وأنه كان من فريق المعتزلة فقد كان يقول « المذهب مذهب
الاعتزال » . والمعتزلة معدودون في نظر كثير من الباحثين هم
فلاسفة الاسلام ، ولهم آراء كثيرة مفصلة في كتب الملل والنحل ،
وقد تفرقوا الى فرق كثيرة ، ومن أقوالهم القول باستحالة رؤية
الله عزّ وجلّ بالأبصار ، ومنها اتفاقهم على القول بحدوث كلام
الله عزّ وجلّ وحدوث أمره ونهيه ، وكلهم يزعمون أن كلام
الله عزّ وجلّ حادث وأكثرهم يسمون كلامه مخلوقا ، ومنها
قولهم ان العبد يكسب أعماله ولأجل هذا سموا أنفسهم
أو سماهم المسلمون (قدرية) . ومنها اتفاقهم على دعواهم في

(١) أورد صاحب « أعيان الشيعة » في الجزء الحادي عشر ،
طائفة من أقوال المترجمين في علم صاحب .

الفاسق من أمة الاسلام بالمنزلة بين المنزلتين ، وهى أنه فاسد
لا مؤمن ولا كافر ، ولذلك سماهم المسلمون معتزلة لاعتزالهم
قول الأمة بأسرها (١) ..

والمعتزلة يسمون أنفسهم « أصحاب العدل والتوحيد » . وهم
أهل فصاحة وبيان وجدل ومناظرة .

وقد كان صاحب واحدا من أولئك المعتزلة أهل العدل
والتوحيد ، ومن القائلين بخلق القرآن ، وفى كلامه صاحب ما يؤيد
اعتناقه مذهبهم ، وسيره فى طريقهم ، حتى ليظهر أثر هذا فى بعض
شعره الذى يضمه اشارات الى مسائل من أقوالهم التى يعتقدونها ،
فمن ذلك قوله :

ولما تناءت بالأجبية دارهم
وصرنا جميعا من عيان الى وهم
تمكن منى الشوق غير مسامح
كمعتزلى قد تمكن من خصم

وقوله :

كنت دهرا أقول بالاستطاعة
وأرى الجبر ضيلة وشناعة
ففقدت استطاعتي فى هوى ظم
فى فسمعا للمجبرين وطاعة

(١) راجع فى سائر آرائهم وفرقهم كتاب « الفرق بين الفرق
وبيان الفرقة الناجية منهم » لأبى منصور عبد القاهر بن طاهر بن
محمد البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ فى الفصل الثالث ، صفحة
٩٣ وما بعدها .

والمجبرة أو الجبرية بعكس القدرية ، ينفون استطاعة العبد
قبل وبعد ووقت الفعل . وكقوله :

بالنص فاعقد ان عقدت يميننا

كل اعتقاد « الاختيار » رضىنا

مكن لقول الهننا تمكينا

وذلك أن المعتزلة يقولون ان العبد يخلق أفعاله أو يختارها ،
ولا يجوز اسناد الشر والظلم الى الله تعالى ، فليس الانسان
مجبورا ، وأثبتوا له قوة واستطاعة بها يفعل ما اختار فعله (١)
وكذلك يذكر صاحب « العدل والتوحيد » في شعره ، ويقول
انهما عقيدته ومذهبه الذى يدين به ، وهذا ما يقوله المعتزلة الذين
يسمون أنفسهم « أصحاب العدل والتوحيد » (٢) ، كقوله :

« العدل والتوحيد » والامامه والمصطفى المبعوث من تهامه
وسيلتى فى عرصة القيامة

وكقوله :

لو شق قلبى يرى وسطه سطران قد خطا بلا كاتب
« العدل والتوحيد » فى جانب وحب أهل البيت فى جانب
وكقوله :

« العدل والتوحيد » مذهبى الذى

يزهى به الايمان والاسلام

(١) راجع (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) لابن حزم ١٤/٢ .

(٢) راجع (الملل والنحل) للشهرستانى ٥٠/١ على هامش

(الفصل فى الملل والأهواء والنحل) .

وولایتی لمحمد ولآله

دینی وحصن الدین لیس یرام

فہناک جبل اللہ مظہور القسوی

وعلیہ من سر القضاء ختام

وکقولہ ، وذكر « العدل » وحده :

نعرفت بالعدل فی مذہبی ودان بحسن جدالی العراق
فکلفت فی الحب مالم أطق فقلت بتکلیف ما لا یطاق
وقد کان الصاحب یدعو لمذہبه ، ویشجع علیہ ، كما روى
الثعالبی عن أبی الحسن الشقیقی البلخی أن الصاحب کتب فی
توقیعه الی رقعة الیه : « من نظر لدینہ نظرنا لدنیاه ، فان آثرت
العدل والتوحید ، بسطنا لك الفضل والتمهید ، وان أقمت علی
الجبر ، فلیس لكسرك من جبر » (۱) ..

ومن المسائل الكبرى التي أثارها المعتزلة ، وكثر فيها البحث
والمناظرة قولهم بأن القرآن مخلوق ، وقد أجمع أهل الاسلام
كلهم أن الله تعالى كلاما ، وعلى أن الله تعالى كلم موسى عليه
السلام ، وكذلك سائر الكتب المنزلة كالطورا والانجيل والزبور
والصحف ، فكل هذا لا اختلاف فيه بين أحد من أهل الاسلام ،
ثم قالت المعتزلة ان كلام الله تعالى صفة فعل مخلوق ، وقالوا ان
الله عز وجل كلم موسى بكلام أحدثه فی الشجرة . وقال أهل السنة
ان كلام الله عز وجل هو علمه لم یزل ، وأنه غیر مخلوق ، وهو
قول الامام أحمد بن حنبل وغيره رحمهم الله ، وقالت الأشعرية

(۱) یتیمۃ الدہر ۱۹۷/۳

كلام الله تعالى صفة ذات لم تنزل غير مخلوقة ، وهو غير الله تعالى ،
وخلاف الله تعالى ، وهو غير علم الله تعالى ، وأنه ليس لله تعالى
الا كلام واحد (١) .

وقد تعصب لرأى المعتزلة ، وقولهم ان « القرآن مخلوق »
طائفة من الخلفاء العباسيين كالمأمون والمعتصم والواثق الذين
عملوا على أن يحملوا العلماء والفقهاء على الأخذ بهذا القول ،
وقد كانت فتنة كبيرة أصابت أضرارها عددا كبيرا من فقهاء المسلمين
وعلمائهم ، وعذب بسببها كثير من فضلائهم الذين كانوا لا يقرون
القول بهذه البدعة التي لا أثر لها في تقديم أو تأخير أو شك
أو يقين ، مع أن المسلمين جميعا كانوا على القول بأن القرآن
كلام الله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من
حكيم حميد .

* * *

وجرت في هذه الفتنة مناظرات كثيرة بين الحكام والفقهاء
بأمر الخلفاء ليحملوا الناس على الأخذ بقولهم في خلق القرآن ،
فمن تابع هواهم أقرّ على عمله ، ومن أصرّ على مخالفتهم نحى
عن وظيفته ان كان صاحب وظيفة ، أو سجن وعذب ان لم تكن
له وظيفة . ومن أمثلة ذلك ما كتب المأمون الى اسحاق بن ابراهيم
عامله على بغداد (محافظها) وكان المأمون اذ ذاك يغزو ، فرأى
أن يستعين بسلطانه في رد الفقهاء الى رأيه ، وقال في ختام كتابه
اليه « وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا في الدين ،

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/٣ .

ولا نصيباً من الايمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل
الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق في قول
ولا حكاية ، ولا تولية شيء من أمر الرعية » فجمع اسحاق نحو
ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء ، وهذا نموذج من أجوبتهم
لاسحاق (١) :

قال اسحاق لبشر بن الوليد :

— ما تقول في القرآن ؟

— قد عرفت مقاتلي لأمر المؤمنين غير مرة !

— فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ..

— أقول : القرآن كلام الله !

— لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

— الله خالق كل شيء !

— أما القرآن شيء ؟

— هو شيء !

— فمخلوق هو ؟

— ليس بخالق !

— ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

— ما أحسن غير ما قلت ، وقد استعهدت أمير المؤمنين

ألا أتكلم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك !

وقال لعل بن أبي مقاتل :

— ما تقول يا علي ؟

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ٢/٢١٣ .

— قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين في هذا غير مرة ،
وما عندي غير ما سمع .

— القرآن مخلوق ؟

— القرآن كلام الله !

— لم أسألك عن هذا !

— هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا .

وقال لأبي حسان الزيادي : القرآن مخلوق هو ؟

— القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله

مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد
سمع مالم نسمع ، وعلم مالم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا ، فصار
يقيم حجنا وصلاتنا ، وتؤدي إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ،
ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا أئتمرنا ، وإن نهانا اتهمنا ، وإن
دعانا أجبنا !

فأعاد إسحاق السؤال : القرآن مخلوق هو ؟ . فأعاد حسان
مقالته .

قال إسحاق : إن هذه مقالة أمير المؤمنين .

فقال حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين و لا يأمر بها
الناس ، ولا يدعوهم إليها وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن
أقول قلت ما أمرتنى به ، فأنت الثقة المأمون عليه فيما أبلغتني عنه
من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه !

قال إسحاق : ما أمرني أن أبلغك شيئاً !

فقال حسان : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والموارىث ولم يحملوا الناس عليها !

وقد رأينا فى هذه المحاورات اصرارا على عدم الانسياق فى تيار هذه البدعة الجديدة ، وقد كان اصرار كثير من أولئك العلماء على آرائهم والوقوف فى وجه أولئك الذين حاولوا حملهم على القول بما يرون وما نالوا بسبب ذلك من الايذاء الذى تحملوه راضين مدعاة للفخر ، والاعتراف لهم بالتضحية فى سبيل الفكرة التى يؤمنون بها .

* * *

ويهمنا هنا أن الصاحب كان يدين بقوله المعتزلة ، ويذهب مذهبهم فى القول بخلق القرآن ، بل انه كان يسلك السبيل نفسها التى سلكها أولئك الخلفاء العباسيون وأتباعهم فى حمل الناس على القول بما يقولون ، فكان يعقد المناظرات ويناقش العلماء فى هذه المسألة اقتداء بمشيريها والمتعصبين لها . وقد روى أبو حيان شيئا من هذه المناظرات ، فقال : كنت بالرى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وابن عباد بها مع مؤيد الدولة ، قد ورد فى مهمات وحوائج . وعقد لابن عباد مجلس جدل ، وكنا نبئت عنده فى داره فى بابشير ^(١) ، ومعنا الضير أبو العباس القاضى ، وأبو الجوزاء البرقى ، وأبو عبد الله النحوى الزعفرانى ، وجماعة من الغرباء ، فرأى الصاحب فى مجلسه وجها غريبا صاحب مرقعة ،

(١) بابشير - بسكون الباء الثانية وكسر الشين وياء ساكنة - قرية على مقدار فرسخ من مرو .

فأحب أن يعرفه ويعرف ما عنده ، وكان الشاب من أهل سمرقند
يعرف بأبى واقد الكرايسى . فقال له : يا أخ انبسط واستأنس
وتكلم ، فلك منا جانب وطىء ، وشرب مرىء ، ولن ترى الا البر ،
بم تعرف ؟ فقال : بدقاق ! قال : ثدق ماذا ؟ قال : أدق الخصم
إذا زاغ عن سبيل الحق !

فلما سمع الصاحب هذا تنكر وعجب ، لأنه فجىء ببذئثة .
فقال : دع هذا وتكلم ، فقال الشاب : أتكلم سائلا ؟ ما بى والله
حاجة الى مسألة ! أم أتكلم مسئولا ؟ فوالله انى لأكسل عن
الجواب ! أم أتكلم مقمرا ؟ فوالله انى لأكره أن أبدد الدر فى
غير موضعه ، وانى لكما قال الأول :

لقد عجمتى العاجمات فلم تجد (١)

هلوعا ولا لين المجسة فى العجم

وكاشفت أقواما فأبديت وصمهم

وما للأعادي فى قناتى من وصم

فقال له : يا هذا ، ما مذهبك ؟ قال : مذهبى ألا أقر على
الضيم ، ولا أنام على الهون ، ولا أعطى صمتى لمن لم يكن ولى
نعمتى ، ولم تصل عصمته بعصمتى . قال : هذا مذهب حسن ،
ومن ذا الذى يأتى الضيم طائعا ؟ ويركب الهون سامعا ؟ ولكن
ما نحلثك (٢) التى تنصرها ؟ قال : نحلثى مطوية فى صدرى ،

(١) أى اختبرتني وامتحنتني ، والهلوع الجزوع .

(٢) أى ما طريقتك ؟ وما مذهبك ؟

لا أتقرب بها الى مخلوق ، ولا أنادى عليها في سوق ، ولا أعرضها على شاك ، ولا أجادل فيها المؤمن !

قال له الصاحب : فما تقول في القرآن ؟ قال : ما أقول في كلام رب العالمين الذي يعجز عنه الخلق اذا أرادوا الاطلاع على غيبه ، وبحشوا عن خافي سره وعجائب حكمته ؟ فكيف اذا حاولوا مقابلته بمثله ؟ وليس له مثل مظنون ، فضلا عن مثل متيقن ؟

فقال له ابن عباد : صدقت ، ولكن أمخلوق أم غير مخلوق ؟ فقال : ان كان مخلوقا كما يزعم خصمك ، فما يضرك ؟ .

فقال الصاحب : يا هذا ، أبهذا تناظر في دين الله ؟ وتقوم على عبادة الله ؟

قال : ان كان كلام الله تفعنى ايماني به ، وعملى بمحكمه ، وتسليمى لمتشابهه ، وان كان كلام غيره ، وحاش لله من ذلك ، ما ضرني !

فأمسك عنه ابن عباد وهو مغيط ، ثم قال له « أنت لم تخرج من خراسان بعد ! » . فمكث الرجل ساعة ثم نهض ، فقال له ابن عباد : « الى أين يا هذا ؟ قد تكسر الليل ^(١) ، بت ها هنا » . فقال : « أنا بعد لم أخرج من خراسان ، كيف أبيت بالرى » ! ؟ وخرج فارتاب الصاحب به ، ففقاه بصاحب له ، وأوصاه بأن يتبع خطاه ، ويبلغ مداه ، من حيث لا يظن له ولا يراه ، فما زاغ ^(٢)

(١) تكسر الليل أى مضى منه وقت ليس بالقليل .

(٢) ما زاغ أى ما تحول وما فارق .

الرجل عن باب ركن الدولة ، حتى وصل ودخل في ذلك الوقت
الفأنت اليه .

فلما قيل لابن عباد ذلك طار فومه ، وقال : أى شيطان هبط
علينا ، وأحصى ما كنا فيه بلسان سليط ^(١) ، وطبع مرید ^(٢) ؟
وكان هذا الكرايسى عينا لركن الدولة بخراسان ، فلذلك
كان قريبا ، وكان أحد رجالاته ^(٣) .

ويبدو أن الصاحب لم يأخذ هذه المسألة مأخذ خلفاء
بنى العباس في تعسفهم وصرامتهم مع مخالفيهم في القول بخلق
القرآن ، فان في بعض النصوص والروايات ما يدل على عدم
التشدد في رأيه ، بل كان يتخذ ممن يخالفونه في القول أصدقاء
وسمارا ، لا يكرههم على الأخذ بقوله أو الانضمام الى جماعته ،
كما روى أن قوما قالوا للصاحب : لو كان القرآن مخلوقا لجاز
أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان ، بماذا كنا نصلّى
التراويح في رمضان ؟

فقال الصاحب : « لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا ،
ويقول : لا حياة لى بعدك ، ولا نصلّى التراويح ونستريح » ..
* * *

ولا يبدو في هذا الجواب القسوة والصرامة التى كنا نتوقعها
من حاكم مستبد برأيه يوجب على الناس الأخذ به ، ولا يمكنهم
من مخالفته ، .. وان دخل بعضهم في مذهبه تقريبا اليه كما يروى

(١) سليط أى ذو سلاطة وقوة .

(٢) مرید أى عات جبار . (٣) معجم الأدباء ٦/٢١٣

أبو حيان في قوله : ودخل الناس في مذهب ابن عباد ، وقالوا بقوله ، رغبة فيما لديه ، واجتهد صاحب الحسين المتكلم الكلابي أن ينتقل الى مذهبه ، فقال الحسين : « دعنى أيها الصاحب أكن مستحدا لك (١) ، فما بقى غيرى ، فان دخلت في المذهب لم يبق بين يديك من ينبو عليك قبيحه ، ويبدو للناس عواره » (٢) !

فضحك الصاحب وقال : قد أعفيناك يا أبا عبد الله ، وبعد ، فما نبخل عليك بنار جهنم ، اصل بها كيف شئت !

وقد رأينا في هذه الأمثلة اشارات الى المذهب واعتناق الصاحب اياه ، ولكننا لم نقرأ مناظرة كاملة نرى فيها رأيا واضحا أو فكرة مستقلة يمكن أن تنسب اليه ، وانما رأينا كلاما أشبه بالتسلية وأقرب الى الفكاهة منه الى الجدل والمناظرة التي تفرع فيها الحجة بالحجة ، ويعدّ بها أصحابه من دعائم المذهب وأركانها .

ومما لا شك فيه أن انتساب الصاحب الى المعتزلة كان موروثا ، وأنه أخذ تعاليمهم وعرف مبادئهم عن أبيه الذى كان معتزليا ، والذى صنف كتابا في « أحكام القرآن » نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه ، وروى عنه ابنه الوزير أبو القاسم (الصاحب) ، وابن مردويه الأصفهاني وغيرهما ..

* * *

(١) استحد : غضب ، فمستحد اسم مكان ، يريد دعنى لأكون موضع غضبك ، كأنه يريد سببا للغضب .

(٢) العوار يفتح العين وضمها : العيب .

ومعنى هذا أن صاحب كانت له ثقافة كلامية ، وإن لم يكن معدودا من أعلام المتكلمين ، فاختلط فنه الأدبي وأسلوبه الكتابي بطرائق المتكلمين ، كما اختلط كلامه ومناظرته وجدله بفنه الكتابي ، وهذا ما يصدق عليه قول أبي حيان الذى أسلفناه « وكتابتة مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب » .. ولكننا قد وجدنا مع هذا قولاً بنفوره من الفلسفة وعلم الكلام ، وهو ما ذكره أبو الفدا فى تاريخه عن صاحب فى قوله انه كان « يحب العلوم الشرعية ، ويبغض الفلسفة وما شابهها من علم الكلام والآراء البدعية » (١) ..

وقد ردّد هذا القول بعض المترجمين ، وأرجع بعضهم سخطه على أبى حيان واقصاءه عن حضرته الى تعلق أبى حيان بالفلسفة ونفور صاحب منها ومن منتحليها ، كما قال صاحب لسان الميزان : « وكان صاحب يبغض من يميل الى الفلسفة ، ولذلك أقصى أبا حيان التوحيدى ، فحمله ذلك على أن جمع مصنفاً فى مثالبه أكثره مختلق » وقال : « وكان صدوقاً الا أنه كان مشتهراً بمذهب المعتزلة داعية اليه » ..

ويبدو أن الاشتهار بالاعتزال كان تهمة فى نظر غير المعتزلة ، بل كان عندهم كالزندقة والالحاد ، وهذا ما يظهر فى قوله « الا أنه كان مشتهراً بمذهب المعتزلة داعية اليه » بعد قوله فيه « انه كان صدوقاً » فقد استثنى الكاتب منه ما لم يكن يرضاه له . وحاول بعض مترجميه ممن كانوا يتعصبون له أن يبرئوه من تهمة

(١) البداية والنهاية ٣١٥/١١ .

الاعتزال ، لأن الاعتزال كان في رأيهم منقصة وعيبا ، فقال صاحب
 أمل الآمل « وبعض العامة يتهمة بالاعتزال وهو برىء منه » !
 وكان هذا رأى سائر طبقات المتكلمين في المعتزلة ، حتى جعل
 البغدادي عنوان الفصل الثالث من فصول كتابه الفرق بين الفرق
 « في بيان مقالات فرق الضلال من القدرية المعتزلة عن الحق » (١) ..
 ولقد كان كل فريق من المتكلمين يكفر غيره من المتكلمين
 أو يصفهم بالزندقة والالحاد حتى اتهم العلماء والمفكرون بعضهم
 بعضا في عقائدهم « وذلك أن الطريقة التي قد لزموها وسلكوها
 لا تفضي بهم الا الى الشك والارتياب ، لأن الدين لم يأت بكم
 ولا كيف في كل باب » . قال أبو حيان (٢) : ولهذا كان لأصحاب
 الحديث أنصار الأثر مزية على أصحاب الكلام وأهل النظر ،
 والقلب الخالي من الشبهة أسلم من الصدر المحشو بالشك
 والريبة ، ولم يأت الجدل بخير قط .. يتكلم أحدهم في مائة مسألة ،
 ويورد مائة حجة ثم لا ترى عنده قلبا خشوعا ولا رقة ، ولا تقوى
 ولا دعة ، وإن كثيرا من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجون
 ولا يناظرون ولا يكرمون ولا يفضلون خير من هذه الطائفة ،
 وألين جانبا ، وأخشع قلبا ، وأتقى لله عز وجل ، وأذكر للمعاد ،
 وأيقن بالشواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وألوذ بالله من صغير
 الذنب ، وأرجع الى الله بالتوبة .. قال : ولم أر متكلما في مدة
 عمره بكى خشية ، أو دمعت عينه خوفا ، أو أقلع عن كبيرة رغبة .

(١) الفرق بين الفرق : ص ٩٣ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ١٤٢/١ .

يتناظرون مستهزئين ، ويتحاسدون متعصبين ، ويتلاقون متخادعين ،
ويصنفون متحاملين ..

والصاحب وان كانت منزلته في علم الكلام ما أسلفنا بحيث
لا يرقى الى درجة الأعلام أصحاب الرأي في هذا الفن ، وأهل
الجدل والمناظرة الا أن له الآثار والمصنفات في العلوم التي لا تنفرد
بالتفكير ، وانما يتصل فيها المعقول بالمنقول ، وتظهر فيها معالم
النص والرواية بأثر الفكر والدراية ، فقد كان عالما بالتوحيد
وعالما بالأصول وعارفا بالمذاهب والفرق ، وينبغي ألا تتجاوز هذه
الدائرة في وصفه بالكلام دائرة العلم والمعرفة ، لا دائرة التفكير ،
وفرق بين العالم الذي يعرف والمفكر الذي يصحح ويستنبط !
فمن آثاره التي تتصل بهذا الجانب كتاب مختصر أسماء الله
تعالى وصفاته ، وكتاب « نهج السبيل » في الأصول ، وكتاب
الزيدية ، وكتاب « الامامة » الذي يذكر فيه فضائل الامام على
ابن أبي طالب ويثبت فيه صحة امامة من تقدمه من الخلفاء
الراشدين .

أما مناظراته الكلامية فاننا لم نر فيما قرأناه منها تفصيلا يدل
على أنه من أهل الرأي ؛ وقد ذكر شيئا منها أبو حيان التوحيدي
ذكرا أراد به التهوين من شأنه ، و اظهار طربه للثناء والشهادة
له أو لبلاغته دون أن يعرض علينا شيئا من كلامه الذي دفع به
حجة خصمه ، وأثبت به الرأي الذي يدافع عنه وينتصر له ، فقد
روى أن صاحب ناظر بالرى اليهودى رأس الجالوت (١) في

(١) هي هيئة دينية عندهم .

اعجاز القرآن ، فراجعه اليهودي فيه طويلا ، وما تنه قليلا ، وتكر عليه حتى اجتد وكاد يتقد .

فلما علم أنه قد سجر تنوره ، وأسعط أفقه ، احتال طلبا لمخادعته ، ورفقا به في مخاتلته ، فقال اليهودي : أيها صاحب ، لم تتقد وتستشيط وتلتهب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه ؟ فان كان النظم والتأليف بديعين ، وكان البلغاء فيما تدعى عنه عاجزين ، وله مدعين ، فما أنا أصدق عن نفسى ، وأقول ما عندى : ان رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده^(١) به نظما ونثرا هو فوق ذلك أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه ، وأن ذلك سيستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام ، أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

* * *

هذا الحديث من المعقول أن يصدر عن اليهودي المنكر للقرآن المتملق للصاحب في سبيل تحقيق غايته من الطعن في كتاب الله . ولكن ليس من المعقول أن يرضى صاحب أو ينخدع بهذه الترهات ، ولو أثنى عليه ألف ثناء ، ولكن أبا حيان على طريقته يذكر وقع هذا الخداع في نفس صاحب وسكوته عليه في قوله « فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد^(٢) ، وسكن عن حركته ، وانحص^(٣) ورمه به ، وقال : ولا هكذا يا شيخ ، كلامنا حسن

(١) أى تفاجىء وتباغت .

(٢) سكن بعد حدثه ، وخمد بعد ثورته .

(٣) انحصم الورم تضاعف وانقبض .

وبليغ ، وقد أخذ من الجزالة حظا وفرا ، ومن البيان نصيبا ظاهرا .
ولكن القرآن له المزية التي لا تجهل ، والشرف الذي لا يخمد ،
وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب
وتكلف ؟! هذا كله يقوله وقد خبا حيمته ^(١) ، وتراجع مزاجه ،
وصارت ناره رمادا ، مع اعجاب شديد قد شاع في أعطافه ، وفرح
غالب قد دب في أسارير وجهه ، لأنه رأى كلامه شيئا بالقرآن
لدى اليهود وأهل الملل ^(٢) ..



ولقد اقتصر التوحيدي على هذا الوصف ، ولم يورد شيئا
مما يتصل بالمناظرة وما دار فيها من الحجاج ووجوه الرأي ، لأنه
يريد أن يصل الى غايته الكبرى من النيل من الصاحب ولو كان
ذلك على حساب عقيدته في أمر هو أهتم ما يتصل بها ، وهو
اثبات اعجاز القرآن . وقد أورد التوحيدي في الامتاع تنفه صغيرة
تتصل بالصاحب ، ونهجه في بعض مسائل كلامية ، وذلك في
قوله : وكان ابن عباد قال لكتابه مرة — أعنى ابن حنبل ^(٣) —
في شيء جرى .. « نعم ، العالم عتيق ، ولكن ليس بقديم » أى :
لو كان قديما لكان لا أول له ، ولما كان عتيقا كان له أول . ومن
أجل الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنه قديم ، واستحسنوا هذا
الاطلاق .

(١) انطفأ وهذا وسكن .

(٢) معجم الأدباء ٢٢٢/٦ .

(٣) هو أبو القاسم بن حنبل ، قيل كان يعرض الأوراق
على الصاحب بن عباد .

قال التوحيدى : وقد سألت العلماء البصراء عن هذا الاطلاق ، فقالوا : ما وجدنا هذا فى كتاب الله عز وجل ، ولا كلام نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا فى حديث الصحابة والتابعين . وسألت أبا سعيد السيرا فى الامام : هل تعرف العرب أن معنى « القديم » مالا أول له ؟ فقال : هذا ما صح عندنا عنهم ، ولا سبق الى وهما هذا منهم ، الا أنهم يقولون « هذا شئ قديم » و « بنيان قديم » ، ويسترحون وهمهم فى زمان مجهول المبدأ (١) .

* * *

ونعتقد بعد كل هذا أن ما أوردناه عن علم صاحب الكلام فيه ما يلقي الضوء على مدى علمه بالكلام ، ومدى حذقة لمناهج المتكلمين . ومن آثار هذه المعرفة حكمه على بعض أعلام المتكلمين حكما وصفه العارفون بالاصابة والقدرة على التمييز ، قال ابن الأهدل « ومن كلام صاحب فى وصف الثلاثة المتعاصرين أصحاب أبى الحسن الأشعري : الباقلانى نار محرق ، وابن فورك صل مطرق ، والاسفرائينى بحر مغرق » قال ابن عساكر : كأن روح القدس نثث فى روعه بحقيقة حالهم (٢) .

* * *

وكان صاحب فى مقدمة الفقهاء المحدثين ، وكانت له مجبة ظاهرة بالعلوم الشرعية ، وذكر فى أخباره أنه كان يناظر ويدرس ويصنف ويملى الحديث ، ووصف بأنه كان من أفاقه فقهاء الشيعة

(١) الامتاع والمؤانسة ٢٥/١ .

(٢) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١١٦/٣ .

المتقدمين والمتأخرين ، وقد سمع الحديث من المشايخ الجياد العوالى ، وعقد له فى وقت مجلس للأملاء ، فاحتفل الناس لحضوره ، وحضره وجوه الأمراء ، فلما خرج لبس زى الفقهاء ، وأشهد على نفسه بالتوبة والانابة مما يعانيه من أمور السلطان .. ولكن كان يخالط السلطان وهو تائب مما يمارسونه ، واتخذ بناء فى داره سماه بيت التوبة ، ووضع العلماء خطوطهم بصحة توبته ، واستملى عليه جماعة لكثرة مجلسه ، فكان فى جملة من يكتب عنه ذلك اليوم القاضى عبد الجبار الهمداني وأضرابه من رؤوس الفضلاء وسادات الفقهاء والمحدثين (١) ..

وحدث ياقوت عن أبى الحسن على بن محمد الطبرى الكيال قال : لما عزم الصاحب بن عباد على الاملاء وهو وزير خرج يوما متطلسا (٢) متحنكا بزى أهل العلم ، فقال : « قد علمتم قدى فى العلم » ، فأقروا له بذلك ، فقال : وأنا متلبس (٣) بهذا الأمر ، وجميع ما أنفقته من صغرى الى وقتى هذا ، من مال أبى وجدى ، ومع هذا لا أخلو من تبعات (٤) ، أشهد الله وأشهدكم أنى تائب الى الله من ذنب أذنبته » واتخذ لنفسه بيتا وسماه « بيت التوبة » . ولبث أسبوعا على ذلك ، ثم أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته ، ثم خرج فقعد للاملاء ، وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملى

(١) البداية والنهاية ٣١٥/١١ .

(٢) أى لا يسا الطيلسان ، ويظهر أنه كان حينذاك ثوب الكبراء والعلماء ، وهو لفظ مغرب أصله « تالسان » .

(٣) أى مخالط له ملازم .

(٤) جمع تبعة ، وهى ما يعلق بالمرء من شىء لا يرضى عنه .

الواحد ينضاف اليه ستة ، كلٌ يُلَـغ صاحبه ، فكتب الناس حتى
القاضي عبد الجبار (١) .

وقد عرف عن صاحب أنه كان من أعلام الحديث ، قال
السمعاني في الأنساب ان صاحب سمع الأحاديث من الأصهبانيين
والبغداديين والرازيين ، وحدث ، وكان يحث على طلب الحديث
وكتابته ، وروى عن ابن مردويه أنه سمع صاحب يقول : من
لم يكتب الحديث لم يجد حلاوة الاسلام . وكان يقول شاركت
الطبراني في اسناده ، ويقال انه كان ينتقد البخاري ولا يعول
عليه . ولو لوعه بالحديث الشريف كان يكثر من الاقتباس منه
في شعره كقوله :

أقول وقد رأيت له سحابا من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحت عز إليها (٢) بسكب « حوالينا الصدود ولا علينا »

وكقوله في الغزل :

ومهفهف يغنى عن القمر قمر الفؤاد بفاتن النظر (٣)
خالسته تفاح وجنته من غير ابقاء ولا حذر
فأخافني قوم فقلت لهم « لا قطع في ثمر ولا كثر » (٤)

(١) معجم الأدباء ٢٥٢/٦ .

(٢) العزالي - بفتح اللام وكسر هاء جمع عزلاء ، وهي مصب
الماء من الراوية ونحوها .

(٣) امرأة مهفهفة أى ضامرة البطن ، وقمر الفؤاد - على
زنة طرب - تحير .

(٤) الكثر - بفتحيتين - جمار النخل .

وقوله :

قال لي ان رقيبى سىء الخلق فداره
قلت : دعنى وجهك « ال جنة حفت بالمسكاره »

* * *

أما اللغة وعلوم الأدب ، فقل في علم صاحب بها وحذقه
اياها ما شئت ، فقد كان حجة فيها كأعلامها الكبار الذين يوثق
بهم فيما يقولونه ويوردونه ، وقد ألف في اللغة كتابه الذى سماه
« المحيط » وقد ذكر ياقوت أنه عشر مجلدات ، وقال ابن خلكان
انه في سبع مجلدات ، رتبه على حروف المعجم ، وكثر فيه الألفاظ ،
وقلل الشواهد ، فاشتمل من اللغة على جزء متوفر (١) ، وكذلك
ألف في اللغة كتابه « جوهرة الجهرة » .. وقد أفاد من صاحب
في علم العربية جماعة في مقدمتهم أبو منصور الثعالبي في كتابه
« فقه اللغة وأسرار العربية » وعدّه في أعلام اللغة وأئمتها ،
فذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه « انتجع من الأئمة مثل الخليل ،
والأصمعي ، وأبى عمر والشياني ، والكسائي ، والفراء ،
وأبى زيد ، وأبى عبيدة ، وأبى عبيد ، وابن الأعرابي ، والنضر بن
شميل ، وأبوى العباس (٢) ، وابن دريد ، ونقطويه ، وابن خالوية ،
والخارزنجي ، والأزهري . ومن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين
جمعوا فصاحة العرب البلغاء الى اتقان العلماء ، ووعورة اللغة

(١) معجم الأدباء ٢٦٠/٦ ووفيات الأعيان ٢٢٥/٢ .

(٢) يقصد أبا العباس محمد بن يزيد المبرد ، وأبا العباس
أحمد بن يحيى المشهور بشعلب .

الى سهولة البلاغة ، كالصاحب أبي القاسم « اسماعيل بن عباد » ،
 وحمزة بن الحسن الأصفهاني ، وأبي الفتح المرائي ، وأبي بكر
 الخوارزمي ، والقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز
 الجرجاني ، وأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني ،
 واجتلي من أنوارهم ، واجتني من ثمارهم ، واقتفى آثار قوم
 قد أقفرت منهم البقاع ^(١) . ونقل الثعالبي عن صاحب
 في هذا الكتاب فصلا في ترتيب الشرب ، قال فيه : « ترتيب
 الشرب (عن صاحب أبي القاسم) : أقلّ الشرب التغمر ، ثم
 المصّ ، والتمزمز ، ثم العبّ والتجرّع . وأول الريّ النضح ،
 ثم النقع ، ثم التجب ، ثم التفنح ^(٢) . وقال في الباب السابع
 والعشرين في الحجارة : قد جمع أسماءها الأصبهاني في كتاب
 الموازنة ، وكسّر صاحب « ابن عباد » على تأليفها دفيترأ ، وجعل
 أوائل الكلمات على توالي حروف الهجاء الا مالم يوجد منها في
 أوائل الأسماء ، وقد أخرجت منها ومن غيرها ما استصلحته
 للكتاب ، ووفيت التفصيل حقه باذن الله عز اسمه ^(٣) .

تلك اشارات الى حظ صاحب من علم اللغة وفقهه فيها ،
 وفي تلك الاشارات ما يكفي للدلالة على وفور حظه ، وسعة
 معرفته ، وبهذا الحظ كان صاحب أدبيا يستطيع أن يتفهم الأدب

(١) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبي : ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ١١٤ .

(٣) المصدر السابق ١٩٢ .

ويتذوقه وينقده ، وكيف يتخير لأدبه المنظوم والمنثور ، وكيف يفيد غيره من طلاب اللغة تعليما وتأليفا .



أما علم النحو والصرف والعروض ، فقد كان تحصيل الضاحب منها لا يقل عن تحصيله من علم اللغة ، وذلك راجع الى أسباب أهمها الرغبة الدافعة ، ثم المجالسة النافعة ، ثم خزانة كتبه العامرة التي كان ينوء بحملها أربعمائة جمل ، والتي حدث أبو الحسن البيهقي أنه وجد فهرست تلك الكتب عشر مجلدات . وكانت رحلة الضاحب الى بغداد فرصة للبوح بمكنون معرفته ، فقد اتصل بكبار علمائها وناقشهم وحاورهم ، فشهدوا له بالمعرفة والحدق ، وأفاد من عملهم ما استطاع وما امتدّ وقته في دار السلام ، وقد حدثت الضاحب في كتابه « الروزنامجه » عن شيء مما حدث له في بغداد في قوله : و انتهيت الى أبي سعيد السيرافي ^(١) ، وهو شيخ البلد ، وفرد الأدب ، وحسن التصرف ، ووافر الحظ من علوم الأوائل ، فسلمت عليه ، وقعدت اليه ،

(١) كان يدرس ببغداد علوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض ، أفتى في مسجد الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة ، فما وجد له خطأ ولا عشر له على زلة ، وقضى ببغداد ، هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرزانة ، صام أربعين سنة ، وكان زاهدا ورعا ، لم يأخذ على الحكم أجرا انما كان يأكل من كسب يمينه ، شرح كتاب سيبويه ، وله كتب كثيرة منها الوقف والابتداء المدخل الى كتاب سيبويه ، صنعة الشعر والبلاغة . توفي في خلافة الطائع سنة ٣٦٨ هـ .

وبعضهم يقرأ الجمهرة (١) ، فقرأ « أَلَمْتُ » ، فقلت : انما هو « لَمْتُ » (٢) . فدافعني الشيخ ساعة ، ثم رجع الى الأصل ، فوجد حكايتي صحيحة .

واستمر القاريء حتى أنشد وقد استشهد :

رسم دار وقفت في طلله كدت أقضى الغداة من جلله
فقلت : أيها الشيخ ، هذا لا يجوز ، والمصراعان على هذا
النشيد يخرجان من بحرین ، لأن :

رسم دار وقفت في طلله (٣) كدت أقضى الغداة من جلله
فاعلاتن . مفاعلن . فعلن مفتعلن . مفعلات . مفتعلن
فذاك من الخفيف ، وهذا من المنسرح !

فقال أبو سعيد : لم لا تقول الجميع من المنسرح ، والمصراع
الأول مخزوم ؟

فقلت : لا يدخل الخزم هذا البحر ، لأنه أوله « مستفعِلن .
مفاعِلن » هذه مزاحفة عنه ، وإذا حذفنا متحركا بقينا ساكنا ،
وليس في كلام العرب ابتداء به ، وانما هو :

* كدت أقضى الغداة من جلله *

بتخفيف الضاد (٤) ، فأمر بتغييره ، ودفعني الى جنبه .
قال : وابتدأ فقرأ عليه من كتاب « المقتضب » باب

-
- (١) كتاب من أهم كتب اللغة لأبي بكر بن دريد .
(٢) اللمق - بفتح فسكون - الكتابة والمحو من الأضداد ،
وضرب العين بالكف خاصة ، والنظر ، وفعله لمق .
(٣) الطلل الباقي من رسوم الديار بعد دروسها .
(٤) فأصبح البيت كله من بحر الخفيف .

ما يجرى وما لا يجرى ، الى أن ذكر « سحر » وأنه لا ينصرف
إذا كان السحر بعينه ، لأنه معدول عن الأول ..

فقلت : ما علامة العدل فيه ؟

فقال : انا قلنا « السحر » ثم قلنا « سحر » فعلمنا أنه
معدول عن الأول .

قلت : لو كان كذلك ، لوجب أن تطرد العلة في « عتمة » ،
لأنك تقول « العتمة » ثم تقول « عتمة » (١) .

فضجر أبو سعيد واحتد ، وصاح واربّد (٢) . وادعيت أنه
ناقص ، والتمس التحاكم .

فكتبت رسالة أخذت فيها خطوط أهل النظر ، وقد أنفذت
درج (٣) كتابي نسختها ، وفيها خط أبي عبد الله بن رذامر عين
مشايخهم .

ورأيت الشيخ بعد ذلك عزيزاً فاضلاً ، متوسعاً عالماً ، فعلققت
عليه ، وأخذت عنه ، وحصلت تفسيره لكتاب سيبويه ، وقرأت
صدراً منه .

قال : وهنالك أبو بكر بن مقسم ، وما في أصحاب ثعلب أكثر
دراية ، وما أصح رواية منه ، وقد سمعت مجالسه ، وفيها غرائب

(١) منع عتمة من الصرف رأى لبعض النجاة للعلمية
والتأنيث ومثلها عشية . قال في حاشية الصبان على الأشموني .
هذا رأى ، ولكن الأفصح الصرف ، ولذلك لم يذكرها بعض النجاة
في غير المنصرف .

(٢) أى تغير وعبس .

(٣) درج كتابي أى طيه .

ونكت ، ومحاسن وطرف ، من بين كلمة نادرة ، ومسألة غامضة وتفسير بيت مشكل ، وحل عقد مفصل ، وله قيام بنحو الكوفيين وقراءتهم ورواياتهم ولغاتهم . والقاضى أبو بكر بن كامل بقية الدنيا فى فروع شتى ، يعرف الفقه والشروط والحديث ، وما ليس من حديثنا ، ويتوسع فى النحو توسعا مستحسنا ، وله فى حفظ الشعر بضاعة واسعة ، وفى جودة التصنيف قوة تامة ، ومن كبار رواة المبرد وثعلب والبحترى وأبى العيناء وغيرهم ، وقد سمعت قدرا صالحا مما عنده (١) ..

* * *

لقد جالس الصاحب أولئك العلماء الأعلام وغيرهم وأفادوا منه كما أفاد منهم ، فكان بحرا زخارا بفيض من المعرفة بالعربية وعلومها وآدابها ، فألف فى العروض والقوافى ، وألف فى التاريخ عدة كتب منها كتاب المعارف ، وكتاب الوزراء ، وأخبار أبى العيناء ، وتاريخ الملك واختلاف الدول ..

ولم يكن شئ من ذلك مستغربا ، فبيئة الرجل العلمية وأبوه العالم وأساتذته ، ومجالسوه وثقاته من رجال العلم وأعلام الفكر ، وولوعه بالكتاب حتى قيل انه كان يستصحب فى كل سفره حمل ثلاثين جملا موقرة بالكتب فى سائر ألوان المعرفة ، حتى استغنى الصاحب عنها كما يقال بكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهاني .

* * *

أما علم الشعر والأدب ، والمعرفة بمحاسنهما ومثالبهما فقد

(١) معجم الأدباء ٦/٢٧٩. نقلا عن كتاب الروزنامجة للصاحب.

نبح فيه صاحب وتفرع وقد سبق أن قلنا ان ثقافته الأدبية غلبت كل ثقافة سواها ، ومرجع ذلك ذوقه الأدبي وطبيعته الفنية . ثم المعرفة الأدبية والبصيرة النافذة التي أفادها من تجاربه الطويلة في صناعة الأدب ، ومن مناقشة الأدباء ومجاراة الشعراء ، وأفادته من القراءات المستفيضة لآثار العلماء والأدباء ، ثم ما أفاده من شيخه الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد . وقد عبّر صاحب عن هذه المخرجات في علم الشعر وثقافته في قوله : « وهأنا منذ عشرين سنة أجالس الكبراء ، وأكاثر الأدباء ، وأباحث العلماء ، وأجاري الشعراء ، بالجمال تارة ، وبالعراق مرة ، وأخذ عن رواية محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب » .

ثم يذكر صاحب أثر أستاذه في تخريجه وفضل معرفته في قوله « ما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد ، فانه يجاوز تقد الأبيات الى تقد الحروف والكلمات ، فلا يرضى بهتذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن ، وعن مجلسه أعلاه الله أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطراف كلامه تعلقت فيما أتحلى به في هذا الجنس . وقد قال أبو عثمان الجاحظ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يعرف الا غريبه ، فرجعت الى الأخفش فألفيته لا يتقن الا اعرابه ، فعظفت على أبي عبيدة فرأيت لا ينقد الا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات »

فلله أبو عثمان لقد غاص على سر الشعر ، فاستخرج ما هو أدق
من الشعر » . وقدم صاحب بعد ذلك شذورا سمعها من الأستاذ
الرئيس أبي الفضل بن العميد في نقد الشعر تدل على ما بعدها ،
وتنبىء عما قبلها ..

قال (١) : أنشدت يوما بحضرته كلمة أبي تمام التي أولها :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى
ومحت كما محت وشائع من برد (٢)

الى قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى

معى واذا ما لثمه لثمه وحدى

فقال الأستاذ الرئيس : هل تعرف فى هذا البيت عيبا ؟ فقلت
بلى ، قابل المدح باللوم ، فلم يوف التطبيق حقه ، لأن حق المدح
أن يقابل بالهجو أو الذم ، على أنه قد روى « ومتى ما ذمته
ذمته (٣) وحدى » . فقال — أيده الله — غير هذا أردت ! قلت :
ما أعرف ! فقال : أجل ما يحتاج اليه فى الشعر سلامة حروف
اللفظ من الثقل ، وهذا التكرير فى « أمدحه أمدحه » مع الجمع
بين الحاء والهاء مرتين وهما من حروف الحلق خارج عن حد

(١) من رسالة صاحب التنى سماها « الكشف عن مساوىء
المتنبى » ص ٢٢٦ من كتاب « الإبانة عن سرقات المتنبى » لأبى
سعد محمد بن أحمد العميدى .

(٢) أقوت : أقفرت ، ومح الثوب : بلى ، والوشيجة : الطريقة
فى البرد .

(٣) ذامه يذيمه : عابه .

الاعتدال ، نافر كل النفار . فقلت : هذا ما لا يدركه ولا يعلمه
الا من انقادت اليه وجوه العلم ، وأنهضه الى ذراها طبعه .
وكنا يوما نتذاكر في مجلسه ، فجرى قول الشاعر :

أعاتبكم يا أم عمرو لحبكم ألا انما المقلّى من لا يعاتب
فاستحسنه الحاضرون وأعجبوا به ، وأثنوا على قائله ، فقال
أيده الله : ان من انتقاد الشعر أن ينقد ما في القافية من حركة
وحروف . فقلت : كره سيدنا « السناد » في تغيير حركة الاشباع
اذا جاءت فتحة ، وهي في سائر الأبيات كسرة ؟ فقال : ما أردت
غيره .. وهذا قول من له بكل طرف من أطراف الفضل طرف
موكل ، وناظر منتقد .

وكنت أقرأ عليه شعر ابن المعتز ، متخير النفس فالأنفس ،
فابتدأت بقصيدته على المديد الأول ، فرسم تجاوزها وقدرته على
حفظها ، ولا يرضاها . فسألته عنها ، فقال : هذا الوزن لا يقع
طلبه للمحدثين جيد الشعر ، فتبعت عدة قصائد على هذا
الصنف ، فوجدتها في نهاية الضعف ..

وجرى حديث أبي عبادة البحرى ، وهو يوفيه حقه الذى
استوجبه بجزالة لفظه ، وبشاشة نسجه ، وغزارة طبعه ، وحلاوة
شعره ، فذكر القاضى الجعابى سبطا لأبى عمر قاضى القضاة ،
وانفاذه اليه ما استدركه فى شعر البحرى وطعن به عليه ، وأنه
ينقبض عن اظهاره لشغف سيدنا بأشعاره ، فقال الأستاذ : نحن
وان عرفنا للبحرى فضله فما ندعى العصمة له ، وفى شعره
الكسر والاحالة واللحن ! وأقبل على فقال : تعرف للبحرى

ما يخرج فيه عن الوزن ؟ فقلت : بلى ، أنشدني أبو الحسن المنجم
قال : أنشدني أبو الغوث لأبيه من قصيدة :

وأحق الأيام بالأنس أن يؤ

ثرفه يوم المهرجان الكبير (١)

قال — رحمه الله — : غير هذا أردت ! فقلت : لا أعرف ،

فأنشد قصيدته التي أولها :

ظلم الدهر فيكم : وأساء فعزاء بنى حميد عزاء

الى أن انتهى الى قوله :

ولماذا تتبع الناس شيئاً جعل الله الفردوس منه جزاء

فقلت : هو ما قال سيدنا ، لأن البيت من الخفيف ، وفيه

زيادة سبب ! فقال تنشده * جعل الله الخلد منه جزاء *

ليستقيم . ثم ابتدأ بذكر سقطات البحري ، وعدّ ما حرت فيه

وعجزت عن استيفاء حفظه وتقصّيه ، فمما علق بنفسي أن أنشد

قصيدته التي أولها :

أبا خالد بالجود تذكر واجبي إذا ما غنى الباخلين نسيه

فان قوله « نسيه » مختل الإعراب ، بعيد من الصواب .

وذكر من قصيدته التي أولها :

* عذيري من نأي غداً وبعاد *

(١) في ديوان البحري :

وكان الأيام أوثر بالحسن

وفي الموشح للمرزياني :

وكان الأيام أوثر بالحسن

حتى ذكر قوله :

على باب قنّسرين والليل لاطخ جوانبه في ظلمة بمسداد
وأشدني من قصيدة في أبي اسحاق بن كنداج :

وجوه حسّادك مسودة أم خضبت بعدى بالزاج (١)
فان هذين التشبيهين غير رائعين ولا بارعين . وقال في أثناء
هذا المجلس : ما علمنا أن في طبع البحتری تكلفا الى أن قرأت
قصيدته في صفة الايوان * صنت نفسي عما يدينس نفسي *
وسمعته — أيده الله — ينشد أبيات أبي تمام التي أولها :
* أما وقد ألحقتني بالموكب *

فأنشد :

أبديت لي عن صفحة الماء الذي

قد كنت أعهده كثير الطحلب (٢)

فقلت : زين سيدنا هذا الشعر بأقامته « الصفحة » مقام
« الجلدة » ! فقال : كذا يلزمنّا لمثل أبي تمام اذا أمكن اصلاح
بيت بلفظة ، وتهذيب قصيدة بكلمة !

وسمعته — أيده الله — يقول : ان أكثر الشعراء ليس
يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسيج ، لأن حق
الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ،
وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمرارا ، ومع أي المواقف

(١) الزاج : من اخلاط الجبر .

(٢) الطحلب : خضرة تعلو الماء من طول المكث .

يحصل أحمد اطرادا ، فيركب مركبا لا يخشى انقطاعه به والتيائه عليه (١) .

فقلت : لو مثل سيدنا هذا لكان أقرب الى القلب ، وأوقع في النفس . فقال : نعم ، هذا البحتري أراد مدح أبي الخطاب الطائي ، وقد كان ابن بسطام أحسن الى أبي عبادة بمائتي دينار ، فجعلها أبو الخطاب آلافا وأضعفها ، وجارى ابن بسطام بها ، فنظر البحتري وقد جراه أضعافا ، وجعل مثته آلافا ، وقد كان يكفي أن يزيده الى الآحاد أنصافا ، فبنى قصيدته على هذه القافية ، حتى اتسق له ما أحب ، وبلغ ما طلب ، فقال :

قضيت عنى ابن بسطام صنيعته
عندى وضاعفت ما أولاه أضعافا
وكان معروفه قصدا الى ومما
جازيت عنى تبذيرا واسرافا
مئون عينا توليت الثواب بها
حتى انتنت لأبى العباس آلافا
قد كان يكفيه فيما قدمت يده
ربحا يزيد الى الآحاد أنصافا

وذكر — أيده الله — يوما الشعر ، فقال : ان أول ما يحتاج اليه حسن المطالع والمقاطع ، فان فلانا أنشدنا في يوم نيروز قصيدة أولها : * أقبر * وما طلت ثراك يد الطل * فتطيرت من افتتاحه

(١) الالتياث : الاختلاط .

بالقبر وتنغصت باليوم والشعر . فقلت : كذا كانت حال أبى مقاتل لما مدح الداعى الحسن بن زيد بن محمد :

لا تقل بشرى ولكن بشريان غرة الداعى ويوم المهرجان
فنفر من قوله « لا تقل بشرى » أشد نفار ، وقال : أعمى
ويشدىء بهذا فى يوم المهرجان ؟

قال صاحب : ولو تتبعت ما علقت ، وحفظت عن الأستاذ
الرئيس فى هذا الباب لاحتجت الى عقد كتاب مفرد ، ولعلنى
أفعل ذلك فيما بعد ..

وذكر — أيدى الله — اختيارات الشعر ، فقال : ليس فيها
أحسن من كتاب « الحماسة » . ولقد نظرت فى الدواوين لأجد
ما يلحق بكل باب منه ، فلم أر ما يستحق الاضافة اليه . قال :
وخير الاختيارات بعدها اختيارات المفضل باسقاط قصيدتى
المرقش .

من ذلك الخضم الضخم استقى صاحب بن عباد ثقافته
الأدبية التى أفادته فى ناحيتين :

أولاهما : فبه الأدبى الذى تهذب بهذا الفيض الزاخر من
علم أستاذه وثقافته وظهر أثر هذا التهذيب فيما ألف من شعر
رقيق ، يتدفق فى سر وفى عذوبة ، وفيما كان يكتب من كتب
ورسائل أبدع فيها وأجاد ، وعد بها اماما من أئمة الكتاب .

والناحية الأخرى : نظراته فى الأدب منظومه ومنشوره ،
وجودة آرائه فيه ، فقد تخرج بهذا علما بالشعر ، فى طليعة نقاده
العارفين بأصوله ومذاهب أصحابه . واعتمد عليه فى نقد ما كان

يدور في مجالسه من فنون القول التي كان يراجع فيها الشعراء والأدباء ، و يناقش العلماء .

وبرز هذا بروزا واضحا في رسالته النقدية التي كتبها في نقد شعر المتنبي ، والتي سماها « الكشف عن مساوئ المتنبي » أو « الكشف عن مساوئ شعر المتنبي » ..

على أننا قد رأينا في ثنايا وصف ما سمعه من أستاذه أبي الفضل ابن العميد ، أنه كان يسأل صاحب ، وكثيرا ما كان يجد عنده الرأي والجواب الذي يدل على البصيرة والفهم والمعرفة بالشعر والأدب ، والقدرة البارعة على تذوقه وتقده ..

وحسبنا هذا المقدار من الحديث عن علم صاحب بالأدب والشعر ، وعوامل تخريجه فيه ، وقد فصلنا القول في شعره ونثره وكتابته وتقده في فصل آخر من هذا البحث عند دراستنا للصاحب الأديب .



ولم تقف ثقافة صاحب الواسعة عند حدود الثقافة الأدبية والفلسفية في اللغة والأدب وعلم الكلام وعلم الأصول ، فقد كانت له مشاركة في فن الطب ، وثقافة فيه ، ويبدو ذلك مما ذكره أبو جعفر الطبري المعروف بالبلاذري في قوله « ان للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكرياء لما زاد عليها » ! قال الثعالبي : فسألته أن يعيرنيها ان كانت عنده ، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت واستبعدت ما حكاه من تطبب صاحب ، ونسبته في نفسى الى التزويد والتكثر ، الى أن

فلفت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ، ووجدتها تجمع الى ملاحاة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر في علمه ، وقوة المعرفة بدقائقه ، وهذه نسختها : « قد عرفت ما شرحه مولاي من أمره ، وأنبا عنه من أحوال جسمه ، فدلتنى جملته على بقايا في البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية . فأما الذي يشكوه من ضعف معدته وقلة شهوته فلازمين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتنفق الشهوة الصادقة وترجع العادة السابقة . والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفئات ، ولزت بها المبردات قلت الشهوة ، وضعف الهضم ، ومع ذلك فلا بد مما يطفىء ويغذى ، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المدة بما يقوى منها ويزيل العارض المكتسب عنها ، كما يقول الفاضل « جالينوس » ، قدم علاج الأهم ، ثم عد وأصلح ما أفسدت ! والأقراص في آخر الحميات خير ما بقيت به المعدة ، وأصلحت به العروق ، وقوى به الطحال ، ليتمكن من جذب العكر ، لا سيما والذي وجده مولاي ليس الذنب فيه للحميات التي وجدها ، والبلدة التي وردھا ، فلو صادف الهواء المتغير جسدا ثقيا من الفضول لما أثر هذا التأثير ، ولا طول هذا التطويل .

« وانما اغتر مولاي بأيام السلامة ، فكان يتبسّط في أنواع الطعام ، ويسرف في تناول الشراب ، فامتلا الجسم من تلك الكيموسات الرديئة . وورد بلدا شديدا التحليل مضطرب الأهوية

فوجدت النفس عوناً على حل ما انعقد ، وتقض ما اجتمع .
وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لأن
الجسد يخلص خلاص الابريز ، واذا زال عنه الخبث وسبك
ففارقه الدرن .

« وأما الرعدة التي يتألم مولاى منها ، ويضيق صدرها بها ،
فليست والحمد لله محذورة العاقبة ، وانها لتزول باقبال العافية .
فالرعدة التي تتخوف هي التي تعرض من ضعف القوة الحيوانية ،
كما تعرض للمشايخ ، وتؤدي لمشاركتها الدماغ كثيرا من العظام ،
فأما هذه التي تعتاد عقيب الحمى فهي على ما قال « جالينوس »
من أن حدوثها يكون اذا شاركت العروق التي تحدث فيها علة
العصب ، وتزول عنه بزوال الفضل . وعجب مولاى من تكرّره
شم الفواكه ، ولا غرو اذا عرف السبب ، فان العفونة التي في
العروق قد طبقت روائحها آلات الشم ، فما يصل اليها من
الروائح الزكية يرد على النفس مغمورا بتلك الروائح الخبيثة
فتكرهها ولا تقبلها ، وتأبأها ولا تؤثرها . ألا يرى مولاى أن
الأشياء الحلوة توجد في فم ذى الصفراء بطعم الأشياء المرة ،
لامتلاء المرارة المضادة للحلاوة على آلات الذوق والمضغ
والادارة . وهذا راجع الى مثل ما حكمنا به أولا من أن هناك
فضلا لا يمكن الهجوم على تحليله ، لما يخشى من سقوط القوة ،
وان كان مما لم يخرج لم يوثق بوفور الصحة ، وأنا أحمد الله
اذ ليست شهوة سيدي متزايدة ، فالشهوة الغالبة مع الأخلاط
الفاسدة تغرى صاحبها بالأكل الزائد ، وتعرض للمزاج الفاسد .

الا أن التغذى لا يجوز إهماله والتبرم به ضربة . فإن البدن اذا احتاج اليه وجب للعليل أن يتناوله تناول الدواء الذى يصبر عليه ، وذلك أن فى دقة الحمية وترك الرجوع أول فأول الى عادة الصحة امانة للشهوة ، وخيانة للقوة . و « جالينوس » يشرط فى العلاجات أجمع استحفاظ القوى ، لأن الذى يفعل الضعف لا يتداركه أمر ، الا أن ذلك بازاء ما قال الحكيم الأول « بقراط » فى البدن السقيم : انك متى ما زدته غذاء زدته شراً ، وهو فى نفسه يقول : ان الحمية التى فى غاية الدقة ليست بمحمودة ، فالطرفان من الاسراف والاجفاف مذمومان ، والواسطة أسلم ، أغنى الله مولاي عن الطب والأطباء بالسلامة والشفاء (١) ..

ولسنا بعد ذلك نستطيع الجزم بمظنة هذه الثقافة الطبية التى حصلها صاحب ، فاننا لم نقرأ أنه تلقى أصول فن الطب والعلاج على أحد من رجاله المعاصرين ، ولذلك فاننا نرجح أن هذه الثقافة الطبية لها مصدران : أولهما تجاربه فى حالة صحته وحالة سقمه ، والاستماع الى كلام أطبائه ونصائحهم ، ولعله كان يسألهم ويفيد من علمهم وتجاربهم ، والمصدر الآخر فيما نظن هو قراءته واطلاعه على آثار فى الطب والعلاج وفى الكتب التى تدرس فن الطب ، سواء أكانت من آثار حكماء العرب الذين عاصروه والذين سبقوه أم من كتب الطب التى ألفها حكماء اليونان ونقلت الى اللسان العربى .

(١) يتيمة الدهر ٢٠٢/٣ .

آثار الصاحب

انك حين تقرأ آثار الصاحب التي حفظها التاريخ ، وسجلتها كتب طبقات الرجال ، لتروعاك تلك القوة الخارقة ، والمعرفة الفائقة التي وهبها هذا الرجل ، على الرغم من الجهود المضنية التي تقل عزم الرجال ، والتي كان يبذلها في تدبير شئون الملك ، والتجهز للحرب ، وتفقد أحوال الرعية ، وفي مجالسه التي كان ينصبها للعلماء والأدباء ، يستمتع اليهم فيها ، وينظرهم في قضاياها ، وفي اتقاء الأذى ودفع الضرر الذي كان يحاوله أعداؤه وحساداه ، وهم كثيرون ..

ومن شأن تلك التبعات الكبرى ألا تدع لحاملها وقتا يصرفه في التأمل والمطالعة ، والبحث والتنقيب ، وفي الكتابة والتأليف ، بل من شأنها ألا تدع له وقتا يخلد فيه لراحته ، ويسكن فيه الى أهله وعشيرته ..

ان كثرة تصانيف الصاحب ، وتنوع مباحثها ، واختلاف فنونها ، لتدل بأنصع برهان على ما آتاه الله من المواهب المنقطعة النظير ، وتشهد بما منحه من وفرة العلم ، وسعة العقل ، ونفاذ البصيرة .. فلم يكن الصاحب الوزير من أولئك الذين يلمون بالمسائل الماما ، ولا من الأدباء الذين يجترئون من كل فن بطرف ، وانما كان من أولئك الأفذاذ الذين يغوصون الى قرارة المعرفة ، ومنابت الحكمة .

وهذه آثاره في منظوم الأدب ومنشوره ، صناعة وتأليفا ،

ومعرفة ونقدا ، ثم فى علم اللغة ، وعلم الكلام ، وعلم الأصول ،
وفى الفرق ، وفى التاريخ والأخبار والسير .. شاهدة بكل
ما ذكرنا من آيات نبوغه وتحصيله وعبقريته ، ومن هذه الآثار :

١ — كتاب المحيط فى اللغة ، ذكر ياقوت أنه عشرة
مجلدات (١) ، وقال ابن خلكان : هو فى سبع
مجلدات ، رتبه على حروف المعجم ، كثّر فيه الألفاظ
وقلّل الشواهد ، فاشتمل من اللغة على جزء
متوفر (٢) ..

٢ — كتاب ديوان رسائله — عشرة مجلدات .

٣ — كتاب « الكافى » — رسائل .

٤ — كتاب الزيدية .

٥ — كتاب الأعياد وفضائل النوروز .

٦ — كتاب الامامة ، يذكر فيه فضائل على بن طالب رضى

الله عنه ، ويثبت امامة من تقدمه .

٧ — كتاب الوزراء .

٨ — كتاب « عنوان المعارف » فى التاريخ .

٩ — كتاب الكشف عن مساوىء شعر المتنبى .

١٠ — كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته .

١١ — كتاب العروض الكافى .

١٢ — كتاب جوهرة الجمهرة .

(١) معجم الأدباء ٢٦٠/٦ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٢٥/٢ .

- ١٣ — كتاب « نهج السبيل » في الأصول .
- ١٤ — كتاب أخبار أبي العيناء .
- ١٥ — كتاب نقض العروض .
- ١٦ — كتاب تاريخ الملك واختلاف الدول .
- ١٧ — كتاب الزيددين .
- ١٨ — كتاب ديوان شعره .
- ١٩ — كتاب « الروزنامجة » مما اتفق له مع أبي محمد
الوزير المهلبى ، حين ورد الصاحب بغداد (١) .
- ٢٠ — كتاب « الوقف والابتداء » ذكره الأنبارى فى
« نزهة الألباء » وقال ان الصاحب لما صنف كتاب
الوقف والابتداء كان ذلك فى عنفوان شبابه ،
فأرسل اليه أبو بكر بن الأنبارى وقال له انما
صنفت كتاب « الوقف والابتداء » بعد أن نظرت
فى سبعين كتابا تتعلق بهذا العلم ، فكيف صنفت هذا
الكتاب مع حداثة سنك ؟ فقال الصاحب للرسول :
قل للشيخ نظرت فى النيف وسبعين التى نظرت فيها ،
ونظرت فى كتابك أيضا (٢) .

(١) يتيمة الدهر للشعالبي ١١٥/٣ .

(٢) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ٤٠٠ — قلت : ولأبى سعيد

السيرافى كتاب فى « الوقت والابتداء » .

الفصل السابع

أبو حيان والصاحب

أبو حيان والصاحب

كان على بن محمد بن العباس ، المكنى أبا حيان ، والملقب « التوحيدى » ^(١) من أهل شيراز ^(٢) ، وقدم بغداد فأقام بها مدة ، ومضى الى الرى ، وصحب الصاحب أبا القاسم اسماعيل ابن عباد ، وقبله أبا الفضل ابن العميد ، فلم يحمدهما ، وعمل في مثالبهما كتابا سماه « ثلب الوزيرين » أو « مثالب الوزيرين » أو « أخلاق الوزيرين » ! ..

وكان أبو حيان متفنا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وكان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه ، ويشتهى أن ينتظم في سلكه .. فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف في الأدباء ، وأديب في الفلاسفة ، ومحقق في الكلام ، ومتكلم في المحققين ^(٣) .. ولكنه كان — كما يقول ياقوت — سخيף اللسان ، قليل الرضا عند الاساءة اليه

(١) التوحيدى نسبة الى نوع من التمر يسمى « التوحيدى » وقال شيخ الاسلام ابن حجر : يحتمل أن يكون الى التوحيد الذى هو الدين . فان المعتزلة يسمون أنفسهم « أهل العدل والتوحيد » .
(٢) وقيل من نيسابور .

(٣) ويعدده بعض العلماء زنديقا ، قال ابن الجوزى : زنادقة الاسلام ثلاثة : ابن الراوندى ، وأبو العلاء المعرى ، وأبو حيان التوحيدى . قال : وشرهم على الاسلام التوحيدى ، لأنهما صرحا ولم يصرح !

والاحسان ، الذمّ شانه ، والثلب دكانه . وهو مع ذلك فرد الدنيا
الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل
للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية .

وكان مع ذلك محدودا محارفا (١) يتشكى صرف زمانه ،
ويبكى فى تصانيفه على حرمانه ، قال ياقوت : ولم أر أحدا من
أهل العلم ذكره فى كتاب ، ولا دمجّه فى ضمن خطاب ، وهذا
من العجب العجائب (٢) ..

ولعل السبب فى هذا الاغفال الذى يشير اليه ياقوت ما رمى
به أبو حيان من الزندقة والالحاد فتهيب الناس ذكره ، لما حاروا
فى أمره ، فقد صرح أصحابه — المعرى وابن الراوندى — برأيهما
فقال فيهما من شاء ما شاء ، أمّا هو فكما يظهر من كلام
ابن الجوزى كان يخلط السّم بالشهد ، ويخفى طوية نفسه ،
وحقيقة معتقده ..

وليس المجال هنا على كل حال مجال البحث فى عقيدة
أبى حيان ، أو الاطمئنان الى صحة اعتقاده .
وقد يكون السبب فى اهماله وعدم العناية بأخباره وآثاره
ما اشتهر به من الاساءة الى الناس ، وانكاره احسانهم اليه ،
ومعروفهم لديه .

* * *

وقد يكون حسده لأولى النعمة فى الثراء والجاه والعلم

(١) المحدود المحارف : المحروم .

(٢) معجم الأدباء ٦/١٥ .

والأدب — وقد كان أبو حيان « مجبولا على الغرام بثلب الكرام » — مما زهد الناس في علمه وأدبه . فقد عرفوا غروره وتعاضله ، وعرفوا أن الخلق الذي يتميز به كل مدع للعلم ومنتسب اليه هو فضيلة التواضع ، وقد جرّده الله من هذه الفضيلة ، وسلط لسانه على أنداده في العلم والمعرفة ، وعلى من يسبقونه في ميدان الذوق والفهم والتحصيل ، فقلّ منهم من نجا من لذعه ، وسلم من عيبه وتقده . وكأنه يجد في هذا الثلب لذة عجيبة ، ومتعة غريبة ..

ولا يتكلف أصحاب الأخبار نسبة هذا الخلق اللئيم اليه ، بل ان أبا حيان نفسه يعترف في صراحة أن النيل من الناس ، وشهوة انتقاصهم طبع ركب فيه ، لا يستطيع الخلاص منه . وذلك في حديث جرى بينه وبين أبي سعيد السيرافي ذكره أبو حيان في كتابه « المحاضرات » وقال فيه : كنت بحضرة أبي سعيد السيرافي ، فوجدت بخطه على ظهر كتاب « اللمع في شواذ التفسير » وكان بين يديه ، فأخذه ونظرت — قال : ذمّ أعرابي رجلا فقال : ليس له أول يحمل عليه ، ولا آخر يرجع اليه ، ولا عقل يزكو به عاقل لديه ، وأنشد :

حسبتك انسانا على غير خبرة

فكشفت عن كلب أكبّ على عظم

لحي الله رأيا قاد نحوك همتي

فأعقبنى طول المقام على الذم

فقال لي : يا أبا حيان ، ما الذي كنت تكتب ؟ قلت الحكاية

التي على ظهر هذا الكتاب ، فأخذها وتأملها ، وقال : تأبى
 الا الاشتغال بالقدح والذم وقلب الناس ؟ فقلت : أدام الله
 الامتاع ، شغل كل ناس بما هو مبتلى به مدفوع اليه ^(١) !!
 فالولوع بهجو الناس وانتقاصهم داء ابتلى به هذا الرجل ،
 وتمكن من قلبه حتى أصبح خلقا من أخلاقه ، وسجية من
 سجايه ، وأصبح لا يخص به رجلا دون رجل ، ولو كان ممن
 تفضلوا عليه ، وأحسنوا اليه ..

* * *

وقد نال أبو حيان من صاحب نيلا عظيما ، حاول به أن
 يحطم مجده ، وأن ينتزع من قلوب الناس وعقولهم ما وقر عندهم
 من فضله ، وما عرفوه من علمه وسياسته وأدبه ، وكأنه مسلط
 لاستخراج مخازيه ، واذاعة مساويه ، فكتب تلك الرسائل الطويلة
 التي بث فيها سمومه بالقدح والثلب الذي اقتنّ في ايرازه افتنان
 الكاتب الصانع ، والمصّور الماهر ، بدرجة تنتزع الاعجاب من
 قلوب أهل الفن ، وان كانت تأباها مكارم الأخلاق وما ينبغي أن
 يكون بين أهل العلم والمعرفة من التواصل والتقدير ..
 وأبو حيان يذكر لحملاته على صاحب أسبأيا ، وكل هذه
 الأسباب تكشف عن حقد دفين كان صدى لما أحسّ به من
 الحرمان ، وسوء التقدير ، وخيبة التأمل .

وهاك شيئا مما كتبه أبو حيان عن اتصاله بالصاحب ، وعما
 جرى بينهما مما رآه سببا للموجدة والحفيظة ..

(١) معجم الأدباء ٩/١٥ .

(١) قال أبو حيان : وأما حديثي معه — يعني مع ابن عباد —
فاتى حين وصلت اليه :

قال لى : أبو من ؟

قلت : أبو حيان ..

فقال : بلغنى أنك تتأدّب ..

فقلت : تأدّب أهل الزمان !

فقال : « أبو حيان » ينصرف أو لا ينصرف ؟

قلت : ان قبله مولانا لا ينصرف !

فلما سمع صاحب هذا تنمر ، وكأنه لم يعجبه ..

ثم قال لى : الزم دارنا ، وانسخ هذا الكتاب .

فقلت : أنا سامع مطيع ..

ثم انى قلت لبعض الناس فى الدار مسترسلا : انما توجهت من
العراق الى هذا الباب ، وزاحمت منتجعى هذا الربيع لأتخلص
من حرفة الشؤم ، فان الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة !! فسمى
اليه هذا أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده تنكرا ..

(٢) وقال لى ابن عباد يوما :

— يا أبا حيان ، من كنتاك بأبى حيان ؟

قلت : أجلّ الناس فى زمانه ، وأكرمهم فى وقته ؟

قال : ومن هو ؟ وملك ..

قلت : أنت !

قال : ومتى كان ذلك ؟

قلت : حين قلت : « يا أبا حيان ، من كنتاك بأبى حيان » ؟ !

فأضرب عن هذا الحديث ، وأخذ في غيره ، على كراهة ظهرت عليه ..

(٣) وقال لى يوما آخر : — وهو قائم فى صحن داره ، والجماعة قيام ، منهم الزعفرانى وكان شيخا كثير الفضل جيد الشعر متمتع بالحديث ، والتميمى المعروف بسطل وكان من مصر ، وصالح الوراق ، وابن ثابت ، وغيرهم من الكتاب والندماء — : يا أبا حيان ، هل تعرف فيمن تقدم من يكنى بهذه الكنية ؟ قلت : نعم ، من أقرب ذلك « أبو حيان الدارمى » من أهل البصرة .. وبعد أن روى شيئا من أخباره وأشعاره .. قال : فلما وفيت الشعر ، ورويت الاسناد ، وريقى بليل ، ولسانى طلق ، ووجهى متهلل ، وقد تكلفت هذا وأنا فى بقية من غرب الشباب ^(١) وبعض ريعانه ، وملأت الدار صياحا ، فحين انتهيت أنكرت طرفه ^(٢) ، وعلمت سوء موقع ما رأيت عنده !

قال : ومن تعرف أيضا ؟

قلت : ابن الجعابى الحافظ ، يكنى بأبى حيان ، رجل صدق ، وهو يروى عن التابعين !

قال : ومن تعرف أيضا ؟

قلت : روى الصولى فيما حدثنا عنه المرزبانى أن معاوية لما احتضر أنشد يزيد عند رأسه متمثلا :

(١) غرب الشباب حدثه ونشاطه .

(٢) أى رأيت فى نظره ما لا يروق الناظر اليه .

لو أن حيّا نجا لفات أبو

(١) حيّان لا عاجز ولا وكل

الحول القلب الأريب وهل

(٢) يدفع صرف المنية الحيل

قال الصولى : وهذا كان من المعمرين المغفلين ..

وانتهى الحديث من غير هشاشة ولا هزة ولا أريحية ، بل على

الكفهرار وجه ، ونبوّ طرف ، وقلة تقبل !

(٤) وقال لى صاحب يومنا — وهو يحدث عن رجل أعطاه

شيئا فتلكأ فى قبوله — : « ولا بد من شىء يعين على الدهر » ؛
ثم قال :

— سألت جماعة عن صدر هذا البيت ، فما كان عندهم ذلك ..

فقلت : أنا أحفظ ذاك ..

فنظر بغضب ، وقال : ما هو ؟

قلت : نسيت !

فقال : ما أسرع ذكرك من نسيانك !

قلت : ذكرته والحال سليمة ، فلما استحالت عن السلامة

نسيت !

قال : وما حيلولتها ؟

(١) الوكل البليد الجبان العاجز .

(٢) الحول ذو القوة والقدرة على التصرف ، والأريب البصير

بالأمور .

قلت : نظر الصاحب بغضب ، فوجب في حسن الأدب ألا يقال
ما يثير الغضب !

قال : ومن تكون حتى نغضب عليك ؟ دع هذا وهات ..
قلت : قول الشاعر :

ألام على أخذ القليل وانما
أصادف أقواما أقل من الذر

وأدفع عن أموالهم ونفوسهم
ولا بد من شيء يعين على الدهر

فسكت !

(هـ) قدم الى نجاح الخادم ، وكان ينظر في خزانة كتبه ،
ثلاثين مجلدة من رسائله ، وقال : انسخ هذا فانه قد طلب منه
بخراسان ، فقلت بعد ارتياء (١) : هذا طويل ، ولكن لو أذن لي
لخرجت منه فقرا كالغزر ، وشذورا كالدرر .. لو رقى بها مجنون
لأفاق ، أو نفث على ذى عاهة لبرأ ، لا تمل ولا تستغث ..

فرفع ذلك اليه — وأنا لا أعلم — فقال : طعن في رسائل
وعابها ، ورغب عن نسخها ، وأزرى بها ، والله لينكرن منى
ما عرف ، وليعرفن حظه اذا انصرف !

كأنى طعنت في القرآن ، أو رميت الكعبة ، أو عقرت ناقة
صالح ..

وما ذنبى يا قوم اذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا

(١) أى بعد تدبير وامعان .

الذى يستحسن هذا الكلب ، حتى أعذره فى لومى على الامتناع ؟
أينسخ انسان هذا القدر ، وهو يرجو بعدها أن يمتع الله ببصره ؟
أو ينفعه ببدنه ؟

(٦) وفى كتاب « الهفوات » لابن الصابىء : حكى أبو حيان
قال : حضرت مائدة الصاحب بن عباد ، فقدّمت مضيرة ^(١) ،
فقال لى : يا أبا حيان ، انها تضر بالمشايخ ! فقلت : « ان رأى
الصاحب أن يدع التطب على طعامه فعل » ! .. فكأننى ألقته
حجرا وخجل واستحيا ، ولم ينطق الى أن فرغنا ..

(٧) قال الصاحب يوما : « فَعَلْ » و « أفعال » قليل ^(٢) ،
وزعم النحويون أنه ما جاء الاّ زند وأزناد ، وفرخ وأفراخ ،
وفرد وأفراد !

فقال أبو حيان : أنا أحفظ ثلاثين حرفا كلها فعل وأفعال ^(٣) .

فقال الصاحب : هات يا مدّع !

قال أبو حيان : فسردت الحروف ، ودلت على مواضعها من
الكتب ، ثم قلت : ليس للنحوى أن يلزم مثل هذا الحكم الا بعد
التبصر والسماع ، وليس للتقليد وجه اذا كانت الرواية شائعة
والقياس مطردا . وهذا كقولهم : « فَعِيل » على عشرة أوجه ،

(١) المضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير أو الحليب ، واللبن
المضير الحامض منه .

(٢) يريد ان ما جاء من الأسماء على وزن « فعل » مجموعا
على وزن « أفعال » قليل .

(٣) أى أعرف ثلاثين اسما على وزن « فعل » جمعت على
وزن « أفعال » .

وقد وجدته أنا يزيد على أكثر من عشرين وجها ، وما انتهت في
التتبع الى أقصاه . فقال له الصاحب : خروجك من دعواك
في « فَعَلَ » يدلنا على قيامك في « فَعِيل » ولكن لا نأذن لك في
اقتصاصك (١) ، ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به
بجرائك في مجلسنا ، وتبستك في حضرتنا ..

(٨) وقال أبو حيان في كتاب « أخلاق الوزراء » : طلع
ابن عباد على يوما في داره ، وأنا قاعد في كسر ايوان أكتب شيئا
كان قد كادني به (٢) ، فلما أبصرته قمت قائما ، فصاح بحلق
مشقوق : اقعد فالوراقون أخس من أن يقوموا لنا !..

فهست بكلام ، فقال لي الزعفراني الشاعر : اسكت ، فالرجل
رقيق !.. فغلب على الضحك ، واستحال الغيظ تعجبا من خفته
وسخفه ، لأنه كان قد قال هذا وقد لوى شذقه ، وشنج أنفه ،
وأمال عنقه ، واعترض في انتصابه ، وانتصب في اعتراضه ، وخرج
في تفكك مجنون قد أفلت من دير جنون .. والوصف لا يأتي
على كنه هذه الحال ، لأن حقائقها لا تدرك الا باللحظ ، ولا يؤتى
عليها باللفظ .

(٩) ما ذنبي اذا قال لي : هل وصلت الى ابن العميد
أبي الفتح ؟ فأقول : نعم رأيته ، وحضرت مجلسه ، وشاهدت

(١) أي فيما تقصه علينا .

(٢) كاده بالشئ كلفه به .

ما جرى له ، وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا ، وفيما تقدم منه كذا وكذا ، وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ، ووصل أبا سعيد السيرافي بكذا وكذا ، ووهب لأبي سليمان المنطقي كذا وكذا .. فينزوي وجهه ، وينكر حديثه ، وينجذب الى شيء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما حرك له .. ثم يقول : أعلم أنك إنما انتجعت من العراق ، فأقرأ على رسالتك التي توصلت اليه بها ، وأسهب مقرظا له فيها ، فأتمانع ، فيأمر ويشدد ، فأقرأها فيتغير ويذهل ؟..

(١٠) ثم ما ذنبى اذا قال لى : من أين لك هذا الكلام المقوف المشوف ^(١) الذى تكتب به الى فى الوقت بعد الوقت ؟ فقلت : وكيف لا يكون كما وصف مولانا ، وأنا أقطف ثمار رسائله ، وأستقى من قلب ^(٢) علمه ، وأشيم بارق أدبه ، وأرد ساحل بحره ، وأستوكف قطر مزنه ^(٣) ؟ فيقول : كذبت وفجرت ، لا أمّ لك ! ومن أين فى كلامى « الكدية » و « الشحذ » و « التضرع » و « الاسترحام » ؟ كلامى فى السماء ، وكلامك فى السباد ..

هذا ، أيدك الله ، وان كان دليلا على سوء جدى ، فانه دليل أيضا على انخلاعه وخرقه وتسرعه ولؤمه !..
وقال أبو حيان عند قربيه من الفراغ من كتابه فى ثلب الوزيرين

(١) المقوف : الرقيق ، والمشوف : المجلو .

(٢) القلب : البئر .

(٣) استوكف : استمطر واستدعى جريانه .

— وقد حكى عن ابن عباد حكايات وأسندها الى من قال انه أخبره بها — : فما ذنبى ، أكرمك الله ، اذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان .. على أنى قد سترت شيئا كثيرا من مخازيه ، اما هربا من الاطالة ، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش وبث الفضائح ، وذكر ما يسمح مسموعه ، ويكره التحدث به ..

هذا سوى ما فاتنى من حديثه ، فانى فارقتة سنة سبعين وثلثمائة ..

ثم يلتبس أبو حيان الأسباب التى حملت على ذلك الفحش والاقذاع فى قوله : ما ذنبى أن ذكرت عنه ما جرّعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحمل عليه من الاخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل والظن الحسن ، حتى كأنى خصصت بخصاصته وحدى ، أو وجب أن أعامل به دون غيرى .. وانظر كيف يستحيل معى عن مذهبه الذى كان هو عرقه النابض ، وسوسه ^(١) النابت ، وديدنه المألوف ؟ .. وهكذا أجرانى مجرى التاجر المصرى والشاذباشى ^(٢) وفلان وفلان ؟ !



ذلك شئ مما ساقه أبو حيان فيما كان بينه وبينه صاحب

(١) السوس الأصل .

(٢) منسوب الى « الشاذباش » وهو فارسى ، ومعناها

أجرة المغنى .

ابن عباد ، أو تلك هى الأسباب التى أحفظت صدر أبى حيان على
الصاحب ، وفيها ما أحفظ صدر الصاحب على أبى حيان .
ويستفاد من هذه الروايات والأخبار :

أن أبا حيان ، وهو من هو فى العلم والأدب ، كان يطمح
أن يجد فى رحاب الصاحب ما كان يطمح اليه من عزة وتكريم ،
ومودة وتقريب ، مما يلائم مواهبه وطموحه ، وقد عرف أن حضرة
الصاحب كعبة القصاد ، وأمل الوافدين من رجال العلم والأدب ،
الذين يدفعهم طموحهم ، أو سوء ما يجدون فى أوطانهم الى
الرحلة الى رحاب أوسع ، وآمال أكبر ، فتوجه من العراق الذى
كان يحترف فيه حرفة الوراقة التى لقبها « حرفة الشؤم » الى
هذا الباب ، وزاحم منتجمى هذا الربيع ، وانما يسقط الطير حيث
يلتقط الحب ..

فماذا كان يريد أبو حيان أن يكون ؟

أكبر الظن أنه كان يريد أن يكون صاحباً للصاحب ، وأنيساً
له ورفيقاً ونديمياً ، يستظل بكنف الصاحب ، ويستمتع الى الأدباء ،
ويحكم بين الشعراء ، ويناقش العلماء ، ويفضى فى حضرته بمكنون
علمه ، ليطير ذكره فى الآفاق ، ويودع حياة الخمول التى قاساها ،
وحرفة الوراقة التى كان يمتنها قبل أن يلقاه .

ومما لا نشك فيه أن أبا حيان — بعد الذى عرفناه عن علمه
الواسع ، وثقافته المتنوعة العميقة ، واطلاعه على كل دقيق من
العلم والفن ، وآثار قلمه الرائعة فى التصوير والبيان ، والغزارة
المنقطعة النظير التى نقرأ آثارها فى كتبه ، ولا سيما فيما استطعنا

أن تقف عليه كاملا في تلك الآثار ، وفي مقدمتها كتاباه « المقابسات » و « الامتاع والمؤانسة » اللذين قرأ فيهما فيضا زائرا ، وسيلا متصلا من العجب العجائب الذى يدهش العقول ويحير الألباب ، ويدل على توقد الذهن ، وقوة الخاطر — لا شك بعد هذا كله فى أن أبا حيان كان جديرا كل الجدارة بما كان يطمح اليه ، وما كان يتطلع الى بلوغه من هذه المنزلة فى صحبة صاحب ..

فلم لم يحله صاحب هذه المنزلة ؟ ولم لم يبلغه ما يريد من العزة والجاه ؟ أكانت تلك المعرفة المتبحرة التى كان أبو حيان يتمتع بها يمكن أن تخفى على مثل صاحب ، وهو المشهود له بمعرفة الرجال ، وانزالهم منازلهم من حضرته التى تزدان بالنابهين من العلماء والأدباء ، وطالبي الحاجات ؟

ذلك افتراض فى رأينا بعيد !.. حتى لو لم يكن صاحب يعرف عن أبى حيان شيئا قبل شخوصه اليه ، وقدمه عليه ، فقد وقف بنفسه على ما عند الرجل من معرفة وفهم وتحصيل فى تلك الأحاديث والمناقشات التى دارت بينهما فى مجلسه ، وفى اجابات أبى حيان الشافية عن الأسئلة التى وجهها اليه صاحب ، وفيما وجده مما لم يجد عند غيره من أهل الرواية والدراية ..

ولم يكن صاحب بعد كل هذا فى حاجة الى سؤال أحد ، أو استطلاع أخباره من أهل الرواية والأخبار .

لعل صاحب كان يرى فى أبى حيان رجلا متظلم لا يرضى

بعطاء ، ولا يقنع بما يمكن أن يصله به كما يقنع نظراؤه من قصّاده ..

ان الذى يذكره أبو حيان فى ذلك أنه لم ينل من عطاء
الصاحب كثيرا ولا قليلا ، وذلك فى قوله : « انى فارقت بابى
سنة سبعين وثلاثمائة راجعا الى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة ،
ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهما واحدا ، ولا ما قيمته درهم
واحد » ! وذلك خبر اذا صح غريب ، فان معناه أن أبا حيان
لم ينل فى تلك السنين الثلاث الا طعامه الذى يقيم أوده ويحفظ
عليه حياته ، وثوبه الذى يستر به جسده . وذلك جزاء من مثل
الصاحب قليل ، بل أقل من القليل ..

ولسنا نظن أن واحدا من أدنى خدم الصاحب فى القصر كان
يرضى أن يكون ثمن خدمته طعامه وثوبه ، من غير أن يكون له
حظ من موفور العطاء يعود به على أهله ، أو يحفظه من عادات
الزمان ، فتلك دائما غاية الذين كانوا ينتجعون أبواب الملوك
والأمراء والوزراء ، ويشدون اليهم الرحال ، ويركبون فى سبلهم
الأهوال ..

* * *

ولم يكن أبو حيان فى تلك السنين الثلاث رجلا من العاطلين
فى بلاط الصاحب ، بل انه كان يزاول عملا من أصعب الأعمال
وأشقها على نفسه ، وهو النسخ والوراقة لما يجب ولما قد يكره ،
فلا أقل من أجر العمل ، وهو عمل يحفظ علم الصاحب وأدبه ،

ولن يرضى أن يكون هذا الأجر طعاما وثيابا ، فليس هذا أجر السّرة العالمين لذوى المعرفة الحاذقين .

وذلك شيء عجيب حقا ، اعترف به أبو حيان ، وعرفه كثير من أعيان العصر ، فليس سرّا أن أبا حيان قد عاد من رحلته الى صاحب صفر اليدين خالى الوفاض . فقد سأل الوزير أبو عبد الله العارض أبا حيان ، فقال له : انى أريد أن أسألك عن ابن عباد ، فقد انتجته وخبرته ، وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعاداته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ، فما أظن أنى أجد مثلك فى الخبر عنه والوصف له ، على أنى قد شاهدته بهذان لما وافى ، ولكنى لم أعجمه ، لأن اللبث كان قليلا ، والشغل كان عظيما ، والعائق كان واقعا ..

ويكون جواب أبى حيان : انى رجل مظلوم من جهته ، وعاتب عليه فى معاملتى ، وشديد الغيظ لحرمانى ، وان وصفته أربيت منتصفا ، وانتصفت منه مسرفا . فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عاريا منهما جملة كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق (١) ..

ولم تكن خفيضة أبى حيان على الصاحب وحقده عليه سرّا من الأسرار ، بل لقد ذاع خبر هذه الموجدة وشاع ، وأصبح حديث العام والخاص ، فالشيخ أبو الوفاء الذى وصل أبا حيان

(١) الامتاع والمؤانسة ٥٤/١ .

بالوزير أبى عبد الله العارض يمن على أبى حيان صنيعة فيه واحسانه اليه بقوله : « انك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرى الى بغداد فى آخر سنة سبعين بعد فوت مأمولك من ذى الكفایتين (١) — نضر الله وجهه — عابسا على ابن عباد ، مغیظا منه ، مقروح الكبد لما نالك من الحرمان المرّ ، والصد القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقدح المؤلم ، والمعاملة السيئة ، والتغافل عن الثواب على الخدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهّم المتوالى عند كل لحظة ولفظة (٢) ..

* * *

ولقد أطلق أبو حيان لسانه بالقدح فى الصاحب والتشهير به . وحاول الصاحب فيما يذكر أبو حيان — والعهد عليه — أن يردّه اليه للاحسان اليه ، أو ليكفّ لسانه عنه ، وذلك فى قول أبى حيان : ان ابن عباد رجل أساء الىّ وأوحشنى ، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أثقل اليه ثانيا ، وكنت أكره ذلك ، وما كنت آمن ما يكون منه ومنى ، والمجنون المطاع مهروب منه بالطباع (٣) ..

(١) ذو الكفایتين لقب لأبى الفتح على بن أبى الفضل محمد المعروف بابن العميد ، ويعنون بالكفایتين كفاية السيف وكفاية القلم ، وقد قام مقام أبيه العميد ، واستوزر لركن الدولة البويهى، ثم لما تولى عضد الدولة نكبه وقتله سنة ٣٦٦ هـ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ٤/١

(٣) الامتاع والمؤانسة ٥٣/١ .

وهذا الخبر خبر محاولة الصاحب ارجاع أبي حيان الى
حضرتة للاحسان اليه ان صدق يدل على ندم الصاحب في تفریطه
في حقه ، وخوفه من أن يبسط لسانه في العيب فيه ، فيشيع عنه
ما يكره أن ينسب اليه ، ويذيعه عنه في العالمين .

وليس لنا بعد ذلك أن نشك في سوء منقلب أبي حيان عن
حضرة الصاحب ، ولكننا محتاجون الى تفسير لذلك التجهم الذي
استقبله به ، والصدود الذي لقيه منه طول ثوائه عنده .. وفي
الأخبار التي سلفت والتي ذكرها أبو حيان نستطيع أن تستشف
شيئا من تلك الأسباب :

(١) ان الصاحب كان يرى نفسه — أو كان يجب أن
يكون — فرد زمانه أدبا وعلما ومعرفة ، وكأنه كان لا يقنع
بمنصب الوزارة الذي رقى اليه ، بل كان حريصا على أن يضم
المجد من أطرافه ، وكان يكره أن يكون في الناس ، بل أن يكون
في مجلسه الذي يتصدره من يراه الناس رأى العين أعلم منه .
وقد رأى عند أبي حيان علما وإحاطة ، ورواية ودراية ليست
عنده . كما رأينا في كلامه عن « فَعَلَ » و « أفعال » .. وكما
رأينا في عجز البيت « ولا بد من شيء يعين على الدهر » الذي
أخبر الصاحب أنه لم يجد من يدلّه على صدره ، فاذا أبو حيان
يذكر في بداهة صدره ، ويفعل أكثر من هذا فيروى البيت الذي
قبله ..

ثم رأينا أبا حيان بعد أن يروى ما يروى في « فَعَلَ »
و « أفعال » من الحروف الثلاثين التي لم يعرفها النحويون ،

ولم يعرفها الصاحب ، رأيناه يسترسل من غير أن يسأل فينتقد النحاة في حصرهم أوجه « فاعيل » في عشرة ، وهو يعرف منها ما يربو على عشرين وجها ، ولا يسمح له الصاحب في هذا الاسترسال ، بل يقطع حديثه في تعسف ظاهر بقوله : « لا تأذن لك في اقتصاصك ، ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجرائك في مجلسنا ، وتبسطك في حضرتنا » ..

وفي هذا الرد القاسى ما يؤكد ما قلناه من أن الصاحب كان يكره أن يكون في مجلسه من هو أعلم منه .

أو لعل الصاحب ، وهو سيد المجلس ، كره من أبى حيان أن يتكلم كما يشاء ، والصاحب رب الدار ورئيس المجلس وهو الذى يدير الحديث ، ويوجهه على حسب ما يشاء ، فرأى فيما كان من أبى حيان اخلاالا وتجاوزا لا يليق ..

ولكن ذلك لا ينهض عذرا فى مجلس ينصبه للعلم ، يستطرد فيه البحث الى آماده .. وربما كانت طريقة أبى حيان وأسلوبه فى عرض ما يريد لم تكن طريقة العالم المتواضع فى علمه ، بل ربما كان أسلوبه فى الكلام أسلوب المتعالم المستعلى المتعجرف الذى يرى أن عنده ما ليس عند غيره فيملؤه الزهو والغرور ، وكان زهوه وغروره هو الذى نقر منه الصاحب ، وأطلق فيه ألسنة الحاسدين ..

ويصف أبو حيان فى بعض كلامه أسلوبه فى القول وطريقته فى اللقاء ، عندما كان الصاحب يسأله عن اسمه « أبو حيان » .. فيقول : « وقيت الشعر ، ورويت الاسناد ، وريقى بليل ، ولسانى

طلق ، ووجهى مهمل . وقد تكلفت هذا وأنا في بقية من غرب
الشباب ، وبعض ريعانه ، وملأت الدار صياحا ..
ولم يكن غريبا بعد ذلك أن ينكر نظرة الصاحب إليه ، ويعرف
سوء موقع ما أنشد عنده ، وأن ينتهى الحديث من غير هشاشة
ولا هزة ولا أريحية ، بل باكتفهار وجه ، ونبو طرف ، وقلة
تقبل ..

حتى عبارات الملق التي كان يفتن فيها أبو حيان كانت
لا تجد لها صدى في قلب الصاحب ، فاذا سأله الصاحب عن سر
بلاغته وجودة كلامه ، وأجابه أبو حيان بأنه يقطف من ثمار
رسائله ، ويستقى من قلب علمه ، ويشيم بارق أدبه ، ويرد ساحل
بحره ، ويستوكف قطر مزنه .. يكون جواب الصاحب في خشونة
وصلف : كذبت وفجرت لا أم لك ! كلامي في السماء ، وكلامك
في السّماء !



والذي لا نشك فيه أن السّعاة قد بلغت مداها بين الرجلين ،
وأن السّعاة لعبوا دورا كبيرا في توسيع الهوة وفي أحداث الفارقة
بينهما ، ولا نشك كذلك في أن أولئك السّعاة وجدوا في صراحة
أبي حيان ، وفي بثه ضجره بالمقام ، وضيقه بالعمل وإطلاقه لسانه
في نقد بعض ما كان يجد من الصاحب ، وسائل أعانتهم على بلوغ
ما يريدون ، وقد أحسّ أبو حيان بأثر صراحته وشكواه ، وما فعل
به السّعاة في قوله « قلت لبعض الناس في الدار مسترسلا : انما
توجهت من العراق الى هذا الباب ، وزاحمت منتجى هذا

الربيع لأتخلص من حرفة الشؤم ، فان الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة .. فنى اليه هذا أو بعضه ، أو على غير وجهه ، فزاده تنكرا » .

وتلك احدى حماقات أبى حيان ، اذ كيف يخفى عليه أن قصور الخلفاء والوزراء كانت تعج بالعيون والرقباء على كل اشارة وحركة ، لا سيما فى ذلك الزمن الذى كثرت فيه الدسائس والمؤامرات ، وهو رجل أيا كان علمه وأدبه غريب ؟ !

ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الأخبار أن أبا حيان كان صاحب أمل عريض يلائم معرفته وطموحه ، وقد تبدد هذا الأمل ، وكان مصيره أن يعود الى حرفة النسخ والوراقة التى فر منها ببغداد ، ففضى تلك السنين الثلاث قلق المضجع ، نابى الوساد ، بعد أن خاب فآله وأخفق سعيه ، فتحول أمله يأسا ، وانقلب رضاه سخطا ، وعاش على هون ذليلا فى كسر الايوان ينسخ ما يرضى وما يكره ، وما يستطيع وما لا يستطيع ، ولم تكن حرفة النسخ لتشبع نهمه الى المجد الذى يحلم به . ويمكن تشبيه أبى حيان فى آماله وفى موقفه من الصاحب بآمال المتنبى وموقفه من كافور .. كما يمكن أن يقال ان اعتداد أبى حيان بنفسه وعلمه وأدبه كان يقابله حرص من الصاحب على ألا يبدو غيره أعلم منه أو أعرف منه بما يجهل ، ثم سعاية السعاة وقد كانت ذات أثر بعيد فى القطيعة بين الرجلين ، وفقدان الثقة بينهما .

وبعد فهل من الممكن الذهاب الى القول بأن الصاحب وجد فى أبى حيان منافسا يخشى خطره على منصبه ، بعد أن عرف

علمه وأدبه ، وأنه يستطيع أن يزاحمه فيهما ، اذا كانا عدة المنصب
ووسيلة بلوغه ؟ .



ثم هل من الممكن أن نفسر تلك الحملات الظالمة التي شنّها
أبو حيان على صاحب بأنه كان ينشد الانسانية الكاملة ، والمثالية
البشرية في صاحب فلم يجدها ، ووجد في شخص صاحب أو في
خلقه وأدبه هنوات جسّمها هذا التجسيم ، وأجرى بها قلمه البارِع
في الهجاء والثلب على ذلك النحو المثير من العيب والانتقاص ؛
فسجل تلك الصور التي تنبئ عن المهارة والجدق في فن الوصف
والتشهير ؟

قد يذهب هذا المذهب من ينخدع بقول أبي حيان عندما قارب
الفراغ من كتابه في « أخلاق الوزيرين » : ولولا أن هذين
الرجلين — أعنى ابن عباد وابن العميد — كانا كبيرى زمانهما ،
واليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما
ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرًا ، والقبیح
يؤثر عنهما أثرًا ، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع ،
ولا أنحى عليهما بهذا الحد . ولكن النقص ممن يدعى التمام
أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم
منكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ
منه بدعواه عجيب !

ثم من يقرأ قوله فيهما بعد ذلك : « لو أردت مع هذا كله

أن تجد لهما ثالثاً في جميع من كتب للجيل والديلم الى وقتك هذا
المؤرخ في الكتاب لم تجد (١) ..

وكان أبا حيان يقول في هذا الكلام ان حسنات الأبرار سيئات
المقربين ، ولكن هل يسلم له هذا القول ؟ وهل يمكن أن يكون
هو العذر الذي يطمئن اليه قارئ بعدما تقدم من الكلام الذي
يكشف عن أحقاد نفسية ، ودوافع ذاتية ، بلغت مداها في عقل
أبي حيان وفي قلبه ، واستحالت سموها سال بها لعاب قلمه ،
فأحالت كل مكرمة من مكارم الصاحب وكل حسنة من حسناته
مثلية وعيباً ؟

* * *

وليت هذا الايذاء وقف على الصاحب ، بل انه ليتجاوزه الى
خاصة المتصلين به فينال به من علمهم ، ولا تسلم منه أعراضهم ،
كما يقول عن الداركي (٢) : « أما الداركي فقد اتخذ الشهادة
مكسبة ، وهو يأكل الدنيا بالدين ، ويغلب عليه اللواط ، ولا يرجع
الى ثقة وأمانة ، ولقد تهتك بنيسابور قديماً ، وببغداد حديثاً .
هذا مع القدامة والوخامة .. وهو اليوم قاضي الري ، وابن عباد
يكنفه ويقربه ، ليكون داعية له ونائباً عنه ، وليس له أصل ،

(١) معجم الأدباء ٢٣٢/٦ .

(٢) لعله يريد أبا القاسم الداركي ، نسبة الى دارك ، قرية
في أصفهان ، وهو أحد فقهاء الشافعية، وهو ببغدادى أقام بنيسابور
مدة ، وانتهى التدريس اليه ببغداد ، وأخذ عنه عامة شيوخها .
مات سنة ٣٧٥ هـ .

وهو من سواد همدان ، وأبوه كان فلاحا ، ولقد رأيته ، الا أنه يأتي لابن عباد في ستمته ولزوم ناموسه حتى خف عليه ، وهو اليوم قارون ، وقد علت رتبته في الكلام حتى لا مزيد عليها ، الا أنه مع ذلك نغل الباطن ، خبيث الخبء ، قليل اليقين ^(١) .. وبعد ، فقد عرف السابقون من المحققين أخلاق أبي حيان ، وتشككوا فيما نمقه من أحاديث وما سطره من روايات لا يمت كثير منها الى الصدق بسبب من الأسباب . فقد قال السبكي في « طبقات الشافعية » ما صورته : قال الذهبي : كان أبو حيان سيء الاعتقاد ، ثم نقل قول ابن فارس في كتاب « الفريدة والخريدة » ^(٢) : كان أبو حيان كذابا قليل الدين والورع .. ولقد وقف سيدنا صاحب كافي الكفاة على بعض ما كان يدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد ، فطلبه ليقتله ، فهرب والتجأ الى أعدائه ، ونفق عليهم بزخرفه وافكه ، ثم عثروا منه على سوء عقيدته ، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح ، ويضيفه الى السلف الصالح من الفضائح ، فطلبه الوزير المهلبى ، فاستتر منه ، ومات في الاستتار .. وفي « لسان الميزان » عن بعض العلماء أنه قال : لم أزل أرى أبا حيان معدودا في زمرة أهل الفضل حتى صنع

(١) الامتاع والمؤانسة ١٤٢/١ .

(٢) هكذا في النسخة المطبوعة ، ولم نجد هذا الكتاب في مؤلفات ابن فارس ، وفي ميزان الاعتدال « قال ابن راني في كتاب الفريدة » وفي لسان الميزان « قال ابن مالى » . هـ من تعليق السيد محسن الأمين الحسينى العالمى (اعيان الشيعة ٣٣٨/١) .

رسالة منسوبة الى أبى بكر وعمر ، وقال انهما راسلا بها عليا ،
وقصد بذلك الطعن على الصدر الأول . وحكى الذهبى عن
أبى سعيد المالينى أنه قال : « قرأت الرسالة ، يعنى المنسوبة الى
أبى بكر وعمر مع أبى عبيدة الى على » ، على أبى حيان فقال : هذه
الرسالة عملتها ردّا على الرافضة ، وسببه أنهم كانوا يحضرون
مجلس بعض الوزراء — يعنى ابن العميد — فكانوا يغفلون فى
حب على ، فعملت هذه الرسالة » !

ان رجلا يبلغ به العبث الى هذه الدرجة من الافتراء على
الصدر الأول من الصحابة الراشدين فى تأليف رسائل كاذبة
يؤلفها ثم ينسبها اليهم ، ليس كثيرا عليه أن يفترى على مثل
الصاحب بن عباد ، وأن يخترع روايات مكذوبة ينسبها الى
بعض العلماء والرواة فى النيل منه ، ليرضى من الناس من يشاركه
فى الحقد على الصاحب ، والغيرة الحمقاء من أفضاله ومكارمه .
ومن الصاحب وغير الصاحب بالقياس الى أبى بكر وعمر
وعلى وأبى عبيدة ؟ ! ومن هذا كله ينبغى على قارىء أبى حيان
أن يضع بين عينيه هذه الحقائق ، وألا يأخذ بكلامه كله قبل
أن يعرضه على عقله وفكره ، ويقرنه بكلام غيره من أهل
الثقة فى الأخبار والروايات .

وأخيرا فلا بأس أن ننقل فى ختام هذا الكلام احتمالات
السخط على الصاحب التى كتب بسببها أبو حيان ما كتب :

(١) لأنه كان يأمل منه أكبر مما وصله به .

(٢) أو لأنه طبع على التأقف والسخط .

(٣) أو لأن صاحب طلبه ليقنتله كما قيل .
ويقول صاحب « أعيان الشيعة » (١) ان أبا حيان هجا
الصاحب ، وهو ذو لسان ذلق وبلاغة . وقد كان هذا دأب
الشعراء يهجون من لم يرضوا عن جوائزهم بأقبح الهجو ، ويمدحون
الناس بما فيهم وبما ليس فيهم طلبا لجوائزهم . وأبو حيان كان
كاتبا بليغا أكثر منه شاعرا ، فهجا الصاحب لما لم يرض عنه بنثره
البليغ ، كما يهجو الشاعر بشعره ، فذمه للصاحب وابن العميد
لا قيمة له في عالم الحقيقة ، كما لا قيمة لهجو الشعراء في عالمها ،
نعم له قيمته الأدبية التي تترك أثرا في النفوس على ممر الدهور ..

وفاة الصاحب

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٣٨٥ هـ : في هذه السنة مات
الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالرى ،
وكان واحد زمانه علما وفضلا وتدييرا وجودة رأى وكرما ، عالما
بأنواع العلوم ، عارفا بالكتابة وموادها . ورسائله مشهورة
مدونة ، وجمع من الكتب ما لم يجمعه غيره ، حتى أنه كان يحتاج
في نقلها الى أربعمائة جمل ..

ولما حضره الموت قال لفخر الدولة : قد خدمتك خدمة
استفرغت فيها وسعى ، وسرت سيرة جلبت لك حسن الذكر ،
فان أجريت الأمور على ما كانت عليه نسب ذلك الجميل اليك

(١) أعيان الشيعة ٢٤٠/١١ .

وتركت أنا ، وان عدلت عنه كنت أنا المشكور ونسبت الطريقة
الثانية إليك ، وقدح ذلك في دولتك ، فكان هذا نصحه له الى
أن مات (١) ..

وذكر الثعالبي في اليتيمة أن صاحب لما بلغت سنه الستين
اعتزته آفة الكمال ، واتبته أمراض الكبر ، جعل ينشد قوله :
أناخ الشيب ضيفا لم أردہ ولكن لا أطيق له مردًا
رداء للردى فيه دليل تردى من به يوما تردى
ولما كنى المنجمون عما يعرض له في سنة موته قال :

يا مالك الأرواح والأجسام	وخالق النجوم والأحكام
مدبر الضياء والظلام	لا المشتري أرجوه للأنعام
ولا أخاف الضر من بهرام	وانما النجوم كالأعلام
والعلم عند الملك العلام	يا رب فاحفظني من الأسقام
ووقني حوادث الأيام	وهجنة الأوزار والآثام
هبنى لحب المصطفى المعتام (٢)	وصنوه وآله الكرام

وكتب بخطه على تحويل السنة التي دلت على انقضاء عمره :
أرى سنتي قد ضمنت بعجائب

وربي يكفيني جميع النوائب
ويدفع عني ما أخاف بمنّيه
ويؤمن ما قد خوفوا من عواقب

(١) الكامل لابن الاثير ٣٨/٩ .

(٢) المعتام : المختار المصطفى .

اذا كان من أجرى الكواكب أمره
 معيني فما أخشى صروف الكواكب
 عليك أيا رب السماء توكل
 فحطني من شر الخطوب الحواري
 وكم سنة حذرتها فتزحزحت
 بخير واقبال وجد مصاحب
 ومن أضمر اللهم سوءا لمهجتى
 فرد عليه الكيد أخيب خائب
 فلست أريد السوء بالناس انما
 أريد بهم خيرا مريع الجوانب
 وأدفع عن أموالهم ونفوسهم
 بجدي وجهدي باذلا للمواهب
 ومن لم يسمع ذاك منى فانتى
 سأكفاه ان الله أغلب غالب
 وبلغته عن بعض أصحابه شماتة ، فقال :
 وكم شامت بى بعد موتى جاهلا
 بظلمى يسلى السيف بعد وفاتى
 ولو علم المسكين ماذا يناله
 من الظلم بعدى مات بعد مماتى
 ووجد فى بعض أيام مرضته التى توفى فيها خفة ، فأذن للناس ،
 وحل وعقد ، وأمر ونهى ، وأملى كتباً تعجب الحاضرون من
 حسنها وفرط بلاغتها ، وقال :

كلامنا من غرر وعيشنا من غرر^(١)
 انى وحق خالقي على جناح السفر
 ثم لما كانت ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة خمس
 وثمانين وثلثمائة انتقل الى جوار ربه ، ومخل عفوه وكرامته ،
 ومضى من الدنيا بمضيه روتق حسنها ، وتاريخ فضلها^(٢) .
 وكانت وفاة صاحب الرى ، ثم نقل الى أصبهان ، ودفن
 فى قبة بمحلة تعرف بباب ذكره ، قال ابن خلكان^(٣) : وهى عامرة
 الى الآن ، وأولاد بنته يتعاهدونها بالتبويض^(٤) ..

* * *

وكانت وفاة صاحب مظهرا فائقا رائعا لما كان له من رفيع
 المنزلة فى قلوب رجال الدولة وعامة الشعب ، وما حلّ بهم من
 الجزع لفقده ، حتى قيل انه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان فى
 حياته غير صاحب بن عباد ، فانه لما توفى أغلقت له مدينة الرى ،
 واجتمع الناس على باب قصره ، ينتظرون خروج جنازته ، وحضر
 مخدموه فخر الدولة وسائر القواد ، وقد غيروا لباسهم ، فلما خرج
 نعشه الى الباب على أكتاف حامله للصلاة عليه قام الناس بأجمعهم
 اعظاما ، وصاحوا صيحة واحدة ، وقبلوا الأرض ، وخرقوا
 ثيابهم ، ولطموا وجوههم ، وبالقوا فى البكاء والنحيب عليه

(١) الفرر - بضم ففتح - الحسن ، وبفتحيتين الخطر .

(٢) يتيمة الدهر ٢٧٩/٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٢٧/٢ .

(٤) توفى القاضى شمس الدين أحمد بن خلكان سنة ٦٨١ هـ
 أى بعد وفاة صاحب بنحو ثلثمائة علم .

جهدهم ، وابتدر الديلم الى تقبيل الأرض قدام جنازته ، ثم حملت الى موضع الصلاة ، وصلى عليه أبو العباس الضبي الذي تولى الوزارة بعده ، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للعزاء أياما ، وبعد أن صلوا عليه علقوا نعشه بالسلاسل في سقف بيت ، ورفعوه عن الأرض الى أن حمل الى أصبهان ، ودفن هناك (١) .

ولقد أطلقت وفاة صاحب السنة شعراء العصر ، فكثرت مراثيه ، وطالت وجادت ، ووجد الشعراء في عظمة صاحب وشخصيته ، وفي مروءته وسماحته ، وفي شعره وكتابته ، وفي تديره وسياسته ، وفي تقواه وعفته ، معينا لا ينضب من المعاني المتزاحمة الجياد ، جعلت مراثيهم فيه من خرائد الشعر المصونة ، ومن نماذجه العالية ، حتى لقد كان أحدهم يلقي عليه الشعر في رثاء صاحب ويلهمه في منامه ، قال أبو القاسم بن أبي العلاء الشاعر الأصبهاني : رأيت في المنام قائلا يقول لي : لم لم ترث صاحب مع فضلك وشعرك ؟ فقلت : أجمتني كثرة محاسنه ، فلم أدر بهم . أبدا منها ، وقد خفت أن أقصر وقد ظن بي الاستيفاء لها !! فقال لي : أجز ما أقوله ، فقلت : قل ، فقال :

« ثوى الجود والكافي معا في حفيرة » فقلت :

« ليأنس كل منهما بأخيه » فقال :

« هما اصطحبا حين ثم تعانقا » فقلت :

(١) ابن خلكان ٢٢٩/٢ وياقوت ٢٧٥/٦ وأعيان الشيعة ٣٢٤/١١ .

« ضجيعين في لحد بباب دزيه » فقال :

« اذا ارتحل الثاؤون عن مستقرهم » فقلت :

« أقاما الى يوم القيامة فيه » ..

ورثاء الشريف أبو الحسن الرضى الموسوى النقيب بقصيدة
طويلة ، ذكر منها الثعالبي في يتيمة الدهر خمسة وستين بيتا ،
وأول ما ذكره منها قول الشريف :

أكذا المنون يقطر الأبطالا

أكذا الزمان يضعضع الأجبالا

أكذا تصاب الأسد وهى مدلة

تحمى الشبول وتمنع الأغبالا

أكذا تقام عن الفرائس بعدما

ملأت هماهما الورى أو جالا

أكذا تحط الزاهرات عن العلا

من بعد ما شاق العيون منالا

أكذا تكب البزل وهى مصاعب (١)

تطوى البعيد وتحمل الأثقالا

أكذا تغاض الزاخرات وقد طغت

لججا وأوردت الظمماء زلالا

(١) البزل جمع بازل وهو الجمل اذا بلغ واشتد ، والمصاعب جمع مصعب وهو الجمل الفحل ويقال أصعبت الجمل فهو مصعب اذا تركته فلم تركبه ولم يمسه جبل .

يا طالب المعروف خلق نجمه
حط الحمول وعطل الأجمالا

وأقم على يأس فقد ذهب الذي
كان الأنام على نداءه عيالا
من كان يقرى الجهل علما ثاقبا
والنقص فضلا والرجاء نوالا

ويجن الشجعان دون لقاءه
يوم الوغى ويشجع السؤالا

وهي من أروع المراثي في الأدب العربي ، ومن أروع ما جادت
به شاعرية الشريف الرضي ، ولولا خوف الاطالة لأتينا على
أكثرها ، فما من بيت فيها الا وفيه القوة وأثر الفجعة على
الصاحب وتسجيل مآثره الفريدة ، فليطلبها من شاء في « يتيمة
الدهر في محاسن أهل العصر » للثعالبي (٢٨٣/٣ — ٢٨٥) .

ولأبي العباس الضبي ، وقد مرّ باب الصاحب :

أيها الباب لم علاك اكتئاب

أين ذاك الحجاب والحجاب ؟

أين من كان يفزع الدهر منه

فهو اليوم في التراب تراب ؟

ولأبي القاسم بن أبي العلاء الأصفهاني :

يا كافي الملك ما وفيت حظك من

وصف وان طال تمجيد وتأين

فت الصفات فما يرثيك من أحد
الا وتزينه اياك تهجين
ما مت وحدك لكن مات من ولدت
حواء طرا ، بل الدنيا ، بل الدين
هذى نواعى العلا مذمت نادبة
من بعد ما ندبتك الخرّد العين
تبكى عليك العطايا والصلات كما
تبكى عليك الرعايا والسلطين
قام السعاة وكان الخوف أقعدهم
فاستيقظوا بعد ما متّ الملاعين
لا يعجب الناس منهم ان هم انتشروا
مضى سليمان وانحل الشياطين
ما أحسن هذا المثل ، وما أمكن موقعه ! ومن قصيدة أبى سعيد
الرستمى :

أبعد ابن عباس يهش الى السرى
أخو أمل أو يستماح جواد
أبى الله الا أن يموتا بموته
فما لهما حتى المعاد معاد
ومن قصيدة أبى الفرج ميسرة :
ولو قبل الفداء لكان ينفدى
وان جل المصاب على التفادى

ولكن المنون لها عيون
تكد لحاظها في الانتقاد
فقل للدهر أنت أصبت فالبس
برغمك دوننا ثوبى حداد
إذا قدمت خاتمة الرزايا
فقد عرضت سوقك للكساد
ورثاء ختنه أبو الحسن على بن الحسين الحسنى بقوله من
قصيدة :

ألا هل أتى الآفاق أية غمة
أطلت ، ونعمى أى دهر تولت
وهل تعلم الغبراء ماذا تضمنت
وأعواد ذاك النعش ماذا أقلت
فلا أبصرت عيني تهلل بارق
يحاكى ندى كفيك الا استهلت
ولو قبلت أرواحنا عنك فدية
لجدنا بها عند الفداء وقلت

* * *

ونجتزئ بهذا القدر مما قيل فى رثاء صاحب ، فانه من
الكثرة والجودة بدرجة لا تتسع لها هذه الصفحات ، ولكنها جميعا
تدل على مدى الحسرة وألم الفجيعة بموته ، وأكثر هذا الرثاء
نقراً فيه العاطفة الصادقة ، والاحساس العميق بهول الكارثة
وكان أصحابه كانوا يقولونه ، وقلوبهم تضطرم وأكبادهم تحترق .

والى جانب هذه الصور المشرقة للوفاء وعرقان الجميل ، رأينا بعد وفاة الصاحب صورا للجحود ونكران الجميل ، ونسيان الفضل ، وهى صورة للخسة وما طبعت عليه بعض النفوس من اللؤم وسوء الطبع ، وكان القاضى « عبد الجبار بن أحمد » صورة من صور هذا الجحود والتتكّر للمعروف ، فقد قدّره الصاحب واستدعاه من بغداد ، وأكرمه وقدمه ، وولاه قضاء الرى ، ولم يكتف الصاحب فى اكرامه بهذا ، بل عينه قاضيا للقضاة فى جرجان وطبرستان وما يليهما من الأعمال ، ويذكر فى خطاب توليته ما يرفع عبد الجبار هذا الى الذروة من العلم والفضل والورع والنبل ما نصه « هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين الى عبد الجبار بن أحمد حين ألفاه الكافى فيما استكفاه ، الوافى بما قلده واسترعاه ، قد نهض من قضاء قضائه ، بما أحمد فيه رضى مسعاته ، مؤديا حق الله فى الأخذ بالعدل ، والحكم بالفصل ، والقضاء بموجب الدين ومقتضاه ، والامضاء على سنن الشرع ومفضاه ، لا يميل به هواه عند الارتياح ، ولا يختلف مغزاه فى الاعتبار والاجتهاد . الورع مركبه وسبيله ، والحق مقصده ودليله ، قد ضربت بحسن مذهبه الأمثال ، وشدت الى اقتباس علمه الرجال . فرأى أن يضيف له الى ما يليه من أحكام مملكته الحكم على آتف ما استضافه بأمر أمير المؤمنين الطائع لله ، أطال الله بقاءه ، الى مملكته من جرجان وطبرستان وما يجرى مع أعمالهما ويعدّ من سفوحهما وجبالهما ، برّ ذلك وبحره ، سهله ووعره ، ممتعا رعية هذه البلاد بكفايته ،

قاسما لهم حظوظهم من رعيته ودرايته ، فأولى الولاية من جمع فيه الحلم والحجى ، وأكفى الكفاة من أجمع عليه فى العلم والتقى ، والله ولىّ الخيرة فيما يراه ، والبركة فيما أمضاه ، انه سميع بصير ، وعلى كل شىء قدير (١) .

وهذا القاضى «عبد الجبار بن أحمد» الذى أحسن اليه صاحب هذا الاحسان وولاه هذه التولية ، وقال فيه مثل ذلك الكلام لما توفى صاحب كان الناس يترحمون عليه الا هذا القاضى عبد الجبار فانه كان يقول أمام الناس « أنا لا أترحم عليه ، لأنه لم يظهر توبته » ! فطعن عليه فى ذلك ، ونسب الى قلة الرعاية والوفاء للمعروف ، فلا جرم أن فخر الدولة قبض عليه بعد موت صاحب ، وصادره فيما قيل على ثلاثة آلاف ألف درهم ، وعزله عن قضاء الرى ، وولى مكانه القاضى أبا الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى العلامة صاحب التصانيف والفضائل الجمة .. وقيل ان عبد الجبار هذا باع ألف طيلسان مصرى فى مصادرتة ، وهو شيخ يقول ان المسلم يخلد فى النار على ربع دينار ، وجميع هذا المال الذى حصله من قضاء الظلمة بل الكفرة عنده ! .

وذمه كذلك أحد الشعراء — كما ذكر أبو حيان ولعله هو « أحد الشعراء » — فذم سجنه وخطه وعقله :

متلقب كافى الكفاة وانما
هو فى الحقيقة أكفر الكفار

(١) رسائل صاحب بن عباد ٣٤ .

السجع سجع مهوَّس^(١) والخط خ
ط منقرس^(٢) والعقل عقل حمار
فيا سبحان الله ! ولكن :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم
ولكن هنالك ما يدعو الى العجب العجاب ، وما هو أشد
من هذا ظلما وعذرا ، وذلك فيما رواه ابن الأثير في قوله :
لما توفي صاحب بن عباد أنفذ فخر الدولة من احتاط على ماله
وداره ، ونقل جميع ما فيها اليه .. ثم ان فخر الدولة قبض على
أصحاب ابن عباد ، وأبطل كل مسامحة كانت منه ، وقرر هو
وووزراؤه المصادرات في البلاد ، فاجتمع له منها شيء كثير ، ثم
تمزق بعد وفاته في أقرب مدة ، وحصل بالوزر وسوء الذكر ..
قال ابن الأثير متعجبا : فقبح الله خدمة الملوك ، هذا فعلهم
مع من نصح لهم ، فكيف مع غيره^(٣) ؟ !

ثم انظر بعد ذلك ما فعل مالك الملك بفخر الدولة ، فقد أدركته
منيته بقلعة طبرق في شعبان سنة ٣٨٧ هـ ، ولما مات كانت مفاتيح
الخزائن بالرى عند أم ولده مجد الدولة ، فطلبوا له كفنا فلم
يجدوه ، وتعذر النزول الى البلد لشدة شغب الديلم ، فاشتروا

(١) أى مصاب بالهوس ، وهو خفة العقل ، وطرف من الجنون .

(٢) أى مصاب بالنقرس ، وهو مرض في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

(٣) الكامل لابن الأثير ٣٨/٩ .

له من قيم الجامع ثوبا كفنوه فيه ، وزاد شغب الجند ، فلم يمكنهم دفنه ، فبقى حتى أتنن ، ثم دفنوه (١) ..

وتفصيل غدر فخر الدولة بالصاحب بعد وفاته أن أبا محمد خازن الكتب كان ملازما دار الصاحب في مرضه على سبيل الخدمة ، وكان عينا لفخر الدولة عليه . فلما توفي الصاحب بادر بأعلامه الخبر ، فأنفذ فخر الدولة ثقاته وخواصه حتى احتاطوا على الدار والخزائن ، ووجدوا كيسا فيه رقاع أقوام بمائة وخمسين ألف دينار مودعة له عندهم ، فاستدعاهم فخر الدولة وطالبهم بالمال فأحضره ، وكان فيه ما هو بختم مؤيد الدولة ، وتقل جميع ما كان في الدار والخزائن الى دار فخر الدولة ، ثم قبض على أصحاب ابن عباد ..

(١) المصدر السابق ٤٥/٩ .

خاتمة

وبعد ، فلعل في هذا القدر من الدراسة ما يكفي لرسم صورة واضحة لمعالم شخصية أبى القاسم صاحب بن عباد ، واذا كان لا بد من كلمة تنهى بها هذه الدراسة تتصل بما فيها ، وتنبّه الى غيرها مما له وثيق الصلة بموضوعها ، فان من أهم ما نريد أن نلفت اليه نظر القارئ هو أننا لم يكن من همتنا تتبع حياة صاحب وتدرجه في سلم الحياة يوما بعد يوم وسنة بعد سنة . فقد كان حسبنا من ذلك أن نذكره كاتباً ووزيراً ، وأن نشرح مقامه في الكتابة ، ومقامه في الوزارة ، ونصف ما استطاع أن يحقق في هذين المجالين من المجالات الرسمية التي اتصلت بحياته ، وقامت على أساسهما صفته العامة أو حياته العامة .

ومن المعروف أن الأعمال الكبار والمهام الجسام كان يناط تديرها كما كان يناط تنفيذها اذ ذاك بأولئك الرجال من الكتاب والوزراء ولكن التاريخ لم يكن ليتتبع حياة أولئك العاملين ولا ينسب اليهم الأعمال المجيدة التي قاموا بها ، والمخاطر الشداد التي تعرضوا لها ، بقدر ما كان يستقصى حياة سادتهم من الملوك والسلطين ويعرض للخطر والتافه من شئون هذه الحياة ، وينسب اليهم الأمجاد والبطولات التي حصلت نحت بنودهم والوقائع والأحداث التي

جرت في أيامهم ، ومن ثم تضيع تلك الأمجاد أو تضيع نسبتها الى أصحابها وفاعليها الأصليين .

ولكننا على الرغم من ذلك استطعنا أن نعرف كثيرا من مظاهر العظمة والتوفيق في الحياة العامة للصاحب بن عباد ، واستطعنا أن نقرأ بين سطور ذلك التاريخ بعض مظاهر البطولة في السياسة والقيادة التي تولاها الصاحب ، فقد عرفنا أعماله الكبار في تثبيت ملك آل بويه ، وما مكن به لمؤيد الدولة ، وما مهد به لفخر الدولة حتى أصبح ملكا وسلطانا بعد أن عاش بعيدا طريدا أيام أخويه ، وقد ذكر التاريخ أن الصاحب فتح لمخدومه فخر الدولة خمسين قلعة لم يكن لأبيه ولا لأخيه شيء منها ، عدا ما لم يذكره التاريخ أو ما ذكره منسوباً لغيره .

ولم تكن هذه الحياة الفانية التي درسنا منها ما درسنا لتعنينا بالقدر الذي كان يعيننا من دراسة العوامل والأسباب التي هيأت له الحياة الباقية ، حياة الذكر والخلود ، وهي فضائله ومكارمه التي عرف بها ، والتي تعدّ بطبيعتها أهم مقومات شخصيته التي قام عليها مجده التاريخي وهي علمه المتبحر في صنوف كثيرة من المعرفة ، وفنه الأدبي الذي برز فيه كاتباً في طليعة الكتاب وشاعراً في مقدمة الشعراء ، وناقداً صاحب أداة من الثقافة والخبرة والذوق . وأعتقد أن هذا الجانب قد استوفى حقه من العناية في هذا الدرس ، كما استوفت حظها من تلك العناية الأجواء التي أحاطت به والتي كان لها بعض الآثار في منهجه وسلوكه العام ، ولم تقتصر دراستنا في هذا الجانب على الأولياء الذين ناصروه

وأخذوا بيده الى مكان الصدارة والسلطان ، بل انها فتحت قلبها للحصّاد والمعوقين الذين حاولوا بكل ما أوتوا من البيان أو من سلاطة اللسان أن يهدموا صاحب ويثلوا مجده الراسخ كأبي حيان التوحيدي الذي شرحت هذه الدراسة عوامل سخطه وحنقه ومظاهر تعامله على صاحب أو على علمه وفنه ؛ ومدى ما يمكن من الثقة بأقواله الحاكمة التي انبعثت من قلبه الحاسد الموتور .

واعتقد أولا وأخيرا أن عظمة صاحب وكرامته التي أشرنا الى شيء ليس بالقليل من مظاهرها وشواهدا كانت في حقيقتها عظمة للعلم الذي احتل به ، والأدب الذي حصله وجاد به ، والمكارم التي بنى عليها وتشبث بها ، ثم كانت من بعد كرامة لأهل المعرفة والفن وبناء المكارم من بنى البشر على مرّ الزمان .



ولقد عرف القارئ من ثنايا هذه الدراسة في الفصل الذي عقدناه للحديث عن « صاحب الأديب » أنه تلقى أصول فنه الكتابي عن أبي الفضل بن العميد الذي كان يلقب بالأستاذ والشيخ والرئيس ، ولكل لقب من هذه الألقاب دلالة على الأستاذية والزعامة ، وهي زعامة اعترف بها التاريخ الأدبي عند هذه الأمة في فن الكتابة ، حتى أصبحنا نجد الى جانب المدارس المعروفة : مدرسة عبد الحميد ، ومدرسة الجاحظ ، ومدرسة ابن المقفع ، مدرسة جديدة ذات خصائص متميزة ، وهذه الخصائص في جملتها مستمدة من الحياة الحضارية في المشرق التي

ظهرت آثارها في التفكير ، كما ظهرت آثارها في التعبير في قوة ووضوح وجمال يجارى الحياة المتأققة التي عاش فيها هذا الفن وأصحابه ، وكانت هذه الطريقة المتميزة هي طريقة ابن العميد التي تلقى صاحب أصولها عن صاحبها ومبتدعها وهو ابن العميد نفسه ، والتي تجمع الى الاحتفال بالقالب والصياغة جودة المعنى والمضمون ، لوفرة المعاني وتزاحم الدواعي التي تدفع الى التعبير . ولم يكن أدبها أدب تسلية أو تزجية فراغ ، فقد كان هناك من مستلزمات الجدم لا فراغ معه للهزل — كما قال صاحب نفسه — وكما كان صاحب عميديا في صناعته وتأنيقه الحضارى كان جاحظيا في احتفاله بالمعاني وتفصيلها ؛ كما كان جاحظيا في كلامه وفي اعتزاله .

ولقد خلف صاحب هذا الأسلوب الكتابي في قوته وعنفوانه ، يحتذيه من يملكون قوة الفكرة كما يملكون أداة التعبير الفنى المتأنق الجميل ، وقد ترسم خطا صاحب عدد من زعماء فن الكتابة وفي مقدمتهم ضياء الدين بن الأثير صاحب المثل السائر ؛ كما تأثر بها القاضى الفاضل زعيم الطريقة الفاضلية التي طغت تعاليمها وتلقفها كتاب بغير أداة من الفكر والثقافة فغالوا في الزخرف والطلاء ليخفوا عجزهم وكلالهم في عصور الظلام والاقفار ، حتى شوّه الفن الجميل ، وقبحت الصناعة في نظر كل مطلع على كتابات المتأخرين .

* * *

وبعد ، فان كان قد بقى من أمجاد الصاحب شىء لم تحققه
هذه الدراسة لأنه يخرج عن نطاقها وطبيعتها ، فان هذا الباقي
يتمثل فى آثار الصاحب ومصنفاته التى أشرنا إليها ، وعرفنا
بموضوعاتها ، والتى نحسّ بالحاجة الملحة الى موالاة الجهود
فى البحث عن مظانها وكشفها للناس حتى تضم الى تراث العروبة
الحافل ، وتعظم الفائدة والانتفاع بما حوت من آثار المعرفة
والبصيرة ، وما ذلك على أولى العزم بكثير .
والحمد لله على ما هدى اليه ، وأعان عليه . له الحمد فى
الأولى والآخرة . نعم المولى ونعم النصير .

بدوى احمد طبانة

مراجع البحث

- ١ - الآثار الباقية من القرون الغالية : أبو الريحان محمد بن أحمد البهروني
- ٢ - ارشاد الأريب الى معرفة الأديب = معجم الأدباء : ياقوت الحموي
- ٣ - أعيان الشيعة : السيد محسن الأمين العامل
- ٤ - الامتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدي
- ٥ - انباء الرواة الى أبناء النحلة : علي بن يوسف الففطي
- ٦ - البداية والنهاية في التاريخ : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير
- ٧ - بغية الوعاة : جلال الدين السيوطي
- ٨ - تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان
- ٩ - تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي : أحمد الاسكندري
- ١٠ - تاريخ الأمم الاسلامية : محمد الخضري
- ١١ - تجارب الأمم : أحمد بن محمد بن مسكويه
- ١٢ - رسائل الصاحب بن عباد : تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور شوقي ضيف
- ١٣ - شذرات الذهب : عبد الحي بن العماد الحنبلي
- ١٤ - صبح الأعشى في صناعة الانشا : أبو العباس أحمد القلقشندي
- ١٥ - الصناعتين : أبو هلال العسكري
- ١٦ - الصاحبى في فقه اللغة وستن العرب في كلامها : أحمد بن فارس
- ١٧ - العبر وديوان المبتدأ والخبر = تاريخ ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون
- ١٨ - العقائد : عمر عنايت
- ١٩ - الفصل في الملل والأهواء والنحل : ابن حزم الظاهري الأندلسي
- ٢٠ - فقه اللغة وأسرار العربية : أبو منصور الثعالبي

- ٢١ - الفهرست : محمد بن اسحاق النديم
٢٢ - الكامل فى التاريخ : ابن الأثير
٢٣ - الكشف عن مساوئ المتنبي : الصاحب بن عباد
٢٤ - المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير
٢٥ - مختصر تاريخ البلدان : ابن الفقيه
٢٦ - مسالك الممالك : الاصطخرى
٢٧ - الملل والنحل : الشهرستانى
٢٨ - المنتزع من كتاب التاجى : أبو اسحاق الصابى
٢٩ - المنتظم : ابن الجوزى
٣٠ - نزهة الأنباء فى طبقات الأدباء : الأنبارى
٣١ - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة : التنوخى
٣٢ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان
٣٣ - يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر : أبو منصور الثعالبي

فهرس

صفحة

مقدمة ١٠-٣

الفصل الاول : بنو بويه

ظهور بنو بويه - أصلهم ونسبهم ١٢
 عماد الدولة ، وركن الدولة ، ومعز الدولة ١٩
 بنو بويه فى العراق - أدب بنو بويه ٢٥

الفصل الثانى : الصاحب بن عباد

آباء الصاحب ، بلده ، نشأته ، أساتذته ٤٠
 ابن العميد وابن فارس ٤٣
 الصاحب وابن العميد ، العميد وأولاد بويه ٤٩
 ابن العميد (أبو الفضل) - صلته بالصاحب ٥١
 الصاحب يؤدب مؤيد الدولة ٥٤
 مع ابن العميد الصغير (أبى الفتح) ٥٧
 ابن العميد فى بغداد - مع عضد الدولة ٦٠
 ابن العميد ومؤيد الدولة ٦٤
 توجس من الصاحب واقصاؤه الى أصفهان ٦٥

٧٤ نكبة ابن العميد

الفصل الثالث : الصاحب الوزير

٨٢	الصاحب ومؤيد الدولة
٨٣	بين مؤيد الدولة وعضد الدولة
٨٥	الصاحب وفخر الدولة
٨٩	الصاحب في بغداد
٩٧	بنو بويه والصاحب
١٠٣	الصاحب وحكام الزمان
١٠٥	الصاحب والوزراء والكتاب
١١٦	عروبة الصاحب

الفصل الرابع : اخلاق الصاحب

١٢٤	الترفع والاعتداد بالنفس
١٢٦	عظمة الصاحب : مظاهرها
١٣١	تواضعه للفقراء والزهاد والعلماء والأدباء
١٤٠	وفاء الصاحب لبنى بويه ولأصدقائه ولعمله
١٤٦	حقد أبي حيان على الصاحب ، تناقضه
١٤٩	تسامح الصاحب ، دماثة طبعه
١٥٤	دعابته وفكاهاته
١٥٧	سماحة الصاحب بين الحقيقة والظنون

مثل رائعة لسماحته	١٦٢
اعتداله ومظاهره	١٦٢

الفصل الخامس : صاحب الأديب

منزلته بين الأدباء - منابع أدبه	١٧٦
---	-----

(١) صاحب النثر :

لفظه ومعناه - عصر الصنعة	١٧٨
ارتجاله الكلام البديع	١٨٢
سجعه المطبوع وسجعه المتكلف	١٨٣
احتمال الافتعال من أبى حيان	١٨٧
بين الصنعة والطبع	١٨٨
نماذج من أدبه الكتابي : أدب الرسائل	١٨٩
أدب العهود ، طابعه	١٩٤
فقرات من كلامه تجرى مجرى الأمثال - توقيعاته	٢٠٨
أفادته من القرآن والحديث والشعر	٢١١

(٢) صاحب الشاعر :

قراءاته المستفيضة ومجالسه الشعرية	٢١١
طبيعة شعر صاحب	٢٢٨
أخوانياته ، مدائحه ، وصفه ، غزله	٢٣٠
فكاهته ومجونه - ارتجاله واجادته	٢٤١
أفادته وسرقاته	٢٥٠

(٣) صاحب الناقد :

٢٥٤	ثقافته الأدبية والنقدية
٢٥٧	نقد ابن العميد وأثره فيه ، رأى صاحب فى الناقد
٢٥٨	الصاحب والمتنبى
٢٦٠	رسالة الصاحب فى الكشف عن مساوئ المتنبى
٢٦٠	مادتها ، نماذج منها
٢٧٦	خصائص نقد الصاحب
٢٨٠	روح السخرية فى نقده

الفصل السادس : الصاحب العالم

٢٨٦	ثقافته الأدبية وثقافته العلمية
٢٨٧	رأى المترجمين فى علمه
٢٨٨	الصاحب بين المتكلمين ، الصاحب والمعتزلة
٢٩٥	تسامح الصاحب مع مخالفيه فى رأى
٢٩٦	مثل من مناظراته
٣٠٥	علم الصاحب بالحديث والعلوم الشرعية
٣٠٨	علم الصاحب ومؤلفاته فى علوم اللغة والأدب
٣١٠	بينه وبين أبى سعيد السيرافى
٣١٣	عوامل تخرجه فى العلم وأصول الأدب
٣٢١	الصاحب وفن الطب
٣٢٥	آثار الصاحب

الفصل السابع : أبو حيان والصاحب

٣٣٠	علم أبي حيان وأخلاقه
٣٣٢	ولوعه بالثلب والانتقاص
٣٣٣	حقده على الصاحب - أسبابه ودوافعه
٢٥١	مدى صدقه فيما أخذ على الصاحب

وفاة الصاحب

٣٥٥	أثر الفجعة فيه
٣٦٠	مراثيه
٣٦٤	بين الجحود والاعتراف
٣٦٩	خاتمة
٣٧٥	مراجع البحث
٣٧٧	فهرس الكتاب

